الميلودي شغموم

الأعمال الكاملة

الجزء الثالث

3. الروايات

منشورات



وزارة الثقافة

الميلودي شغموم : الأعمال الكاملة
الإيداع القانوني : 2004/1524
ردمــــك : 9981-822-73-6
منشورات وزارة الثقافـة - 2005
سحـــب : مطبعة دار المناهل

الميلودي شغموم

الأعمال الكاملة

الروايات

الجزء الثالث

الأناقة

إلـــى

ابنتي: أمال وأسية

صالحة وصالحه

بسط « تصميمه »، ثبته بالحصى، نظر إلى البحر شمالا، نظر إليه جنوبا، نظر إلى التصميم من جديد، تأمله طويلا، ثم تأمل البحر من جميع الجهات قبل ان يمسح الغاية خلف ظهره مسحا شاملا، تفحص البحر من جديد والرمل من حوله، قال مؤكدا لنفسه:

هنا « الصالحية» الكبرى، الحاضرة: هذه الساحة العظمى المفتوحة على الميناء، هذه دار القضاء، هذه الحامامت، هذا المسجد الجامع وملحقات الجامعة، تلك المخازن والفنادق، هناك مجمعات الحرفيين والصناع والتجار...

وهذه الأزقة والمحجات والشوارع... والمناطق الخضراء تستدير وتتشابك لتنطلق كلها من الساحة العظمى وتعود إليها، وهناك الملاح القديم، هنا الملاح الجديد، هذه أحياء البرتغاليين والإسبان، هنا حي الفرنسيين ودرب الإنجليز، هذه المقاهي والملاهي والحانات... البورديل، هنا « باب الجنوب»: مراكش وآسفي، الصويرة أغادير، تومبوكتو... هذا « باب الشمال»: العرائش، طنجة وتطوان... هناك « باب الوسط »: مكناس، فاس، سجلماسة... شارع بيتنا، شارع الشاوية يبدأ من هنا، من باب الجنوب، خلف شارع الرباط، وينتهي عند باب الشمال، بيتنا في منتصف الشارع، بدرب المامون الرجل الذي عاشر عروس البحر سنة في السر التام، فلما هجرته، بعد أن ردته إلى البر، خرج على الناس حاملا طفلة « تقطع بالزين »، زينب–الزاهية... درب « مولاي المامون»، وللمامون حكايات أخرى عجيبة... حيث يتقاطع شارع الشاوية مع الممر الأخضر الهابط من رأس

الهضبة إلى البحر، سكنت هنا من يوم ولادتي إلى أن بلغت الخامسة والعشرين، لم أعرف مدينة أخرى غير هذه المدينة، لكني أعرف جميع المدن والحواضر: مراكش، فاس، طنجة والعرائش، أنفا وأسفي، الصويرة وأغادير... جميع مدن البحارة والتجار، أعرف الجزائر وتونس والاسكندرية ومارسيليه وبارشلونة... كأني أقمت فيها فترات طويلة من عمري: معرفة البحارة والتجار أطلس ضخم!

- .وغادر والدي الصالحية إلى مكناس ليرعي تجارة جدي بعد وفاته المفاجئة، وكان بصدد الزواج للمرة الخمسين على سنة الله ورسوله، لا يفكر في الموت ولا في المرض، فهاجر معه كل أهلي وبقيت وحدي ها هنا: اشتريت شقيقة بإحدى العمارات، عمارة « دار السعادة » العامرة، التي ربما سماها صاحبها الحاج محمد الرنجي بهذا الاسم، لأنه كان يعرف أنه إنما يبني لنا قبورا في الهواء، يدفننا فيها أحياء، « جازاه الله خيرا في الدنيا والآخرة...على هذه السعادة الشاملة الدائمة! ».... لكنها تطل مباشرة على الساحة العظمى ومنها على البحر والميناء، وقد قال غفر الله لنا وله، وقبح الطمع القاتل واللهطة الفتاكة، إنه يبيع لنا البحر وهواء البحر بثمن البر:

- « ولو كنتم أذكياء كاليبانيين العفاريت، لجمعتم الهواء واليود وبعتموه إلى الخارج بأغلى الأثمان! »....

- واشتغلت موظفا في إدارة الجمارك إلى أن جاءت « حملة الردع والتطهير » فمنحت تقاعدا إجباريا وأنا في الثامنة والأربعين، لأني كنت على علاقة ببنت أحد المتهمين بالارتشاء، ففسخت العلاقة المريبة، وكأني أغير جلدي للمرة الأخيرة انتقاما من امرأة أخرى غير بنت الجمركي، وبقيت أعزب إلى الآن!... أحب امرأة أخرى، أحببتها كل عمري، هي

الأنيقة وأنا الأنق، ولكن لمن أقولها وهي في الأعالي وأنا في الحضيض، إني أحب البحر!... ماله البحر، ياظلمة ويا ناكري خيره وستره؟...

– البحر جميل، جليل، كريم، دواء للقرف والجنون: تأتي إليه وهو هائج فتشعر بأنك لاشيء، لا تستحق، كأية نقطة من مائه العظيم الهادر الكريم، أن تحمل هما أو تضخم من قدرك أو قدر غيرك من البشر، فتهدأ نفسك وتطمئن!...

– ثم يسكن البحر ويتركك تركبه فيهمس إليك البحر ضاحكا:

– أرأيت كم أنت مهم رغم ضآلتك!

– أمنا المياه حاضنة ورادعة: نرتع في دفئها فنأتي إلى الدنيا باكين وبها نودعها شاكين، وطوبى لمن يضحك وهو يغتسل أو يغسل أو يعوم فقط، طوبى للماء الحي! وكنت إذا ضاق صدري وسدت عيناي، أحمل خيمتي الصغيرة بيد ومستلزمات التخييم بأخرى، أقطع باب الجنوب فأكون بعد نصف ساعة في شاطئ « السبع بنات »، أولئك اللائي جئن ذات ليلة من سبع جهات، حاملات سبع آلات مختلفات، فملأن الليل والنهار رقصا وغناء كان يردده البحر والهضبة إلى درجة أن كل المتاجر والبيوت غودرت إلى هناك ولم يرجع إليها أحد إلا بعد أن لاحت في الأفق أعلام سفن الإسبان:

– الجهاد، يا مسلمون!

– « الصالحيات السبع »، بنات الماء، بنات الهواء، شايل الله!

– هاهو شاطئ البنيات، الوليات الصالحات، اللائي قاتلن حتى استشهدن وما عثر أحد على جثتهن، فقيل إنهن صعدن إلى السماء! مازالت تأتيه أسراب البنات ليتعلمن الحياة أو الشجاعة ومازالت من تأتيه لا يظهر

لها أثر بعد ذلك لا في البر ولا في البحر! بنات صالحه وصالحه... مقدسات، مدنسات، غاويات، سريات!

- هاهي مغارة السبع بنات قد أصبح جزء منها ملاذا لطالبات الستر والولد وسكينة النفس الأمارة من المتزوجات! بنات صالحه وصالحه... الصالحات!

- ولكن المهربين أيضا يستعملون هذا الشاطئ لتهريب الحشيش والسلع والبشر والضمائر والكرامة طبعا.

- « لذلك قل فيه الأمان وقل السحر والجلال، قلت بركته وكرامات السبع بنات ! الصالحيات! »

« زمن الكثرة فيه ندرة والغنى فقر ولا أحد يقول فيه شبعت ولا حمدا لله! زمن... يا زمن! »

- « زمن أولاد صالحه وصالحه كذلك بالرغم من ذلك»!

- « الصالحيه والصوالحه كالبحر... مد وجزر، كرم وغدر فلا تغتر»!

- بعد قليل قد يأتي بعد الضحى، قال صديقي عادل... أبني الخيمة الآن ثم أذهب لأفطر... سأترك له كلمة بباب الخيمة فإذا شاء لحق بي أو انتظر إلى أن أعود فنرى ما نفعله بهذا اليوم الجميل... يوم آخر على قيد الحياة، يا سلام، وبالصالحية:

- « الحمد لله والشكر، لكل من يرعى الحياة ويحبها الشكر... لكل من لا ينسى أنه مازال حيا ولو ضاقت في عينيه الدنيا ولو يا أخي، ولو... تفاءل! »

- « ولو أن الشكر قل وهزل، أليس من أكبر النعم أن توجد حيا كل يوم؟ »

- "البحر شكور، يشكر كالشجرة والضرع والناقة والسحابة والمرء والسماء والريح... كالصالحيات، الأمهات والبنات!"

- "فالشكر يا صاحبي امتلاء وفيض، عرفان النعمة والثناء بها، ولو... يثني المرء على النعمة، أو يظهرها بإبرازها لتكون في متناول الغير، يفتح عليها وكأنه يقدمها، يعرضها مثلما تفعل بقية الكائنات، لا بالقبض وبالعض، بالبسط فتكبر نفسه وما بيده...".

- "تصدق؟ كما تتبسط اليد ينبسط اللسان، أي ينطلق بالعطاء، وينبسط الوجه المسدود أي يتلألأ، والقلب ينبسط، أي يسر... كل شيء يمكن أن يصبح عادة خاصة الشكر فلا تعود وجهك على القبض ولا يدك، لقد قيل الوجه لسان، فهات الوجاهة واترك الواجهة!"

- "كانت الناس عندنا، نعم عندنا في هذا البلد تقول "يا الله انبسطو شويه" يعني نتلاطف وننبسط، وقلت المباسطة اليوم أي الملاطفة... غير اللهطة والجري، الله يستر!".

- "وما يسميه أهل المسرح "البساط" معناه المباسطة أو البسط، أي يا سادة يا كرام كل ما يبسط، أعني يفرح ويبهج إذا كانت تبسط فيه الدنيا لنضحك عليها ونسلو، للملاطفة والشكر...".

- "وها قد استبقى منه قوم الفرش، وهو الرمزي الخالص في الاصل وكأنه الأهم يتشبثون بالقشور، وظنوه المطلوب فيه، فأين هذا الرمز وأين البسط والحمد والشكر...؟".

- لم لم نبق من البسط سوى البقشيش يا سيدي بقشيش؟... أتظن حقا أننا قد نتباسط هكذا يا رجل، يا بقشيش؟".

- "تعال نبسطو الله يهديك وخلينا من النميمة والهمز واللمز وقلة الصبر والفكر، تعال حبيبي، تعال!".

- "ولكن هؤلاء هم الذين زعموا أن الصالحية تنسب إلى صالح بن طريف المدعى عليه "زعيم" برغواطة الشهير، بعد أن أسقطوا أصله الأندلسي الثابت بطبيعة الحال، وجعلوا منه السبع بولبطين، وجعلوا من هذه الأرض الصالحة الشاكرة غفر الله لهم، "دار كفر بامتياز"... يا دار! من يريد أن يوزعنا هكذا؟ يا دار!".

- "خلينا نبسطو الله يخليك مع الصالحيات!".

- "وليس يا حبيبي إلى صالحة آتيس الشكور التي تنسب إليها بالفعل مدينة الصالحية..."

- "هذه نتيجة نزعة القبض والعض، نزعة الغفلة والاستغفال، ما لنا وما لها؟ ابسط... تنبسط!".

- "تحويل التاريخ إلى حكايات شديدة الجد، الخالي من الجد، والرموز إلى محتويات مادية محض، فارغة من الحياة في بساطة الحياة! البساط، يا عبيدات الرمى!".

- الحياة بسيطة؟ خلينا نبسطو ها العار، عار الصالحيات لما خلينا نبسطو، العار... مالكم ديما باغين تجذبوا؟ غني، أختي، غني: عيطة الصالحية وما صلحت... غني وكبي الكاس، آنت...".

- "هذه المدينة من إنشاء امرأة شديدة البساطة بجميع معاني البساطة: صالحة أتيس الشكور!".

- "عارف أعادل، أنا ولد المدينة، هذه المدينة، غني، أختي وكبي لنا، أختي صالحة وصويلح... أنا يا صالحه ما ساخي بك، عفاك!".

(ذهبت لأفطر في المقهى تحت العمارة تعال أوانتظر وعم صباحا أيها العادل الجميل. إبراهيم).

لم يعرف لصالحه أصل ثابت من كثرة ما جعلوا لها من اصول مختلفة: قالوا إنها من قبيلة زعير، وقالوا من الشاوية، وقالوا من دكالة، وقالوا من زمور... من سوس أو من الريف، من ضواحي تلمسان، من الصحراء، من موريتانيا، من الأندلس، ومن... لم يتركوا مكانا له تاريخ مع هذه الأرض إلا وربطوها به! إلا أن لا أحد يختلف في حكايتها إلا ببعض الزيادة أو النقصان الطفيف:

في قبيلة من تلك القبائل المذكورة رزق شيخ القبيلة بسبعة أولاد وبنت واحدة جاءت بعد أن بلغ من الكبر به عتيا، فأقام حفلا للشكر دام سبعة أيام متتالية صاخبة، خرج به عن عادة أهل القبيلة الذين كانوا يستترون على ولادة الإناث، ويحتفلون بولادة الذكور، لا خشية عار أو إملاق، ولكن لأن البنت كانت عندهم أعز ما يطلب في الدنيا خاصة إذا جاءت جميلة وذكية، لأن قيمتها في هذه الحالة تعلو على قيمة الولد علوا كبيرا!

وصادف، والله أعلى وأعلم علم اليقين، ولكثرة ما ادعى وزور بعض المؤرخين أن ازدادت في نفس الوقت وفي ذات القبيلة، بنت بذات المواصفات، في بيت خماس عند شيخ القبيلة لم يعلم بقدومها في تلك الساعة، إلا جارة بكماء، ساعدت الام على الوضع، ولم يرزق أبواها بغير هذه الزهيرة، سبحان الوهاب لا قبل ولادتها ولا بعد، فسمياها بدورهما صالحة لعل بمجيئها تصلح الأحوال!...

وصادف كذلك أن هاجمت الخنازير بالمئات، إذ جاءت من كل الغابات، وعاثت في القبيلة فسادا لم تعرف مثله في أي وقت فات طوال ليالي أسبوع الحفلات".

كما يقول صاحب "كتاب النور في أخبار الشكوك".

لم يجد خصوم الشيخ الشكور، ولا بعض المخلصين البسطان من أتباعه لهذه الكارثة من تفسير سوى الاحتفال بصالحة، فقد "أخل هذا الاحتفال البدعة بالمواثيق السرية والعلنية، بين البشر والحيوان، وأثار حفيظة الأجداد!" الأجداد الأفذاذ؟...

أجل، وماذا تكون كل هذه الأعداد من الخنازير البرية غير أرواح الأجداد، وقد تقمصت أجساد الخنازير لتعبر عن غضبها في أسوإ صورة وأبشع استنكار؟

- والحل؟

- الحل! الحل واضح: نعطيهم صالحة أو نهلك!

"كان أتيس الشكور مالكا لأسرار "كتاب البشر والطبيعة الظاهر والمستور" وكان يعلم أن لا أحد يقدر على مناقشة كلمة فيه "إذا اهتدى إلى فتحها جاهل أو عدو أو خصم جسور، بل كان يعرف كل المعرفة أن حتى الضأني الذي نجح هذه المرة في إثارة الفتنة لن يقبل بغير الزعامة، وهو على ما هو عليه من التطلع والكبر والغرور، ولن تنفعه معه مراضاة ولا مساومة ولا نذور بأقل من ذلك!".

الاجداد تطالب بابنتك، يا أتيس، فهل تريد ان تعصي للأجداد أمرا أم تراك تجد أن صالحة أغلى من القبيلة وأعز وأسبق وأصلح منا، بعدما تأكد أنها السبب، وصارت صورة البنت في النجوم؟

- "في النجوم يا ماكرا؟"

ماذا يقول وسط هذا الضجيج وكثرة النعوت والمقارنات الجوفاء؟

- صالحة، يا شكور، تهدأ الشرور! صالحة...

- صالحة!

- صالحة للأجداد والقبيلة للأمجاد! صالحة...

- صالحة!

وكيف يتخلى بعد طول انتظار وتوسل ودعاء عن أعز ما يرتقب في هذه الدنيا بعد كثرة الذكور ومسترسل الوحم؟ كيف يضعون صالحة في كفة والقبيلة كلها في أخرى؟ ومن أحق بالهلاك، صالحة أم القبيلة؟.

- "حنى الضأني، ما في هذا شك!"

ولكن كيف يستفرد به والقبيلة وسط كل هذا الهرج؟

لم يكن الخماس على علم بكل ما يجري، فهذا أمر لم يكن يعني الخماسين ولا كان من شأنهم أن يهتموا بسره إذا بلغ إليهم بعضه أو كله، فصراعات القمة كصراعات الآلهة في قديم الزمان وسالف العصر والأوان، لم تكن تعنيهم إلا بقدر ما يصيبهم منها من قهر أو جوع، ولكنهم كانوا قد تجمهروا أمام كوخه وكانوا يطالبون بـ "بنته" أو هكذا خيل إله وهو يسمع صراخهم:

- استري البنت الله يسترك! قال لزوجته.

وخرج إليهم شاهرا منجلا بيد ومدية بالأخرى:

- والله لن يقربها أحد إلا على جثتي!

وتقدم حنى الضأني ليصرخ في وجه شكور:

- تستغفلنا يا شكور بإخفاء البنت عند خماس، متى كان هذا من أخلاق السادة؟ أخرجوا البنت يا رجال، وقيدوا هذا العبد الخماس!

وظن أتيس الشكور في لحظة ضعف أن الأجداد قد هبوا لنجدته لولا أن زوجته أم صالحة كانت واقفة جنبه والبنت بين ذراعيها:

- خذوها! قالت صارخة قبل أن تهمس في أذنه:

- أنقذ ما تبقى يا رجل، فالبنت هالكة لا محالة!

سحبها الضأني من صدرها كما تسحب الحياة وما هي إلا هنيهة حتى "أسلمت الروح على الأجداد"!

وما اكتفوا بذلك: أخرجوا بنت الخماس من صدر أمها فصدرت عن الأم شهقة لم تعد بعدها إلى الحياة!

غير أن المفاجأة الكبيرة أنهم وجدوا البنتين نسختين من بعضهما! فحسم الضأني الهلع:

- تفرح الآلهة وترضى بكثرة القرابين، والمتشابهات والمتشابهون إخوة الشياطين!

رمي بالبنتين معا، بعد أن زفتا كما تزف أجمل العرائس العذارى البهيات، في الغابة، في مغارة القرابين، للخنازير الأجداد، ودفنت قربهما المرأتان الوالدتان زيادة في التقرب والزلفى!

لقد سميت هذه القبيلة فيما بعد بـ "قبيلات خنازير النساء" لأن الخنازير فيها لا تخاف، يقولون، إلا من النساء، وربما يقولون كذلك، لأن الخنازير قد أبادتها منذ تلك الليلة التي قدمت إليها خلالها أربع نساء قربانا وزلفى!

من هنا يا سادتي يا كرام، وفي وقت لم تكن النساء تذهبن فيه إلى "الحلقة" لسماع أخبارهن لدى الرجال، تبدأ حكاية مدينة الصالحية في قبيلة تنوعت اسماؤها، وأماكنها، وكأن كل من يحكي قصتها يريد أن ينتمي إليها: "الحكاية انتماء ورجاء"، يقول العطوي صاحب "كتاب النور في أخبار الشكور"!

غير أن الخنازير كانت أرحم من الرجال: كانت تقترب من البنتين، الخنزير بعد الآخر، وفيما يشبه النظام البديع أو الخوف أو التقدير، تتشمم رائحتهما بلطف كبير، وتنسحب في ما يشبه النظام البديع أو الخوف او

التقدير، وقد تتشمم رائحتهما بلطف كبير وتنسحب في ما يشبه الغضب الهادئ! لا إله إلا الله وكل من صلى على النبي يربح!...

وسبحان واهب الحياة وراعيها ضد الظلم والطغيان: أفاقت البنتان لما هدأت الغابة والرجال من حواليهما، فأطلقت كل واحدة منهما صرخة صغيرة عادت على إثرهما الأمان الفقيدتان إلى الحياة! وكل من صلى على النبي يربح!..

اهتمت المرأتان بتربية ابنتيهما بما توفر لهما من ذكاء وصبر ورزق في تلك الغابة الشاسعة الكثيفة، إلى أن وصلتا سن البلوغ، ولشدة ما كانت دهشة الشابتين الجميلتين ذات صباح ربيعي، إذ وجدتا المرأتين متلاصقتين وليس فيهما أدنى نفس: لقد جاء أجلهما أخيرا كما يجئ أجل كل النساء بعد القيام بالواجب! لا إله إلا الله وكل من صلى على النبي يربح!...

من غابة إلى غابة... حتى وصلتا إلى هذه الهضبة المشرفة على البحر: هضبة الصنوبر الموحشة بين شاطئ "الصنوبر" وشاطئ "الداهومي" التي ستصبح فيما بعد مدينة الصالحية!

في البداية، لاحظ أحد ربابنة السفن الإسبان، كلما مر مستطلعا قريبا من هذا المكان، وكان يمر به دائما سكران، أن "كارمن" التي سارت بذكرها الركبان وخلدتها القصص والأغاني، والأفلام فيما بعد، تسكن في هذه الناحية لأنه كان يلمح طيف امرأة تشبه الجنية!

وكذلك وقع لركاب سفن برتغالية: كارمن!

أما البحارة من أبناء البلد فتصوروها "عائشة قنديشة" ونهوا عن الاقتراب من المكان!

أمر طبيعي يا سادة ويا سيدات، يحدث في جميع الأمم فيؤدي إلى كوارث أو إلى معجزات إذا وجد من يقوم بالخطوة الأولى: قام بهذه الخطوة

بحار إيطالي في الخمسين من عمره، كان يبحث في البحر عن السعادة التي اختلطت لديه بالمجد أو الموت، أي المغامرة! في غفلة من زملائه رمى بنفسه من السفينة التي كانت متوجهة نحو وادي الذهب:

- خذوني معكم وأنتم راجعون إذا كتب لي أن أعود!

وتوجه إلى الشاطئ سباحة، أو نوما، لا يذكر جيدا لأنه كان كالمجذوب:

- ماذا أقول لكم؟ جميلة؟ لا، ليس كثيرا، فهي تثير من بعيد من غير أن تسر كثيرا، بل ترعب، أعني تسلب: شعر طويل تجره خلف ساقيها، أسود حالك إذا تمايل يصبح أزرق كلون الغراب، وإذا غطتك به يكون أدفا من كل فرارين البندقية!

- و... و...

- والباقي؟

كم من الباقي يستطيع أن يذكر؟ الهلاك...

- الباقي لا يبقي ولا يذر: بشرة سمراء صافية كأنها شراب "البورطو" أو "الكيانتي" الصافي، ملاحة صبت في كاسين من البلور الخالص، بياض كبياض الثغر والعينين، لم أشاهد قط مثله لا في أوروبا ولا في إفريقيا!

- والباقي، اونطونيو؟

- أونطونيو، والباقي؟

- امرأة ترقص كالافعى، بل أشد سحرا ورشاقة، فتكا من الأفعى!

- أوه، أونطونيو، والباقي أونطونيو؟

- تضاجع كالنار، تدفئ وتشوي!

هكذا بدأ البحارة يتناقلون صفات المرأة التي ليست جميلة جـدا، أي لا تسر من بعيد، ولكنها فاتنة، تخلب الأنظار، وليسـت مليحـة جـدا، ولكنهـا ساحرة، أي تشعل حاسة الاشتهاء، المرأة التي ترتدي فستانا أسـود متوسـط الطول وذا ثلاث فتحات كبيرة، فتحة الصدر و"فتحتا التحت"، قـبلا ودبـرا، تجمع شعرها بشال أحمر ينسدل فوق صدرها أو على الظهر، حسبما تريـد، وتكاد تمشي حافية لشدة صغر حذائها الأحمر ورهافته: صالحه! وهكـذا يـا سيداتي يا كريمات، يا حاضرات، بدأ تعميـر الصـالحية: بحـارة وتجـار ومغامرون ومرتزقة، عقلاء ومجانين، من كل الأجناس والجهات يطلبون، أو يجذبهم سحر امرأة تربت مع الخنازير، بعضهم يترك ماله ويعود نادما إلـى بلده إذا استطاع، أو يهبه "للساحرة" مقابـل أن يبقىمتشـردا أو مـن أهـل الحضوة، والبعض يبيع ويشتري، أو يغزو وينهب، ولكن ماله يـذهب إلـى مخازن "ذات السحر والعجب"، تلك التي أطعمتهم، جميعهم، الوافـدين مـنهم وأهل البلد "مخ الضبع" وأشربتهم "بوله"!...

ومع كل ذلك فإن لا أحد استطاع أن ينتبه إلى أن هذه المـرأة كانـت امرأتين لأن الصالحتين نسختان من بعضهما، ولأنهما نظمتا الأمـر بـدهاء الخنازير: قسمتا المدينة إلى قسـمين، الصـالحية العليـا أعلـى الهضـبة، والصالحية السفلي على الشاطئ، الاولى لطلاب المتعـة والمـال، والثانيـة لضحايا الجاه والرجال، وفصلتا بينهما بما يكفي من سميك وعالي الأسـوار، لا يدخل العليا إلا النساء النساء المغلوبات على أمرهن والقليل من الرجـال، أي العجزة والمرضى والمجانيب والمسلوب حقهم مـن طـرف الرجـال أو النساء والاطفال المشردون او المتخلى عنهم منهم! الغريب يـا سـيدات يـا محترمات، وما الغريب إلا الشيطان الرجيم، إبليس الوسواس الخناس الـذي يوسوس للجن والناس الاتقياء، أن "ذات السحر" لم تكن تنزل إلـى المدينـة

السفلى إلا ليلا، فكان من السهل أن يفعلا ذلك بالتناوب: مرة بنت الخماس، ومرة بنت الشيخ، التي تسهر الليل تنام أغلب النهار، والأخرى تسهر على المدينة العليا أو العكس، ويظن الناس أنهما واحدة: لا أحد يعرف مدخل القبو ولا المغارة العميقة المحفورة وسط المدينة العليا، فكل الرجال الذين اشتغلوا هنا بقوا هنا "والأغرب من هذا، والله أعلى وأعلم وأرحم يا سيدات يا فاضلات، أن كل الذين "ضاجعوا المرأة" ذات "السحر" إنما شبه لهم، وما فطنوا إلا اثنان منهم: واحد من أهل البلد، وآخر برتغالي أسود كالزيتونة، ابن البلد جاء يدعوها إلى الزواج به والدعوة إلى السلطان، فأصيب بالبرص بعد يومين فقط من الخروج من "مضجعها" والبرتغالي دعاها إلى أن تكون "أميرة البرتقيز لدى البربر، فلما خرج من "عندها" في الظهر، وجد سفنه محروقة وكل ركابها مشنوقين!".

ويشاع أنها بعد ان كثرت مثل هذه الحوادث والعروض عليها، أرسلت إلى ملكات إسبانيا والبرتغال وفرنسا، تقترح عليهن إنشاء "مملكة السلام" على طول البحر الابيض المتوسط، وشواطئ إفريقيا يكون فيها الحكم للنساء "اتقاء لشهوات الرجال من الحكام ومن المتطلعين منهم إلى الجاه والسلطان من أجل السلطان، والنزوة والذهب"، لكن ملكات تلك البلدان الكثيرة، العدوة، تضامنت ضدها مع الإنجليز الذين حاصروا الصالحية ليجعلوا منها ممرا إلى بقية كل البلد وإفريقيا. أثناء هذا الحصار الطويل شاهد الناس لأول مرة، وولآخر مرة أيضا، المرأتين التوأمين تقودان الدفاع ضد الإنجليز، لكنهم اعتبروا الامر كرامة من كرامات "ذات السحر"!.

"ومن كراماتها كذلك أن دمرت أغلب منشآت الصالحية، ولكن من غير ان تنهزم أمام الإنجليز، ثم توالت الكرامات مباشرة بعد هذه الواقعة مع ظهور "البنات السبع"!

"الكثيرون يعتقدون أنهما قد رفعتا إلى السماء فـور انتهـاء الحـرب، والصواب أنهما في تلك المغارة وسط الصالحية العليا، يخرجان كلمـا ظلـم طفل أو امرأة أو عابر سبيل أو بلد، وهذا ما كان من أمر هذا البلد"!

صباح الخير

التاسع فبراير، 1998، "اليوم السعيد"، "عمارة السعادة" حي السقالة، شارع النصر، شارع الحرية، ملتقى الشارعين "اليوم السعيد"، شارع الخطابي، متعامدا، فسيحا، مكتظا، طويلا، موازيا للبحر، مخترقا الساحة العظمى، مقهى "اليوم السعيد"، تحت "عمارة السعادة"، خلق كثير، جالسا، واقفا، خارجا، داخلا، الساعة السابعة والنصف، صباحا، ضباب خفيف، أشباح ثقيلة، عسكر ودرك وقوات أخرى تفطر، أصوات بواخر، مغادرة، نوارس محلقة، زاحفة حوالي المقهى تأكل من النفايات المشتتة، صناديق، أكياس "هش!"، كلاب "سر!"، قطط "صب!"، أصوات سوائل، موظفون كذلك، حركات الكراسي، حرفيون أيضا، حركات آلات القهوة والشاي والنظافة، رائحة البحر، باعة ومتقاعدون تعودوا على الاستيقاظ باكرا، أمواج ترتد وتهدأ، بحارة وعمال ميناء، كؤوس القهوة والحليب، براريد الشاي، ثلاثة نوادل أنيقون، يتجارون، صوت النار، الرغايف والملوي والحرشة، السفنج، روائح الطفولة، حنين دائم: السمن والعسل والزيت البلدي! ذوق اليوق! الأمعاء ثقيلة، مرتخية، مصالحة؟ مع التقاليد؟ اقتصاد؟ كلهم رجال، أربع نساء فقط تأخر بهن الليل؟ هرب؟ ليل نهار؟ الكل يأكل ويشرب أو يشرب ويدخن، يشحذ أنيابه، لسانه، أذنيه، يختبر بصره "صباح!"، "صباح الخير!".

"الحمد لله!"، "أسعد الله!"، "الصباح لله"، صاحب المقهى في الركن، غير بعيد مما يسميه "بيت النظافة" على أريكة، عالية، فخمة، كأنه على عرش "كل شيء بكري، حتى الرجلة!" حوالي المقهى، من كل أطراف الأزقة والشوارع، نساء ورجال يجرون أنفسهم إلى الحافلات والطاكسيات

"ادفع!"، سيارات وحافلات تتنافس على إحراق الضوء الاحمر، كل إشـــارات المرور "تقتل او تموت!"، ضجيج من ليل مضطرب "ازعـــم!"، بدايـــة يـــوم، كنهايته، متثاقلة في شكل تسارع، "ياالله!"، "رد بالك!"، ملتقى شوارع النصـــر والحرية، والخطابي يدشن يوما جديدا، "يا لطيف!"، يفطر "يا فتاح!"، يـــوم لا يختلف كثيرا عن أي يوم "يا رزاق!"، لا يختلف عن أي ملتقى "اذكـــر الله!"، حركات مضطربة، مترددة، متلمسة، "اليقظة ولادة! الحمد لله!"، ساخطة جدا، متعبة جدا، صعبة، "توكل!"، أعصاب هشة، أعصاب؟ الليل طويـــل، اليـــوم طويل؟ "أحيانا الليل أطول!"، الصباح أثقل، أخطر، أمس اليوم "الحمد لله على كل حال!"، إذا اليوم، "سيأتي يوم، لم لا، أيها المتشـــائم المـــريض؟"، "كلكـــم تفكرون في الهجرة من يبقى معي؟ ارجعـــوا آلحبـــاب! »، يقـــول "الـــدكتور المعطل". تسخر المرأة العجوز، بائعة الحريرة تحت العشة الصـــغيرة حيـــث يلتقي النصر بالخطابي: "مثل احريرتي ما كاين حتى في سويســـرا، جربتـــوا وعرفتوا!"، "زيدي الحريرة والمعقودة!" "هالمليح يا... لحلاوه بلا ســـكر بـــلا غش لا في الدقيق ولا في القوام، والنظافة، والرخص، قربـــوا يالمســـاكين، بعدوا من ماكله تعمل المعده والزحمه!"، "الصباح هذا أحليمـــه!"، "الـــدعوى مقبوله عند الله، بكري يتشل ويعكل، طلبتك يا ربي، واسمع أمـــول لفلـــوس والجاه!"، صاحب المقهى، طبعا منذ بدأ يجمع بين الفطور العصري والتقليدي وهي تدعو عليه بالخراب، "باغي يجمع كل شي ولد الجوع!"، "هـــا الســـكر جاه!"، "باقي غير الشلل!"، "ذنوب المساكين ليتامى!"، "كاين الله، ما يتشـــرى ما يتباع!"، "عيطي، آحليمه، عيطي لله!"، ماذا يفعل؟ "ما تموت ما تعيـــا مـــا تغلب، سبع ارواح، قطه ساكنها جن سوداني!"، المرأة الوحيدة التي قهرتـــه، كم قهر الرجل من النساء الجبارات؛ "العجوز بائعة الحريرة!؟".

- عينت وزيرة من عندنا، البارحة في التلفزيون!

في التلفزيون؟ لا، لا يمكن أن يعملها التفزيون عندنا، الأمر ليس رسميا بعد، الصحف، بعض الصحف تتكهن بالتشكيلات المحتملة لحكومة وشيكة، هناك شخصيتان متنافستان، واحدة مما كان يسمي المعارضة، والأخرى من الفئة الحاكمة دائما، عن هذه إشاعة ترشيح ثلاث نساء كوزيرات، يشاع عن الأولى أنها رشحت سبعا وزيرات ومستشارات.

- عينت وزيرة من عندنا البارحة، في التلفزيون من عندنا!

أسر من جديد النادل العجوز إلى مقدم الحي الشاب، كان ينتظر أن يسأله عنها.

- "لم لا يسأل، لا يهتم، لا يسمع؟ يتظاهر أم يختبر مرة أخرى؟".

أفطر المقدم: رغيفة بالمسمن وبراد شاي بالنعناع، لم لم يسأله؟

- "هل يريد امتحاني مرة أخرى؟"

رفع المقدم عينيه المتعبتين نحو النادل فرأى لأول مرة حاجبيه المتدليين، ولاحظ النادل أنّ المقدم الذي يحاول أن يكمل وقفته، أقصر مما كان يراه، لا يطال رأسه الصينية التي يحتضن بيده اليسرى.

- وزيرة من "ديور الجامع"، قلت؟

إذن كان يسمع ويلتقط كل شيء:

- "أنا اشتغلت مع أسياده، أقوى وأمضى من النار!"

تظاهرا بتصفية الحساب، وهما يتحدثان: ناوله ورقة مائة درهم وتباطأ في رد الباقي، أي كاملة صرفا! "على عين الأعداء!"

- من هنا، من فوق، من هذه العمارة، فوق المقهى، تعرفها جيدا جدا، ألمقدم!

- يعرفها؟ من؟

- "في هذه العمارة امرأة تستحق أن تكون وزيرة؟ من في هذا الحي كله يمكن أن تكون وزيرة؟".

المقدم الشاب بارد هذا الصباح:

- "يريد إهانتي؟"

- "ماذا يريد هذا العجوز الداهية هذه المرة: وثيقة أو وساطة أخرى، هل يريد أن يكيد لصاحب المقهى من جديد، أم تراه ارتكب حماقة أخرى سيطرد للمرة الألف بسببها؟".

- "العبدي ولد الحرام، يتعامل مباشرة مع القايد ومع البوليس الكبير والسري كيده ولد الحرام!".

- "وماذا سأقول للقايد هذه المرة: إنه رجل يطرد لولائه لنا؟ وإذا قال لي سعادته بأنه قليل الاحتراس، كثير الطلبات؟ ألم نقل لك آلزيتوني اختر الشباب، استعن بالمعطلين من أصحاب الشهادات العليا، بالجيل الصاعد... وغير التاكتيك؟".

- من عندكم وزيرة، من العائلة؟

- "من الدوار، محشش!" قال الحريزي في سره.

- من هنا، زينب الموظفة بالشؤون الثقافية، الساكنة هنا، برقم 13، في الطابق الثالث!

- الصباح لله، دائما وأبدا، فأي صباح هذا؟

- "صباح الحريزي النادل! اللهم احرسنا من كل المتعاونين معنا ضدنا كما تحرسنا من أنفسنا، ومن أنفسنا، كما تحرسنا من كل رؤوسنا... كذلك!".

لم يسبق له أن رآه في صباح كهذا، في هذه الحالة، ما بين النوم واليقظة:

- أنه اسيدي أحمد، زينب، زينب الموظفة في وزارة الشؤون الثقافية...

يفرك المقدم عينيه:

- زينب، زينب الغزال، الجامعه خصايل لكمال، الله عليك من باطني ألمقدم!

- يستمر المقدم في فرك عينيه بحدة:

- تلك التي عندما تمر، من هنا في اتجاه موقف الحافلات الزرقاء ترافقها كل الأعناق إلى أن تختفي في الزحام، تلك التي كلما أطلت أسمعك تصلي على النبي، تصلي وتكبر: الله أكبر، اللهم صلي وسلم على زين الزين سيدنا محمد!

- هذيك الفتنة، الوزيرة المحترمة؟

- هذيك، هذيك... الوزيرة المحترمة، أسيدي أحمد!

فلتة "الفتنة" أيقظته، كما لو أنه ارتطم بتلك المرأة أو ارتكب حراما:

- احترم نفسك ألحريزي واحشم على سنك، احشم من المخزن على الأقل، الله يمسخك!

- آمين، أنا خدام، عفوا كذاب، عفوا!

ويبتسم أخيرا المقدم أول ابتسامة له هذا الصباح إذ يتخيل المسرحية البائسة التي سيلعبها الحريزي وهو يقول لنفسه:

- "ممثل خطير هذا لحريزي!".

قبل ان يتدارك الموقف:

- ممتاز ألحريزي، سأخبر سعادته بأنك تقوم بعملك كما ينبغي تماما، عينك على شي مقهى أحسن من هذي؟

ويتخلى الحريزي عن مسرحيته فرحا، منتصرا:

- الهلتون، الهلتون ربي يحفظك، اسيدي أحمد، ويعلي شان القايد واصحاب القايد كاملين!

لم يستطع إخفاء ابتسامة جديدة وهو يتابع الحريزي:

- وبربي، هاه، داعي لكم انت وسيدي القايد هذا العام إن شاء الله وبحوله وقوته، وجاه الطلبه والصحابه واصحاب الحق والعاده، هو عامل وانت قايد!

- رجعت تصلي!

- ربي يعلم أكثر مني ومنك ومن المخزن!

- الله يتقبل، ولكن كثر الدعاء!

ثم:

- الهلتون؟ الهلتون، ألحريزي... إن شاء الله!

سخر وهو يبتعد، وهو يردد في قرارة نفسه:

- "الهلتون أنا كرهته لنفسي!"

أمام مدخل عمارة "دار السعادة" - من أضاف "دار"؟ طفل عابث أم الحاج محمد الرنجي المتهكم؟ - على كرسي من البلاستيك الأبيض، جلس البواب بجلبابيه الصوفيين الرفيعين الفضفاضين، الأسود على الأبيض، وقميصه القوقي المربوط بكرافتة وردية، ناشرا جريدة تغطي الشاشية الحمراء والنظارات الطبيبة المزورة والشوارب الكثيفة المفتولة... كان مادا رجليه تحت كرسي آخر من البلاستيك الأبيض، بياض على بياض جوارب القطن الرفيع، على بياض السروال العربي الواسع، زاد من لمعان الحذاء البني وحمرة علبة السجائر والبريكة المدسوس نصفهما فقط، الأولى في الجورب الأيسر، والأخرى في الجورب الأيمن!

- غرينغو البلد، سلطان الصالحيه، هزأ المقدم الشاب في سره!

يستيقظ مع الفجر، يرتدي بدلته الرياضية، يتوجه إلى الشاطئ القريب ليمارس رياضة الجري طيلة ساعة، يساعد عمال المقهى على ترتيبات الصباح، ينظف العمارة كاملة، يعود إلى المقهى ليفطر مجانا، بطبيعة الحال، يدخل إلى الدوش ثم يخرج إلى هذا الموضع وبهذا اللباس دائما، صيف شتاء، يظنون، يظن الكثيرون، بغير قليل من الخبث، أنه يبيت في هذا الوضع ويظل فيه.

- ستهلكه هذه النزعة الاستعراضية، سيتعلق حيث ينشق ذات يوم، أضاف المقدم في سره!

- جلسة مخزنية هذي العبدي، قالوا العبدي داخل لدار المخزن، صحيح ألعبدي؟

- برلماني... وزير؟

رد من غير أن يطوي الجريدة.

- شاوش... هذا ما سمعنا!

زاد في بسط الجريدة:

- قل لهم: بالرفض، قل لهم: العبدي يعتذر عن هذا المنصب الذي لا يلائم ميوله!

- تعرف زينب ألعبدي؟

- آه!

هب واقفا:

- صباح الخير سيد المقدم، نهار كبير، نعم اسيدي!

- تعرف زينب ألعبدي؟

- "اللهم أخبار الخير يا رب!"

زينب! زينب! زينب! زينب؟

- "مصيبة؟ من تكون هذه المصيبة؟ تبعتني؟ الباطل! مازال الباطل!"
- زينب الساكنة في الطابق الثالث، رقم 13، تعرفها؟
- معلوم!
- ما عندها جديد؟
- الجديد عندها؟ امرأة مسكينة، ألمقد! إيه... صاحبها هرب!
- "يلعن جد بوه صباح وجد بوها حقوق الإنسان: بواب اليوم والله، بواب حقوق الإنسان، كل شيء نعمله بأيدينا؟ شوف... كيف يتمختر على هذا البواب! هذا لازم يمشي للحبس! شوف... لابس احسن مني واحسن من الوالي!".
- يعني لا جديد عندك!
- كل شي زين وهاني، الحمد لله، الناس غلبها الخبز وقلة النعاس والتلفزة!

وتوجه إلى زنقة وادي المخازن:

- "الحق مع سعادة القايد: التشبيب ضروري وملح!".
- واحد السؤال ألمقدم الله يخليك!

أوقفه صاحب محلبة "دار السمن" مستفزا في أدب مفتعل: هل يكرهه المقدم أم يخافه؟

- "وجه المسخ!"

ولم يخافه، لأنه ممن يسميهم "وجوه الحبس" أم لأنه رجل مشبوه أم لأنه يتصرف وكأنه محمي من طرف جهة نافذة؟

- "أم توحمت على غوريل أو نامت تحت فيل!"

إنه على كل حال يتصرف وكأنه لا يخاف من أي شيء ولا أحد، حتى قبل ما يسميه المقدم "عهد حقوق الإنسان": رجل طوله متران، يزن أكثر من

طنين، يكاد يكون مستديرا من كرتين، كرة الوجه، وكرة باقي الجسد، إضافة إلى كرتي اليدين الضخمتين، وقد كان من أبرع لاعبي فريق "النسر الرياضي المجتهد"، كان مرشحا لأن يصير من أحسن لاعبي الكرة المحترفين لولا تلك "المرأة السحارة، وكلتني مخ ضفدع صيني وغسلتني ببول سلحفاة من جنوب إفريقيا، من الزولو!".

و"صيادو النجوم" طبعا الذين جروه إلى الخمر والحشيش والسهر و"التجارة السهلة".

– الكوخو، صبحنا على الله مالك؟

هذا هو الكوخو الذي اعترض المقدم بالسؤال: وجه أملط وراس أصلع لكنهما موردان دائما!

وقف المقدم منتظرا السؤال:

– تكلم، سمعنا!

– صحيح أن "سفاح البحر" ضرب ضربة جديدة؟

لم يخف المقدم امتعاضه:

– "سفاح" البحر في الحبس ومنذ سنوات ألكوخو!

أضاف الكوخو في استهزاء كبير:

– ومن قتل البنت البارحة في البحر؟

تردد المقدم من شدة المفاجأة والغضب:

– "قتلت بنت أخرى؟"

وكاد يتمكن من أن يقول له:

– "أنت، أنت أيها المجرم! ومن غيرك؟"

ولكنه خاف فأحجم عن ذلك:

– هذا شغل البوليس، ألكوخو، وشغل القضاء!

وفكر قبل أن يضيف:

- وتأكد من أنه إذا كان قد فر من جديد من السجن أو كان سفاح آخر قد ظهر مكانه فإن المخزن سيقضي عليك!

لم ينتبه لا هو ولا الكوخو، لــ "سيقضي عليك"!

وردد كأنه غير واثق مما يقول:

- المخزن سيقضي عليه!

كان الفضوليون قد تحلقوا حولهما وبدأ بعضهم يطرح الأسئلة أو يعلق:

- هل صحيح أن "سفاح البحر" فر من حبسه؟

- الناس رأوه أول البارحة، بعض الصيادين وبعض الرياضيين رأوه هناك يقوم بنزهاته اليومية!

- وكذلك بعض المشردين والمدمنين!

- وقالوا أنه ربى شحما ولحما كثيرا في الحبس!

- والبنت المغتصبة القتيلة أرسل في طلبها فجاءت إليه بنفسها!

- ولقد أطلق لحيته وأصبح يصلي!

- "سفاح البحر" المؤمن!

- ويقال كذلك إنه قام بالعمرة من السجن!

- وإنه كان يسكن جناحا خاصا في المعتقل لا ينقصه فيه غير الحمام البلدي!

- أو ليس هو زطاط المهربين الكبار على طول المحيط الأطلسي؟

- يا قوم، يا أهل السقالة والميناء وديور الجامع، يا أهــل الصـــالحية العامرة بالجد والنشاط، عيب، عيب عليكم أن تصـــدقوا كلامـــا مـــن هـــذا المستوى السخيف، عيب والله، عيب! وقللوا من مشاهدة التلفزيون المخـــرب

للبصيرة، خاصة القنوات الأجنبية، ومن قراءة الجرائد، حتى الصحف الوطنية تحولت إلى صحف فضائح! وسامحوني عافاكم، أنا عندي شغل!

- "أما أنت يا كوخو، يا قرد، في صفة فيل، فإني لك بالمرصاد والله رقيب!"

وظل يرددها وهو في الطريق إلى مقاطعة بوسبير:

- "كأنهم أصبحوا بلا عقل ولا دين، كأنهم يستعجلون الفتنة ساهين عن أنها لا ترحم أحدا!".

قبل أن يتذكر الأهم:

- "يخرب عقلي، أين كان: امرأة وزيرة وأخرى قتيلة في ليلة واحدة، وفي حي السقالة الهادئ، الجميل، الغارق في بساطته، وكد أهله المساكين، الدائخين في عرق الجبين والتلفزيون، أين، أين عقلي!؟".

زحام عظيم أمام البلدية كأن الصالحيه كلها تتدافع في مدخل هذه المقاطعة الصغيرة المخصصة لهذا الحي الكبير:

- "كأن هناك مظاهرة أو احتلالا!".

لا، معطلون يدفعون، أو يريدون استكمال طلبات الشغل: "بلاغ من وزارة التشغيل: بعد الاتفاق مع... الشباب أن يودعوا طلبات... في أجل...!".

- "أنا أقول، وبشكل غير رسمي بطبيعة الحال: إن هذه الأزمة نافعة للبلد بشكل ما: فإما تحررنا من عقدة الدولة المهيمنة والشعب التابع لها، فتتدفق إبداعات كثيرة، وإما والعياذ بالله نبدأ من جديد مرة أخرى!".

فكرة تراوده كلما اصطدم بتعبير مباشر أو غير مباشر عن تزايد الصعوبات الاجتماعية والاقتصادية وينساها بمجرد ما يدخل في "الرسمي" أو "الذاتي":

- "ومن يسمعك المقدم، القايد الخايف من العامل، الوالي الخايف من الوزير... الوزير، معالي الوزيرة، الأغلبية؟ لا أسيدي، المعارضة! ».

اختفى وراء سارية في بوابة مكتب البريد وأخذ يرقب صفوف المحتشدين، البارحة أرسل إلى دار الشباب "عمر الصالحي" ليحرر تقريرا حول محاضرة القاها أحد شيوخ المقاومة في عهد الحماية الفرنسية:

- "تكتب كل شيء، كل شيء تسمعه، الصغيرة والكبيرة، لا تلخيص ولا انتقاء، تكتب كما تسمع!".

أمر القايد، وأكد هو بمزيد من الصغر والهزء:

- "أكتب ما أسمع فقط، كما أسمع فقط!".

وكتب ما يزيد عن الثلاث ساعات قبل أن يتحول النقاش إلى "تخوين" "وتكفير"و"جهوية"و"عنصرية"و"افتتراء على افتراء" و "تشويه"... إمبريالية وصهيونية وماسونية و... إلى "مغني الغريب العجيب"، كما سها وكتب!

طبعا وبخ على هذه العبارة:

- "من قال لك علق أو فسر؟ الفوضى، هذي! اغبر!"

- "وخلوا الناس يتعلموا السياسه قبل ما يدخلوا للبرلمان!"

وقبل ذلك زوال نفس اليوم، قيل له:

- "تذهب إلى "دار الثقافة" هناك محاضرة حول "إشكاليات المسألة الثقافية الواقع والآفاق"، اسمع جيدا!"

وبحذر كبير أكد:

- "أسمع بحذر، أسمع جيدا!..."

وهو يردد في نفسه :

- "كأن لا أحد منهم يعرفني، وكأنهم سيتصورون أنني أحضر للاستفادة!"

وحين انقلب النقاش إلى معركة بين "إسلاميين" و"عروبيين" و"أمازغيين" كان من بين المتدخلين بـ "الخيط الأبيض"و"الناهين عن الفتنة" لكن بعض جرائد هذا الصباح تتهم السلطة بالتدخل في "إفشال نشاط ثقافي هام بواسطة طابور من المقدمين يقودهم مقدم، عدو للديموقراطية والتغيير، يدعى أحمد الزيتوني"!

- "ضروري يتمرنوا على السياسة في بعضهم بعض وهم شباب، مالك انت؟"

فأين يولي وجهه اليوم، نحو المعارضة أم نحن المخزن في شخص القايد؟

لا هو

- "بخير أسيدي، لا مع الناس ولا مع أولي الامر، كل واحد يعض ويشتم من جهته، يغسل يديه في وجهي، كأنني مرحاض عمومي!"

ويتوقف ثم يتابع:

- مع من يمشي، من تساير؟ المعارضة مشتتة، والمخزن رافع زوج يدين وحده فيها حلوى ووحده فيها عصا: أول البارح فقط حاكموا شرطي بتهمة المس بحقوق الإنسان، كانوا يقبلوه قبل، عارفين من يقدر يتغير ومن يستحيل يخرج من ذاك العهد!".

ولا هو

"بخير أسيدي حتى مع العائلة، ولا مع راسي، هاذ المنحوس من راس!".

و "قد كان في المعارضة"، أو هكذا كان يعتقد حتى أنهى الإجازة في التاريخ، فتوقف عن الرشوة والمحسوبية قدر ما استطاع منذ بداية الحديث عن "حكومة التغيير" أو "الإعداد للتغيير":

- "قلنا نساهم في التغيير، البلد خاصها التغيير وطالباه، فقد جعل الله في التغيير كل الخير، وطال انتظارنا للتغيير، ولكن التغيير أطال بدوره انتظارنا للتغيير!".

وتذكر كيف انتهى به الامر إلى قبول هذا المنصب:

- "خمسون مباراة بدون فائدة، كنت طالب غير معلم، وفي البادية، في الجبل... أنا مع التغيير!"

وها الكثيرون بدأوا يسبون "التغيير" قبل التغيير:

- كلهم "الأعداء"؟ قل لي الشيطان طفل مازال يرضع، "والنقد يفيق" و"الجماهير ضمير"، و"صوت اللي ما عندو صوت"؟ أصبحت شعبوي وكتلوي، آحمد!

ما مناسبة هذا الكلام ولم لا يتقدم إلى مكتبه ليقضي حاجات المنتظرين؟

- "صبحنا على الله، آه على صبحيه!"

والليل أحسن؟

البارحة عندما عاد متأخرا من "دار الشباب الصالحي" وجد أخاه الأوسط في حالة هستيرية لا يمكن أن تتصور، وهو رجل.

-"قل مثله في هذا الزمان لإنه اختار ألا يكذب والا يظلم!":

- "شدوا سيارته ظلما وعدوانا!"

قالت أمه وكأنها تتهمه شخصيا بحجز سيارة أخيه:

- "أش يقولوا لله عديان الله!"

أضافت لتزيد من شعوره بأنه معني بشكل مباشر!

- "يحدث مثل هذا للأقوياء في هذا البلد أثناء حملات استثنائية وحتى عادية!

قالها بدون اقتناع كبير وتفكير، فقاطعه أخوه الأصغر الذي التحى منذ شهور قليلة:

- "لهذا تختارون السيارات البالية والصغيرة دون غيرها من بين مئات السيارات، أو تعترضون طريق الراجلين البسطاء: اطلع انت، انت وهي طلعوا، سكران! عندكم عقد الزواج؟! ".

- "المعارضة عندي في البيت وفي راسي، أحسن لو رجعت إلى المعارضة بالصح!"

ولم يجد من وسيلة للخروج من هذه الضائقة النفسية سوى الذهاب إلى "ملهى الذوات الثلاث"، فلما عاد إلى البيت قبيل الفجر، وجد نفسه في حالة "إضراب عن العمل"!

وها هو يفطر على خبر تعيين امرأة وزيرة

- اسمها؟ قال...!

وأخرى قتيلة وعلى قافلة من العاطلين يطلبون أطنانا من الوثائق التي سيشقى في تحريرها بدون طائل!

- "أنا أقول، وأنا واثق من أن لا أحد يسمعني، وانا على تمام العلم بأني أفكر بعقلية "غيبية كاملة" كأمي الله يشافيها: هناك من يتآمر علينا بشكل علني أو سري، لا أدري، ويريدنا أن نقتتل اقتتال الأعداء ذات يوم أسود، فاشهد اللهم، اللهم اشهد ولا تترك ما في بالي يتحقق!".

كان يفكر في القايد الذي عليه أن يواجهه هذا الصباح، لكنه فكر كذلك في الشيخ الذي قال له وهو يعلق على محاضرة الأمس:

- "الأمازيغيون" يواجهون تطرف "الإسلاميين" و"الإسلاميون" يواجهون تطرف "الأمازغيين" و"النساء" يواجهن "الرجال" و"الأطفال" يواجهون "النساء" و"المجهول" يواجه "الأطفال"... لابد من بعض التوازن في

الخلل، لابد أن نمر مما مرت منه جميع الأمم قبلنا، سنة الخلق منذ البدء إلى النهاية، وإياك ان تظن أن التطرف يواجه بغيــر التطــرف، وإيــاك علــى الخصوص أن تعتقد أن هؤلاء "العلمانيين" قادرون على التصدي لهذا الأمر، فهم مجرد ضمير ندابة أو عرافة مثل الموت لا نتــذكره، حقــا إلا عنــدما تعترض طريقنا فجأة جنازة... شف شغلك ألمقدم، وخل الباقي لمواليه، لكــل أمر أهله!".

- "ولكن نعم آس، لماذا كل هذا العنف والخوف، لمــاذا كــل هــذه "الجرائم" من فضلك، من المستفيد في نهاية المطاف؟".

لم يعد الشيخ قادرا على إخفاء غضبه:

- "العنف؟ الجرائم؟ أين؟ شفت امريكا وإنجلترا؟ شفت إفريقيا حقــا؟ شف واحمد الله! شف واعمل شغلك كمــا ينبغــي!... وإيــاك تزيــد علــى المطلوب منك، ولا حرف، ولا نقطة، ما تزيد ماتنقص، ناقصك كثير بــاش تفهم وتحلل، وانت وانا أميون نطبق التعليمات فقط، رد بالك واحشم!".

كان واقفا خلف ظهره، عينا لا خيالا هذا الصباح:

- "لمقدم؟ خدمتك الله يخليك!"

قطع بوابة البلدية وسط الصفير والاحتجاجات، زملاؤه منهمكون فــي التحرير والتوقيع أو المفاوضات، كان أحدهم قد تطوع للنيابة عنــه، بمجــرد وصوله وقف زميله وعاد إلى مكتبه الخاص، جلس المقدم أحمد في مكانــه، تقدم نحوه شاب تبدو عليه بعض ملامح النعمة، صاح في وجهه:

- ارجع انتظر مثل الناس، ارجع للصف!

بدا الشاب غاضبا:

- الساعه، شفت الساعه؟

- قلت لك ارجع للصف والتزم بالنظام، ارجع للصف!

فيما تعالت ضحكات الشباب من كل جانب، كـان زمـلاؤه السـبعة، وكذلك الشيخان والشاوش والسيدات الكئيبات الـثلاث الراقنـات، فـاغرين أفواههم وهم يحملقون فيه، ولم يفلح أي منهم في أن يوصل إليـه غمـزة أو إشارة سرية من تلك الإشارات المحدودة التي يستعملونها في بعض الحـالات الاستثنائية كهذه:

- تترك المكتب وتتبعني، سمعت؟

أمر الشاب النحيف الذي لم تستطع خشونة الأمـر أن تمحـو نعومـة وجهه الأبيض الصغير، ولا تشنجه أن يذيب طراوة جسمه الرياضي الطويل رغم التحول:

- شوفوا، ها عيب حقوق الإنسان!

قالها متوجها إلى زملائه وكأنه يحذرهم مما قد يرتكبه من حماقة ضد هذا السلوك المستفز، لكن رئيس "القوات المساعدة" كان قد أمسك بعنقه آمـرا جاذبا:

- تقف وتتبع سعادة القايد!

- اطلق راسك ألمقدم، أضاف الشيخ العربي رئيسه مهددا!

ضحك، قهقهات، ضجيج، طق، منبهات سيارات، راقنات، طق، همس مثل العويل، بنادق، طق، لم يستوعب الموقف حتى وهو في مكتـب السـيد القايد: قائد جديد لهذه المقاطعة منذ هذا الصباح، هذا كل ما في الأمر:

- هذا كل ما في الأمر؟ يا أخي كم تستسهلون الأصعب!

ذلك كل ما نطق به فيما تبقى من الصباح.

- واحمد الله على أنه أوقفك أسبوعا واحدا فقط عن العمل!

- و... صحيح أنك لم تكن على علم بتغيير القايد؟

- ولا بمشروع تغيير الحكومة البارح؟

- وهل يعلم أحدكم حقا ونحن مسؤولون، ما يجري في هـذا البلـد؟ دعوه!

- "والحقيقة، لازم تغير العمل، آحمد أنت معارض، غير تفهم حقوق الإنسان وتصبح بخير!".

وتجمعوا من حوله في المقهى يواسونه طيلة نصف ساعة من الثانيـة عشرة والنصف إلى الواحدة، ثم اوصله الشيخ العربي بسـيارته إلـى بيـتهم وأوصاه بأن يطيب خاطر القايد بهدية أو حلاوة مؤكدا على أنه:

- "في جميع الأحوال كما تعرف عندنا رجالنا!"

لم تكن هذه أول مرة يتعرض فيها لموقف كهذا، كانـت أغلـب هـذه المواقف تنتهي بالضحك وتتحول إلى نوادر، لكنه هذه المـرة أحـس بأنـه "مريض جدا": "كأنني سأموت من كثرة الإهانة و... سوء الحظ، أدركتنـي لعنة العائلة!".

دعني أصف كيف

زوال التاسع من فيراير 1998 بمقهى "اليوم السعيد" [illegible] عمارة السعادة" بحي "السقاله" الحريزي مازال "يصول ويجـول" بعـد ان اسـتراح كعادته ما بين العاشرة والواحدة وانصرف النادلان الآخران، خلق قليل جالسا في الغالب، الساعة الثانية والنصف عسكر ودرك وقوات أخرى وموظفـون فقط، لا أصوات بواخر ولا نوارس الكلاب والقطط اختفت، كل تلك الـروائح والأصوات والسوائل وهنت، النهار يتعب بسرعة، لا حرفيون ولا متقاعدون ولا بحارة ولا عمال الميناء، وقت القيلولة والدفء الخفيـف يبشـر العظـام بربيع مبكر، انصرفت حليمة بأواني حريرتها وتبعهـا "الـدكتور المعطـل"، رائحة البحر بعيدة وأمواجه هادئة، كؤوس القهوة وبراريد الشاي فقـط، لـن تعود بائعتا الرغايف والملوي والحرشة إلا حوالي الخامسة، ذهبـت معهمـا روائح السمن والعسل والزيت البلدي، ذوق الـزوال قهـوة أو شـاي فقـط، صاحب المقهى في الركن دائما غير بعيد من "بيت النظافـة" علـى أريكتـه العالية الفخمة، كأنه على عرش، كأنه لم يغادره طوال الوقت، لا للصلاة ولا إلى البنك:

– "راقب نصيبك من الدنيا وإلا طار!"

في الركن الموازي إلى يمين "المعلم" جلس حول طاولة لا تسع أكثـر من شخصين، عادل وإبراهيم، تغذيا فوق في رقم 15، ونزلا لشرب القهـوة، نسيا تماما أنهما كانا على موعد بالشاطئ، لأن عادلا جاء مباشرة إلى القهوى "ليرى فقط قبل الذهاب إلى الشاطئ"، ونسـي ابـراهيم خيمتـه هنـاك لأن "الإشاعات هذا الصباح قد أثارته كثيرا!" لأنهما كانا يناقشان "موضوعا هامـا جدا" كعادتهما "لقتل الوقت الثقيل" كلما جلسا في هذا المقهى الذي يقضي فيـه

إبراهيم من "هذا الوقت الرخو"، أكثر مما يقضيه في البيت او البحر، يقرأ، يتأمل او يكتب:

- أجمل لون بشرة لدى النساء؟

سأل ليذكر صاحبه بالنقطة التي توقف عندها الحديث في الثانية عشرة والنصف، وليستطرد:

- اللون القمحي، ذلك الذي يميل إلى الحمرة، حمرة الدم، شتاء، وإلى بياض، بياض الثلج، صيفا!

وعاد عادل يستغرب كمن سمع هذا الأمر لأول مرة:

- ويحك، أين يوجد مثل هذا اللون في هذا البلد؟

أجاب إبراهيم بدون تردد ولا طول تفكير:

- في أغلب الجبال، وفي المدن العتيقة، وفي الصحراء كذلك لكنك تجده أحيانا كثيرة حول البحر الأبيض المتوسط بأكمله!

يستغرب عادل دائما لهذه القدرة العجيبة لدى صديقه على الاختلاق، تخيل أشياء، موضوعات وأفكارا وأحاسيس، والاعتقاد المطلق في وجودها:

- افتراء، هذا لون بنات أهل النعمة خاصة الأرستقراطية التقليدية!

ويضحك إبراهيم منتصرا فقد جر صاحبه إلى بعض التصديق:

- آسف يا مولاي: ينبغي أن تراه بعيون زرق حقا، زرقة السماء حقا، عندنا حقا، صيفا أو ربيعا حقا!

سبق لعادل أن سمع بشيء كهذا، "بنات مثل الألمانيات او الرومانيات" لكنه لم يصدق محدثه "الذي كان يهذي":

- عيون زرق، في أقاصي البلد وأعاليه؟

يلح إبراهيم:

- نعم، نعم سيدي واعلم لا أضلك جاهل ولا أعمى ولا مستلب أن هناك في مناطق من الصحراء، وفي جبال الأطلس كذلك، نساء بهذه الخاصية العجيبة: لون بشرة قمحي نعم، كما وصفته لك، وعيون زرقاء كأبهى ما تكون الزرقة في السماء!

"أهي صورة لبداية قصيدة جديدة"، يتساءل عادل الذي استغرقته اللوحة:

- عجيب!

ويعمل إبراهيم على أن ألا يترك "الصورة تبرد في اللسان":

- وما أصل العجب في ذلك، ألم تر زينب الرنجي؟

من تكون هذه: جنية بحر من "جنيات بنات قوس قزح المحيط" العديدة في خياله، أم بطلة من "بطلات حب أول نظرة" لديه؟ ماذا يملك أكثر من الاستغراب؟

- زينب... الرنجي؟

لا يعرف زينب الرنجي، من أين له أن يعرف بطلة قصيدة لم يقرأها بعد؟ يعرف فقط أنه لا يستطيع، وفي كل حين أن يتابع خيال صديقه الذي تسكنه "جنيات بنات قوس قزح المحيط" و"إلهات ونجوم من أقاصي وأعماق البحار"، كيف يمكنه أن يساير خيالا ضوئيا، مائيا، يعيش بين السمك والمرجان؟ حتى هذه الدهشة وهذا الاستغراب فإنه كثيرا ما يفتعلهما:

- المرأة التي ستعين، البارحة في الوزارة ضمن تشكيلة الحكومة الجديدة!

"ستعين" "البارحة"؟ ماذا يقول؟ في الخيال، ولاشك في لغة الشعر كذلك، ألم يكتب أكثر من مرة عبارات من هذا النوع: "غدا تبدلت الأمور!"،

"أمس سأحضر زفاف الماء بالنور!" أو "تعالي في السنة الماضية لتشاهدي مقتل سارق الشهادة والميلاد"، إلخ...؟ صداقة الشعراء فتنة أو بلوى:

- ورأيت لون بشرتها، ولون عينيها في التلفزيون، يا لك من شاعر مفتر على الجمال!

- الشاعر يصنع الجمال، ولا يفتري عليه إلا إذا لم يكن شاعرا حقا، كما تدري وتعلم، أما أنا فأعرف لون بشرتها ولون عينيها لأنها جارتي، نسكن في نفس العمارة وفي نفس الطابق!

و"البارحة"، سيقول "أنا الذي عينت الحكومة الجديدة باسم الله وعونه"، ألم يعد في إحدى قصائده تأسيس المجتمع كله من ألفه إلى يائه، وأعاد المجنون من جديد "خلق الآلهة" كما سبق أن "خلق النساء على صورة النساء"؟

- لا، لا تبالغ في الحلم، أنا أعرف عمارتك وأعرف جاراتك: الناطحة والمنطيحة وما طاح من جراب الغراب وسروال الحارس العبدي!

- "زينب، زينب، زينب ؟"

- أقسم بالله العظيم أنها جارتي، وتسكن في رقم 13!

- ولكن لم يحدث أن رأيت امرأة في عمارتكم بمثل هذا الجمال الذي تصفه، ما عنوان هذه القصيدة!

- "الرنج يقتل!"، تريد قصيدة؟ والله لوصف زينب أشق وأعذب من كل الشعر، اسمع انا رأيتها وأراها أكثر من مرة في اليوم، وتبادلنا ونتبادل التحية مرارا على غير عادتي مع جاراتي وجيراني، وهي على كل حال ليست من النوع الذي لا يثير الاهتمام!

- "زينب الرنجي؟ سمعت بهذا الاسم من قبل! في إحدى قصائده؟"

- أي اهتمام تعني، من الذي على بالي؟

- تمهل، لست أدري على وجه الدقة، ولكن... كيف أقول؟

- قل، قل بلا "إنشاء"، قل تدعوك أن "تعال بلا تكلف أو تعب"؟

- شئ من هذا وشئ آخر!

- شئ آخر؟ "كم تدفع؟... أنا جاهزة ولكني غالية الثمن"؟

- لا، أبدا، لا!

- "تعال نعرف حدودك أيها المغرور"؟

- لا، لا، قلت لك!

- "هات، من كل ما لديك، إنك لا تقدر علي، يا متطلع"؟

- ولا هذا، لا، لا!

- "والرب إني أحبك فورا وسأظل مخلصة لك العمر كله"؟

- لا، لا، ولكن!

- "لا، ولكن هذا ما أريد"؟

- يا اخي، لا، ولكن!

- بالله عليك ماذا يا دقيق العبارة، ألا تضع نهاية لهذا الوقت الذي تضيعه في وصف امرأة وكأن منهن من تستحق كل هذه الغباوة؟

- لا، لا... شئ من نوع "أنا أختك"، من نوع "هيهات لك" أو من نوع "وماذاعندك غير هذا؟" شيء من نوع "اقترب واحترم أواحترس"!

كان فقط يقلد صاحبه بينما يستمر عادل في استعجاله، في إنهاكه "لأنه لا يرحم، ولا يمهل بكثرة وسرعة خياله، لا يشفق حين تركيبه فكرة أو صورة":

- آه، "أنا امرأة الرجل، إلا"؟

- والله لا أدري، ربما، إلا أنك تقتلها!

- كيف لا تدري، لا تستطيع أن تتعرف على نوع امرأة بمجرد النظر إليها أو التكلم معها، يا شاعر الجنيات والأطياف الجميلة؟ من أين تأتي بهذا الصنف من النساء؟ ليس هناك ما هو أوضح من المرأة، ما هو أكثر منها عراء أمام الرجل، المرأة تمثل ما نريد، هي ممثلة والرجل مخرج: تلعب دورا من أدوار قليلة العدد ينتظرها الرجل، يحددها سلفا!

- صراحة؟ لا أعرف بالضبط!

لقد أتعبه:

- "هلكني السيد مفتش اللغة العربية!":

- قل لي كيف تسلم أقل لك من تكون! قل من يزورها، ما هي الأصوات التي تنبعث من بيتها... قل! ولا... صف لي فقط رائحتها، هل لها رائحة؟ رائحة "ريف دور" أو رائحة "طابو"؟ رائحة الحناء بالغسول؟ باللزاز؟ بالزيت البلدية والغاسول؟

- تعرف؟ تذكرت دراسة البروفيسور جمال العوني!

قال إبراهيم هاربا من هذا الحصار لأنه يعرف ولع صاحبه بـ "البحوث الأكاديمية" خاصة تلك التي يوقعها "الدكاترة" و"الأساتذة الباحثون" و"الخبراء":

- ومن يكون العوني، حفظك الله، وما دخله في هذه القضية؟

"ها هو يعض، الله ينصر الدكتور جمال العوني، لنخلقه إذن من شحم ودم!".

- للبروفيسور جمال العوني، وهو باحث دولي معترف له بالاجتهاد والريادة، قد تخرج من أكبر جامعات -"أين الموضة اليوم"؟- أمريكا، ويحاضر -"أين يريد أن يحاضر أغلب أساتذة اليوم؟" -في أهم الجامعات الدولية الكبرى. لهذا العالم الكبير الذائع الصيت دراسة حول "الأناقة عندنا"،

ولقد أعد هذه الدراسة بطلب وتمويل من "المعهد العالمي للبحث في الأشكال الخارجية للحياة"، وهو معهد مقره الرئيسي المعروف جدا كما تعلم في كاليفورنيا!

- لا أفهم علاقتك هذا بصاحبتك إلا إذا كنت تريد أن تقول بأن زينب الرنجي امرأة أنيقة!

"زينب الرنجي؟ أكيد أني سمعت بهذا الاسم من قبل"، يفكر عادل

- تقريبا، ولكن ...

- ولكن، ماذا؟ تحتاج إلى دراسة دولية وإلى هذا البروفيسور الكبير بالذات والذي أكن له شخصيا أكبر تقدير وإعجاب، لتقول لنا إن هذه المرأة أنيقة؟ يلعن الثقافة والمثقفين والباحثين الدوليين! والذوق ما عندك ذوق؟ ربوا بعض الذوق خلوا لنا بعض الذوق الله يرحم الوالدين! وما عندك لسان ولا نظر؟

- "إنه يكن للبروفيسور جمال العوني شخصيا أكبر تقدير وإعجاب، هذا مؤشر إيجابي جدا، هل يكون العوني موجودا بالفعل؟ سأتجنب كل وصف له، كل المعلومات عن العوني وسأقف عند الأناقة وحدها طلبا للسلامة!".

- صدقني، إني لا استطيع بهذه السهولة، أحتاج إلى صاحبك العوني!

- "زينب الرنجي، أنا وبكل تأكيد أعرف هذا الاسم ومنه هو بالذات لا من... من إبراهيم!".

سكتا فجأة، عادل يبحث عن "زينب الرنجي" في ذاكرته وإبراهيم عن كيفية الخروج سالما من فخ "جمال العوني" الذي نصبه لنفسه:

- "سيقتلني إذا عرف أني خدعته مرة أخرى، باختلاق اسم جديد!".

لكنه عاد يستفزه:

- يظن السيد "حفظك الله" ان الوصف مجرد عملية بسيطة يقوم بها المرء لإعطاء صورة عن الموصوف تضعه في خانة للمعرفة أو السلوك، كما تضع لإنسان أو لشيء صورة على جدار أو مكتب: "ها ما يعني او يساوي!" ولهذا يجعل من التأويل علم العلوم على جدار أو مكتب: "رد الأمر إلى نفسك وبرره بما تعرف أو تعتقد حقا أو تريد! ونحن حقيقة نرد كل شيء إلى ما نريده منه، إلى ما نعرفه مسبقا عنه، إلى ما نتوقعه، منه نربطه بشيء في البال أو في الإرادة، في الذاكرة أو اللاوعي، ثم..."

- ثم ماذا، يا ظالم ويا مفتر، أنا قلت هذا او شيئا شبيها به؟ إنك تبرع في تشويه كلامي... دائما! وإذا كانت لك عقدة مع "العلماء" أيها الشاعر، والظاهر أنها مستفحلة، فلا تنس أن تعرض نفسك على طبيب... ماذا؟

- لا شيء لا شيء بعد، لكنك تقول وتنسى ولهذا قلت لك أكثر من مرة أكتب، ألف يا أخي، ولا تبق شفاهيا كأغلب مثقفي هذه الأمة، تساجل في الفارغ، في الهواء تستهلك الريح والدخان!

- كل عواطفنا وكل أفكارنا موجهة نحو قصدية معينة، وهذه القصدية عملية بالدرجة الأولى!

- "أحبه، وأعجب به حين يكون مستعدا ويدخل في المعارضة أو المبارزة، لكنه لا يكون دائما مستعدا، آمل الآن...".

- تعني سلوكية أو وضعية يا أستاذ عادل؟

- "يبدو أنه جاهز للعراك لو نجح في الالتحاق بالجامعة التي كانت حلمه قبل أن تلتهمه الصغائر لو نجح في الحب من غير أن يسقط في أنياب هذه التي خيرته بينها وبين الكتابة، بينه وبين التفاهة لكان له شأن آخر مع الفكر والشعر؛ لنا أصدقاء كثيرون يجمعنا بهم هذا الأسى أو الشجن: الفشل

المستبطن أو مخدر التفاهة! وهو ذاته ما يقرب ويبعد بين العديد من النساء والرجال الأسوياء في الظاهر!".

- ذرائعية حفظك الله، إنك لا تخيفني بمثل هذه العبارات التي كنتم تفزعوننا بها في السبعينيات، عندك شي حاجة ضد الذرائعية والوضعية؟ والآن تقدر تكون ضد الليبرالية تقدر سوا بالفعل سوا باللسان؟ ما لها حفظك الله، الذرائعية والوضعية والليبرالية وما شاء الله أليست أحسن بكثير من هذه الرومانسية التي تغرقون فيه؟ لاحظ إلى أين أوصلتهم الوضعية والذرائعية وإلى ماذا أوصلتكم، في المقابل، نزعة التعالي على الواقع؟ خليك غير من الاشتراكية الله يرحمها وتكلم... تكلم!

- "عم يتكلم هو؟ عني أنا؟ أنا لم أكن، وفي أي وقت من الأوقات من حياتي سوى محب للشعر، الشعر في الحياة، ولا بأس أن يكون في السياسة إذا كان شعرا ولكن لنداعبه، لنستمر في المداعبة والدعابة!".

- لطفك حبيبي لطفط، لا تعدني إلى نقاشات لم تنته بعد ولا إلى تلك التي لم تفتح بعد: أريد أن أصف لك المرأة بالذات والصفات، بالذات والصفات فقط، وصفا لا يحيل عليها إلا هي وحدها ولو أحال على مليون امرأة مثلها، وصفا يتجنب قدر الإمكان تلك القصدية العملية، أي الجاهز أو المعطى!

- إذن تبدأ حالا في وصفها!
- وأنا لا أطلب غير هذا ولكن...
- ولكن... كأنك كاتب!
- "أفتعل معه قضية أخرى: إنكم لستم في حاجة إلى كتاب بالفعل وإنما إلى شهداء لإرواء نهمكم الآتي من الرعب إلى أنبياء جدد يتحملون عنكم وزر الشهادة؟ سيخرج إلي بنماذج من الكتاب لا أعرفهم، قرأهم ولم

أقرأهم بعد: ذاك الذي أراد أن يكتب رواية بعقلية قبلية طائفية، هـذا الـذي طبق نظرية كاملة في قصيدة... بم سأرد عليه؟ لأبق في موضوعي!؟ وليكن لي من العوني صاحب الزين والبساطة عونا وسندا!".

- هب يا أخي عادل أني وصفتها لك قائلا:إنها امرأة جميلة!

هب واقفا "شاهرا راية النصر":

- أضيف أنا من عندي: تستعصي علـى الوصـف! وعلـى الفـور أتصور أجمل امرأة أعرفها أو أحلم بها وأقول لنفسي: هذه زينب الرنجي!

- أنت قارئ نموذجي، لو كنت كاتبا لما وجدت أحسن منك والله غير أن هذا بالضبط ما لا أريد!

- ولكنك تمارس علي تعذيب الكاتب من غيـر أن تكونـه. دعنـي أساعدك: إنها امرأة جميلة يصعب وصفها، أي من النوع النادر الجمال، لون بشرتها قمحي، لون يميل إلى البياض، بياض الثلج صـيفا وإلـى الحمـرة، حمرة الدم شتاء، ثم إنها امرأة أنيقة بشكل رفيع، هذا كاف لأننـي أسـتطيع الآن أن أتصورها!

- "يظهر لي أن الأمر أصبح أكثر جدية بالرغم مني، كنت أريـد أن أمزح معه ثم أنتقل إلى البوح له بسر، وها هو يجرني إلى جـوهر الأمـر، إلى أعماقي المظلمة: أنت الأنيقة وأنا الأنق، كيف أفسر هذه العبارة لنفسـي لأحد غيري، لو قلتها لأحد، كيف؟".

- كاف؟ أبدا يا حبيبي يا عادل، أبدا: هذا اغتيال، استسهال للبلاغـة العربية كأنني قلت لك: تزوج رجل بامرأة بعد أن خطبها من "ولي أمرها"!

- "بئس المثال، أين تسكن بقايا مثل هذه اللغة في وجداني؟"

- أنا يكفيني يا سيدي، يا شاعر!

- "لم أكن أفكر في دقة العبارة الشعرية، في أن الشعر إما جديد وإما إعادة صياغة على الأقل، أنه ليس في الشعر حين يكون شعرا، تكرار استنساخ، ولا تقليد استرجاع ولا تقريب في الكلمة أو الجملة، اللغة موجزة هنا، متماسكة، معجزة وإلزامية بالدليل الوجداني والضرورة التعبيرية، تماسك المنطقي وإلزامه في مجالات أخرى من الوجود، هذه فكرة نسيتها تماما بالرغم من أنه يحبها!":

- وأنا لا يفي بغرضي يا صديقي!

- أي غرض؟

- أن أنصفها في الوصف وأن أخلصها قدر الإمكان من التسرع في الإسقاط من خيالك، لا من لاوعيك، وإلا ستتصورها كما تشاء وتطلب، كما تعودت!

- لن تستطيع منعي من ذلك ولا منع أي شخص آخر من هذا الأمر!

- "ليس على خطإ ولا يبالغ جدا: بعض الكلام، الوصف أي وصف الناس القريبين منا خاصة، إما امتلاك وتسلط وإما نبذ أي تشويه، ولكن كيف يستعصي عنا الأحبة، كيف يبتعدون عنا في الكلام، نريد أن نقربهم فيهربون؟".

- تصور معي يا عادل، تصور أنها أختك، أنها بنتك، زوجتك مثلا، حبيبتك... ألا ترفض أن يسقط عليها أحد ما ليس هي، أن يتصورها كما يشاء أعني أن يغتابها، أن يغتصبها؟

- يغتصب أختي، أمي... هل جننت؟

- "كلنا ما نزال، ربما لأن الوقت مازال يفرضها على أغلب الرجال، نحمل مثل هذه الرواسب الرحمية، وصفة ناجحة جدا جدا، مائة في المائة للقتل والإثارة حتى مع الجهابذة الصناديد!":

- في الخيال، أعني في التصور!
- أمه أقرب إليه من...!
- وها قد بدأت تحس بالمشكلة، مازال أمامك أن تتصورها!
- يظهر لي أنك أخذت تكثر من التصور، أنصحك بالاكتفاء بالتخيل!
- لا فرق يذكر في هذه الحالة كما أصفها أتخيلها بالقليل من الكلام: "أنت الأنيقة وأنا الأنق!"

"لكني لا أعرف كيف أدقق النظر فيها، كيف أزيد في العبارة وأخرج ما في القلب والعين إلى اللسان، كيف تشرح لأحد بل لنفسك مثل هذه العبارة "إني أحب فلانا أو فلانة!"؟ سيقول لي: "يكفي أن تقولها!"، المشكلة في "كيف أقولها؟" و"ماذا أقول فيها؟"، هل هي مشكلة حضارية إذ يسهل على أقوام أن يقولوها ويدركوا ما فيها، أم مشكلة لغوية، أم مشكلة إحساس، عاطفية، وإلا لم يصعب علينا قولها، لم لا نشعر حقا بأنا قلنا فيها شيئا عندما نقولها، لم نشعر بما يشبه الندم أو الخيبة أو الخيانة؟ هل نحب حقا، هل تريد الحب فعلا أم ترى صور الحب متضاربة وغامضة فينا إلى هذه الدرجة؟ سيقول لي هو الخائب في الحب "من أين تأتون بالحب وفنونكم، ذوقكم، على ما هي عليه من التفاهة، وقلوبكم مربوطة إلى الجاه والدرهم، من أين؟"، سيجرني إلى معركة أخرى يبرر بها خسرانه وخسراني! ستتحول قضيتي إلى قضية عامة وأنا أريدها خاصة هنا، والآن، محصورة في زينب!".

- ومع ذلك سأكتفي به فلا تثر!
- تدعوني إلى أن أتصور عائلتي تغتصب من غير أن أثور؟
- معك حق، كل الحق، أنا آسف!
- وفيم يفيدني أسفك، تغتصب، وتأسف؟ عجيب!

ومر الحريزي فوق رؤوسنا بصينيته:

- الشباب؟ مازال الوقت على الخصام، النهار باقي القدام طويل وطويل جدا، فكروا في الليل، ما أطوله!

حاول إبراهيم أن يعود إلى "الموضوع" أكثر من مرة، بوسائل عديدة ذاتية وموضوعية: "كم نختلق من قضايا شرف وكرامة!"، تذكر البنت المسكينة"المحترفة" التي تورط فيها بالصدفة ومؤامرة عادل الآخر وخبثه القوي اللئيم، ذات مرة وهي تقول له: "لا تنام معي وتعطيني مائة درهم فقط، هذه إهانة لشرفي وطعن في كرامتي لن أغفرهما لك أبدا!" لم يفهمها إلا مؤخرا حين قال له مسؤول وكان إبراهيم يحتج على سوء المعاملة والتقصير في أداء الواجب:

- "مسكين هذا المواطن، شاعر!"

... أخيرا يهتدي إلى منفذ:

- ألست يا عادل أنت القائل: "البلاغة في رأيي المتواضع جدا والبسيط يجب أن تعكس كل ما يجد في المجتمع وخاصة التطلعات العميقة لدى الناس وإلا فإنها ستظل تعبر عن الماضي وليس عن الحاضر بماضيه، غريبة عنا، وممارسوها أقرب إلى المستعربين، أو المستغربين العلماء، نوع من المستشرقين، نوع غريب جدا لأنه بلا قضية، أي بلا موضوع، ماعدا موضوع اللغة "كأداة خالصة صورية محضة"!؟ أنا مقتنع برأيك، أشكرك عليه جزيل الشكر!

لا يذكر عادل أنه عبر عن رأي من هذا النوع الغريب:

- "غريب جدا!"

اختلاق آخر من طرف إبراهيم؟

- "أنا أقول كلاما من هذا النوع!"

- وكيف ينصحنا إبراهيم الجرجاني بأن نجعلها تعبر عنا، بأن نمغربها، أو نمصرها، نعربها من جديد؟

هو لا يعرف كيف حقا، ولكن لا بأس من أن يقول كلاما عاما جدا بلا معنى بهذا الصدد على طريقة من يسميهم "العلماء الكبار":

عن طريق ربطها بعلوم العصر مرة أخرى، ليس فقط بعلوم اللسان والمنطق، بالعلوم الأخرى كذلك، مثل السيكولوجية والاستيتيقا، بكل علوم القراءة والتأويل مثلا، مثلا فقط!

- وكيف يمكن ذلك؟

- "وكيف يمكن ذلك؟ الله أعلم، الله غالب! آه، آه، ما أصعب أن تصف شخصا تحبه أو تعجب به، الكتابة عن المقربين صعبة إلى هذه الدرجة، وكيف يفعل هؤلاء الكتاب العظام؟ أريد أن أعلن عن حبي من خلال وصف فقط، فكيف أتصرف؟! لقد شوهته بالكلام التقريبي والنسبي أو أخرته بالدوران حوله ما يزيد عن الثلاثين عاما، فهل أستمر في الهروب من نفسي، وكيف أستمر في احترام نفسي؟ ما أسعد هؤلاء الذين يحبون فورا وبالكلام المكرور وحده!".

- لست أدري بالضبط، إنما أشعر بأننا لم نعد نقول شيئا يذكر أو نمر مرور الكرام على ما نفعل ونقول، وكأنه شيء لا يذكر لا يعنينا بالفعل، كأننا غرباء عن مسؤولية القول والفعل، لا نلتزم ولا نلزم، فوضى، لا معنى! ولقد أصبح أنجحنا أشطرنا في الكذب على نفسه وفي الإسراع إلى تصديق كذبه: بلاغة الكذب، والتكرار أو الزيف هذه بصدد فصلنا عن أنفسنا وعن بعضنا البعض، يجب أن يوضع لها حد، فورا!

- "هذه لقطة، صدفة أو فلتة ستعجب عادل بكل تأكيد.. وبساطة؛ ليس كالكلام العام الفضفاض مخرجا من حرج الدقة وفيض الوجدان! لا تصدق تنجح!"

- في السياسة تقصد؟

- "أصابت من جديد!"

- والله يعني في الواقع، بصدق تام وشمولية أي بموضوعية وعلمية كاملة في كل شيء؛ أنظر إلى عدد القضايا الكاذبة مثلا، في السياسة والنشر كيف ارتفع، وفي الحياة العامة، وتأمل حجمه في العلاقات الخاصة، في المجال العاطفي مثلا، في الحب، في العلاقات الزوجية والعائلية!

- وكل هذا داخل في خانة "وصف زينب" بطبيعة الحال!

- "لا ينسى إلا إذا تعب وما أصعب أن يتعب عادل في المناقشة بطبيعة الحال، أما في الباقي فإن تعبه سريع، تعب كالملل أو اليأس أو الحزن من الدنيا في كل المجالات الأخرى!".

- ذكرتني بها من جديد، كدت أنساها، إننا إنما نقول بكل هذا من أجل وصف زينب!

- أحسن والله!

وتذكر إبراهيم من جديد سنده الوهمي ودليله البسيط:

- كنت قد أشرت إلى الدراسة الرائدة التي أنجزها البروفيسور العوني حول الأناقة، أليس كذلك؟

- لا، لا أظن!

رد عادل ساخرا!

- غير ممكن هذه دراسة قيمة ينبغي أن يطلع عليها كل مهتم بالشأن العام و... تابع عادل سخريته:

- والخاص بطبيعة الحال، أليس كذلك؟

تجاهل إبراهيم تلك السخرية البسيطة:

- تماما، لقد قسم البروفيسور العوني الأناقة إلى أربعة أنواع عامة: "أناقة البساطة" و"أناقة القناع" و"أناقة الفراغ" و"أناقة الظل"، من الناحية التعبيرية، وإلى أربعة أصناف من الناحية التاريخية، أي حسب ظهورها عبر مراحل التاريخ المختلفة: القناع ثم الظل ثم الفراغ ثم البساطة، ونحن لا يهمنا منها في هذا المقام وبشكل مباشر سوى الناحية التعبيرية...

مازال عادل متمسكا بسخريته:

- أنا أظن أن التاريخ أفيد!

- "ليقل ما يشاء ماذا يهمني، أنا أريد الحديث عن أناقة امرأة تعجبني كأنني أريد إعادة ترتيبها، ليكن هو مناسبة، صدى هذا الحديث؟".

- بلا شك، لكن الناحية التعبيرية أبسط!

- لا أعتقد!

- "متى يكف عن هذا السلوك الطفولي؟ آه كم يستمر فينا الطفل الصغير مشاكسا، طفل الغيرة الأولية والأنانية: لم هو مصدوم بهذا الشكل!؟"

- كيف... قرأت الدراسة من قبل؟

- لا... لكن!

بعد الإحراج لجأ إبراهيم إلى المناورة:

- تبدي رأيا في شيء لا تعرفه!

- ما علينا، تابع!

احمر وجه عادل كمن لا يعرف كيف يعتذر:

- ما علينا، تابع من فضلك!

استمر إبراهيم في هذه الحرب الصغيرة تماما كما يفعل عادل نفسه في مثل هذه الحال:

- كيف أتابع، المسألة عندك بهذه البساطة؟ هذه جريمة!

- تابع حفظك الله، تابع!

- تحكم على الأشياء بالباطل وتطلب مني أن أتابع، أن أتابع ماذا، مهزلة؟

- أستغفر الله العظيم، تابع تعودنا أن نحكم على الأشياء بالظن او السماع أو الإشاعة والواقع يبرر ذلك!

- وما أقبح العذر، الواقع يبرره، قال!

- الواقع حفظك الله يبرر السفسطة، ألا ترى أشكال الخطاب السياسي كلها، والخطابات الشخصية وما يتعلق منها بالعلاقات بين الناس: عندما يسود الخواء وتنتصر الأنانية، عندما يصبح المظهر أو الواجهة أهم قيمة في الدنيا، ماذا تريد من الناس أن يتعلموا غير السفسطة بأول معانيها، أي غير أن يتراءوا بأشياء ليست في ذاتها كذلك، أن يتظاهروا بحقيقة ليست حقيقة، بفضيلة بعيدة كل البعد عن الفضيلة، بحياة لا علاقة لها حقا بالحياة الحق، وها هو الأمر والأفظع ينتشر الآن: التظاهر بالفقر والحاجة ليتساوى في هذا الغني والفقير للترائي بالصدقة والتضامن! الكل يستجدي الكل ويتوسل إليه بضيق اليد والوسيلة والحيلة، من الغلو إلى الغلو: رعب واحد، ممثلون عديدون بقناعين لا أقل ولا أكثر! رعب كالأمان والمصيدة: رعب واحد، ممثلون عديدون بقناعين لا أقل ولا أكثر! رعب كالأمان او أمان كالرعب: امتلاء فارغ، عنيف...

"بعد هذه الخطبة العصماء يمكن أن أفاجئه!":

- إذن العوني على حق، قريب من الصواب...!

- اسمع حفظك الله، كلنا في الواقع على صواب لأننا نعرف ما ينقصنا ونجتهد في إخفائه، أي نعرف لماذا نخفيه كأننا نؤجل الحياة أو نطيلها فقط بما يشبه الرغبة، التظاهر بالرغبة والإرادة، التظاهر كالهرم الذي يعشق الصبيات، يشده إلى الدنيا أنبوب في مستشفى، اخترنا الانتظار!

- "لا بأس، لا بأس من أن تعبر عن حالك يا صاحبي، فاتركني الآن أعبر عن حالي فأنا وفي هذا الموضوع بالذات والصفات ذاتها، لا أظن أني أمارس الكلام مثلك: يحدث أن نريد الكلام لنتكلم فقط، الكلام لذاته وهو شيء مفيد وأساسي وإلا فإننا قد ننفجر ونحرق، لكني... أريد أن أصفك يا امرأة لأقول كم أحبك!"

- المحب أعمى يا إبراهيم، الحب يعمي ويصم لأن وثاقه يخنق فينشط الخيال ليخلق ما يصف، الوصف اختلاق، ترانا نستطيع ان نحب حقا، أن نحلم فعلا في هذا الزمن!؟

- "يقرأ في نفسه من جديد يتألم؟! "

- أجمل امرأة هي تلك التي نحلم معها، أو بها، أجمل الأحلام، بهذا نشعر أننا أحياء نعود إلى الحياة؛ أضيق الأشياء إذن أوسعها!

- "وحين ينتهي الحلم، القدرة عليه، ينتهي الحي كما تنتهي الحياة بالطريقة نفسها، يربطنا شيء يحلو ويتقوى بالحلم، نفس الشيء بصورة أخرى، بين صديق وصديق، بين أفراد مجتمع أو أسرة، أي شركاء في الحلم والألم!".

- هذه صورة مظهر، هناك صورة أخرى: تجرب غيري، قد تجرب الكثيرين فلا تجد من يشاركك الحلم والألم أحسن مني، وقد تقبل بأحلامنا الصغيرة إذ تستحيل عليك الأحلام الكبيرة معي أو مع غيري، حتى في أجمل العواطف مقاصة ما!

- "ما أجملك حين ينطلق لسانك بهذا الألم، لكني عائد إلى العــوني لا محالة، إطالة لألمك ولحلمي!".

مساء « الفصول الأربعة»

دخل رجل قوي ملثما واختفى في الطابق الأرضي، دخل رجل قـوي آخر ملثما واختفى في الطابق الأول، دخل رجل قوي ثالث ملثما واختفى في الطابق الثاني، دخل رجل قوي رابع ملثما واختفى في الطابق الثالـث، جـاء رجل قوي خامس ملثما وجلس على يمين مدخل العمارة، وجاء رجل قـوي سادي ملثما جلس على يسار مدخل العمارة، ثم جاء رجلان قويـان ملثمـين جلسا على قارعة الطريق من الجهة المقابلة للعمارة.

في الداخل، في الشقيقة رقم 13، يختنق الصالون الذي يستعمل كـذلك غرفة نوم وقاعة أكل، كما يغص البالكون الذي هو في ذات الوقـت مطـبخ ومكتب وفيراندا بالزائرين الذين جاءوا من جهات وفئـات مختلفـة مهنئـين متقربين أو فقط كفضوليين مستطلعين...

وزعت الحلوى والفطائر التقليدية مع الشاي والقهوة والموناضا التـي جاء بها الحريزي من "مقهى السعادة" بأمر من صاحب المقهى ولكن باقتراح من الحريزي وتدبير منه:

– سكوت... سكوت من فضلكم وانتباه!

وصعد الحريزي فوق صندوق موناضا فارغ في الممر الموصل بـين "الصالون" و"البالكون" منصبا نفسه خطيبا بالمناسبة:

– أيها ليخوان وليخوات السلام عليكم وعليكم السلام ولله الحمد الكثير والشكر، قدر ما بين السماوات والأرضين، والصلاة والسـلام علـى زيـن الزين سيدنا محمد وعلى آله وكل من تبعه من ليخوة وليخوان مـن الجـن ولينسان... أما بعد، صلوا على النبي!

- الصلاة والسلام على سيدنا محمد، ردد الجميع بصوت واحد مصحوبين بزغردات النساء!

- هاذ السيدة زينب أختنا وبنتنا وجارتنا وحبيبتنا الله يحفظها ويرعاها ويكون منها الزرع والزريعة ويجعل بجاه سيدنا محمد ولاله فاطم الزهراء من سبولتها النوادر والمطامر والبيادر، آمين، قولوا آمين الله يصلحكم!

- آمين يارب العالمين، ردد الجميع بصوت واحد مصحوبين بزغردات النساء مرة أخرى!

- ونحن هنا، لأننا أحبابها وإخوانها وجيرانها، جئنا إليها كلنا بلطف من الله تعالى وتدبير، لنهنئ أنفسنا على هذا الشرف العظيم الذي حظيت به أختنا المصون وحبيبتنا الفاضلة وبنتنا العزيزة وجارتنا الكريمة لالة زينب، أكرمها الله وجعل مقامها من مقام زوجات النبي المصطفى، عليه أزكى الصلوات وأطيبها، وحفظها بما حفظ به الوليات المؤمنات الصالحات الزكيات القانتات العابدات المحسنات لليتيم والضعيف والمقهور والمتسول، آمين، قولوا آمين الله يصلحكم!

- آمين يا رب العالمين، ردد الجميع بصوت واحد أكثر حماسا مصحوبين بزغردات النساء مرة أخرى!

- لقد أكرمنا الله أيها ليخوة وليخوات بإكرام هذه المرأة الطيبة الطاهرة العفيفة الكريمة سلوكا ونية وأصلا وغاية ودراية وعناية، وقال له منين هذاك الغصن قال له من ذيك الشجرة... اسألوني عن الشجرة أيها ليخوة وليخوات اسألوني أقل لكم عنها، اسألوني...

لم يسأل أحد فتطوع العبدي لينقذ الموقف:

- منين ذيك الشجرة ألحريزي؟

انتفخت أوداج الحريزي:

- من الأصل الصافي الطاهر، ذاك الذي لا ينسب إليه إلا ما هو زكي وطاهر من لاله صالحه الصالحه بنت النبي العدنان صلى الله عليه وعلى آله أجمعين...

- الصلاة والسلام على سيدنا محمد، ردد الجميع بصوت واحد طويل ورخيم مصحوبين بزغردات النساء المترقرقة الرنانة!

- ونحن منها وإليها، خدامها وأعوانها الأوفياء المخلصون، أتباعها الطائعون، الأنصار والمهاجرون...

وصاح العبدي وسط الحضور:

- الله أكبر!

فردد الكل:

- الله اكبر!

وأضاف العبدي:

- فتح الله ونصر!

فرددوا جميعا:

- فتح الله ونصر!

- أيها ليخوة وليخوات، أختنا وحبيبتنا وقرة عيننا في حاجة إلى من يقف إلى جانبها في السراء والضراء حتى تجتاز هذا الامتحان العسير، امتحان الوزارة والمسؤولية الحكومية التي عرضت على الجبل فرفضها وقبلتها أختنا العظيمةلأنها تعرف أننا سنكون إلى جانبها نحمل عنها ما خف وما ثقل حتى تصبح وزيرة أولى إن شاء الله...

وعلا صوت العبدي من جديد:

- يا ربي!

فردد الكل:

- يا ربي!

- نحن وليشهد الله، لن نتخلى عنك ولن نتركك وحدك تواجهين متاعب الوزارة وكيد الطامعين والحاسدين، وها أنا أعلن من أعلى هذه المنصة، وبكل وعي وتبصر ومسؤولية أني أقبل أن أكون المسؤول عن مصلحة الخدمات في الوزارة: الشاي والقهوة و...

وقاطعه العبدي:

- هذه مصلحة اختصاصاتها مألوفة معروفة وأنت الأهل لها!

- أما أخونا العبدي، العبد المخلص الخدوم، فقد عيناه المسؤول عن أمن أختنا وكبير شواشها ليكون لها أذنا وفية وعينا ساهرة!

وقاطعه العبدي مرة أخرى:

- عاشت الوزيرة المحترمة وعاشت الوزارة المحترمة وخدام الوزارة الأوفياء!

فأخذ الحريزي الكلمة منه قبل أن يردد الحاضرون عبارته:

- وها هو مستشاركم في القضايا الاجتماعية والسياسية: المقدم أحمد الزيتوني!

انحنى الزيتوني في حركة تحية طويلة فتابع الحريزي:

- الوزير الأول نفسه، وأنا أعرف ما أقول والله شاهد علي، ليس بجانبه خبير مثله، ونحن نقترح عليك بهذه المناسبة الكريمة، أن تقترحي بدورك على إخوانك الوزراء بأن يتخذوا لهم مستشارين اجتماعيين من المقدمين والشيوخ النافعين!

لم تستطع زينب هذه المرة، ورغم مقاومتها الكبيرة للضحك أن تحافظ على وقارها تاما وأن تمنع بسمة رأى فيها الحريزي ما يشجعه على المضي في توزيع المهام على الحاضرين إلى أن اقتحم الشقيقة فجأة رجل ملثم قصير

القامة نحيف الجسم وسط أربعة رجال غلاظ شداد ملثمين بـدورهم يتطـاير الشرر من عيونهم وما كاد الحاضرون ينتبهون إلى وجـودهم حتـى سـرى بينهم الرعب والقلق:

- خروج، جميعا، قال أحد الملثمين المردة!

هوى الحريزي من على الصندوق فأمسك به العبدي وجره وراءه بينما كان الآخرون يتدافعون في هلع في اتجاه الباب والدرج، بقيـت أنـا وأحمـد الزيتوني...

- وأنت تسترخص عمرك أيها الأبله!

قال لي أحدهم وهو يتوجه نحوي شاهرا سيفا طويلا فأوقفته زينب:

- دعه، لا!

وكانت قد دنت مني فأضافت:

- تعال لي، يا... يا إبراهيم بعد أخبار الثامنـة والنصـف مباشـرة، انصرف الآن يا إبراهيم!

ساعدني الزيتوني على المشي فلما وصلت بابي قال لي:

- اغبر واغتر، ذب!

وعاد إلى شقيقة زينب، فتحت النافذة كلها لأشم بعض الهـواء لأنـي كنت أختنق فرأيت عددا كبيرا من الملثمين الشداد الغلاظ يمـلأون الشـارع وسمعت جيراني يقولون:

- الحكومة عند 13!

- العجب... سيده درويشه وداخله سوق راسها!

- الحكومه هذي، اللعب هذا، وبني آدم كحل الراس عندك تثق فيه!

وفي 13 خلع الرجل النحيف القصير لثامه فهرعت نحوه زينب:

- الهادي، ويحك!

قال الهادي وهو يضمها بكل قوته:

- لم يعد أحد يعرفني بهذا الاسم، أنا نفسي لم أعد أذكره إلا في السر!

- ويحك، ردت وهي تبكي!

- الخنزير كلب الشيطان سفاح البحر رجل القرش... حتى زوجتي سموها القرش...يتفننون في اختراع كل أسماء الرعب الممكنة... الناس خايفه ومرعوبه... غير من الظل... الخيال!

أضاف فأخذت تتخلص بلطف من قبضته، كمن أحس بالرعب فجأة أو تذكره:

- لكنك تزرع الرعب حقا في الناس وتغذي خوفهم منه وترعاه، أكدت وهي تمسح الدموع من عينيها!

الحقيقة أن الرعب يأتيهم من اللهسة واللهطه، لكنهم في حاجة إلى تجسيده ليتعين لديهم ويسهل النظر الصغير والقصير إليه، ليتوهموا أن بإمكانهم تحويله إلى خوف عاد أو تقليدي... معتاد... شيء من السحري والأسطوري!

- لا، شيء من الوهم!

اعترضت ساخرة وهي تحاول أن تسكن ولما رآها تهدأ وتتغلب على الانفعال غير مجرى الكلام:

- تدركين أني لم أخاطر بنفسي قادما من أجل هذا...

أخذت تتفحص شحوبه وهي تنتظر أن يكمل بينما توقف عن الكلام متوقعا أن تسأل ثم استأنف الكلام لما رآها تستغرق في تفحصه:

- بلغني أنك مرشحة لوزارة، الأمر رسمي؟

فكرت في طريقة للتخلص من الموضوع فسبقتها عبارة:

- شبه رسمي!

أخذ يذرع الغرفة جيئة وذهابا ثم وقف خلفها وسألها:

- وبماذا أجبت، قبلت أم رفضت؟

لأول مرة تحس بأن في صوته نبرة تهديد فاستدارت نحوه:

- طلبت مهلة للتفكير!

وتبادلا نظرة طويلة حادة فتذكرت كأنما فجأة معاركهـا معـه خـلال الطفولة، وكيف كانت تضرب، تضربه بعنف، تعض أو تقمص، تقرص وهي تبكي وتستغيث، كانت دائما تربح معاركها ضده بهذا الشكل قبـل أن يتـدخل "كبير" لمعاقبة الهادي، دائما:

- وبم ستجيبين بعد أن فكرت؟

لم تتوقف نظرة التهديد والتحدي:

- مازلت أفكر في الأمر!

سحب نظره من عينيها قبل أن يشعله من جديد:

- سترفضين هذه الوزارة!

كانت تبدو أطول منه وأقوى وهي تسأله:

- وهل يمكنني أن أعرف لماذا، من فضلك؟

تجاهل نبرة الاحتقار والتحدي:

- لأن هذه الحكومة ستكون ضدنا!

- آه!... ضدكم؟

صرخت ثم ابتسمت بصعوبة، لكنها ابتسمت، وابتسمت ابتسامة مليئـة بالسخط والاحتقار:

- ضدكم أنتم، من أنتم؟

قال في هدوء ومن دون أن يتغير شحوبه:

- نحن الفقراء المستضعفين، وستكون لنا معها حرب طويلة!

لا تذكر أبدا أنه ابتسم ذات يوم، لا وهو طفل ولا وهو مراهق... وصحيح إذن ما يشاع عنه بأنه أحيانا يفقد عقله، بأنه مازال من حين لآخر يهذي هكذا تماما كما كان يحدث له في صغره؟ تشفق عليه؟ ولم؟

- لقد جئت إليك بنفسي لأحذرك: لا تشاركي في هذه الحرب فأنا لا اريد أن أقتل بيدي هاتين أختي الوحيدة!

وأرادت أن تشعلها لحظتها، كما كانت تفعل معه في صغرها كلما أهانها أو ظلمها، لكنها تذكرت أنها عاشت مثل هذا الموقف مرات كثيرة مع أناس مثله، وأنه لو لم يكن أخاها لما ساءها الأمر إلى هذه الدرجة:

- على كل حال عندما أقرر عدم المشاركة فإني سأفعل ذلك بوحي تام من ضميري وليس تحت تأثير أية جهة أخرى كيفما كانت، وستكون أنت بالذات، إذا احتجت إلى مشاورة في الأمر، آخر من أفكر فيه!

فاقترب منها محاولا ضمها وهو يقول:

- لا يجب أن تبدأ الحرب بيننا، لا تشاركي، ومن موقع المسؤولية والقرار، في العنف علينا، فإننا لن نرحمك!

فدفعت بيديها بعيدا نحوه محاولة صده بأقصى ما لديها من عنف:

- معك الحق: الحرب بيننا قد بدأت منذ سنوات وانتهت إلى وباء شامل، لكني سأفكر في اقتراحك، رافقتك السلامة!

- مصلحتك ومصلحتنا جميعا أن تعملي به، أن تنفذيه باعتباره أمرا لأنني في المرة القادمة لن أستطيع أن آتيك بنفسي، سيأتيك فقير ملثم من هؤلاء، وقد يصادفك في الشارع!

اعترضت طريقه وهو يحاول الانصراف متحدية غاضبة:

- ولم لا تأتي بنفسك مكان من يسأتي بدلك، السفاح الآخر مثلك، السفاح الذي سينوب عنك، فأنت تعرف على الأقل قدرتي على المقاومة؟

تجاهل انفعالها وضرباتها:

- لا، سأرسل إليك واحدا من هؤلاء الذين تدفعونهم إلى أن يقتلوا من أجل أنفسهم خوفا وقلقا ودفاعا وشرفا... أعرضوا عنها واتبعونا، إنما جئنـا لنحذرها!

كانت قد سدت أمامه الباب:

- أولئك الذين تشتغل لحسابهم، لصالحهم لأنهم أوهموك بالقوة والجاه والأهمية، أولئك الذين تنتقم لنفسك من أسرتك عن طريقهم لأنهـم خـائفون يرتعدون من أنفسهم، كما كنت دائما منذ صغرك؟ الهادي، الهادي المسكين، الجريح الفزع، المرعوب.. السفاح!

كان قد تخلص من قبضتها وخرج مع رجاله وكان قـد خـلا مـنهم الشارع والعمارة إلا أنها مازالت تصرخ:

- غسلوا دماغها، قال الواعي المتوازن، المريض!

- الرجوع لله ألاله زينب!

من؟ المقدم؟ ماذا يفعل هنا؟ ماذا كان يفعل طوال هذا الوقت؟

- ولكنك سمعت كل شيء، سمعته يهددني ويتوعدني بالقتـل، ألـيس كذلك؟

سألته في خبث فأجاب مواسيا:

- سمعته، سمعت كل شيء، مع الأسف الشديد!

فثارت في وجهه:

- إذن اجر، اذهب واحك كل شيء لأسيادك، أما أسفك فلا تنسـى أن تكتريه للهادي!

أسقط في لسانه، الثلج:

- لا، لا، عيب، لا...

- واخرج من بيتي، إنك تعتدي على حرم، ألم تبنوا كل شيء على نظام الملكية الفردية؟

وحضره فجأة مكر الحرفة فأخذ يستعطفها ويبكي، يعتذر ويبكي، يلعن نفسه ويبكي، يلعن أمه ويبكي حتى دخل في موجة صرع:

- آه كل هذا العنف!

قالت معزية نفسها بعد أن هدأت فظن أنها قد رقت له:

- لو أمهلتني... لشرحت لك!

وظهر لها آنئذ أن الموقف كله مليء بالعبث، بجد كبير كالعبث الصغير:

- ها أنا أمهلك فقل، ماذا تريد؟

تهاوى فوق الأريكة التي تستعمل كذلك سرير نوم ووضع عينيه بين يديه:

- أنا ابن أخيك ولا أحد يعترف بي!

- الله، كملت من جميع الوجوه والنواحي!

أكثر من ذلك، ها هو يستغفلها: تهديد "الخنزير" ثم استغفال المقدم، ما الفرق؟ قد يفعلون ذلك لأنهم يتوهمون أنها "مجرد امرأة" تؤخذ بالعنف أو العاطفة؟

"مساكين!... ملاعين!"

- اخرج، أو ادخل من الباب ألمقدم، هات!

مازالت عيناه بين كفيه:

- أنا ابن زكي!

لماذا يطول هكذا هذا الموقف السخيف؟

- زكي لم يسبق له أن تزوج وأنت تعرف الأمر جيدا من موقع مسؤولياتك ألمقدم!

- أخرج ورقة صفراء مدعوكة ومدها إليها:

- ما هذه؟

سألته وهي تتناولها:

- إنها وثيقة شراء البيت الذي نسكنه في اسم زكي!

لماذا يتعمد سلخها بعد أن جلدها "الخنزير"؟

- وما علاقة ذا بذاك ألمقدم، أرجوك؟

وقف وأخذ يشير إلى الاسم في الورقة الصفراء المدعوكة:

- انظري هنا، البيت باسم أخيك: زكي الرنجي!

صحيح، إنها وثيقة شراء بيت، عقد بيع، والمشتري زكي الرنجي، ولكن:

- ما علاقة ذا بذاك؟

سألت مرة أخرى وهي تقول لنفسها إنها المرة الأخيرة:

- زكي الرنجي، والدي وأخاك، التقى أمي في ملهى ليلي وكانت قد بدأت تتعب من هذه الحرفة وكان هو قد هده الشرب والسهر والسعال، فرقت لحاله أو رق لحالها، الله أعلم بالأمر، فعرضت عليه أن "يعيشا معا في الحلال"، كما تحكي أمي، وأن "يتفرغا لبعضهما البعض" إلى أن "تأكلها قرحة المعدة أو يأكله مرض الصدر الخبيث" فاشتريا هذا البيت "بما جمعت لدواير الزمان وما تبقى له من الإدمان" وعاشا فيه معا ثلاثة أشهر، بعدها غادر زكي الرنجي البيت ولم يعد إليه... وجدت أمي رجلا تزوجها "بالعقد الشرعي" وكانت وقتها حاملا بي منذ ثلاثة أشهر فلم تنسبني إلى هذا الرجل الطيب وإنما نسبتني إلى الرنجي...

- لكن اسمك العائلي الزيتوني!؟

سألته وقد بدأت تصدق حكايته:

- لا، هذا "اسم الرحمة"!

لم تفهم فتابع:

- أطلقه الناس علي رحمة بي، أو نكاية في حتى لا أنسى أصلي، اما في الحالة المدنية فهاه، انظري هذه بطاقتي الوطنية:

- أحمد الرنجي!

ماذا تقول؟ كيف توقف في ذهنها تاريخ هذه السلالة الرهجية؟

-وما أدراني أنك لا تنتحل هذه الشخصية؟

-عيب، أعمتي، إلا الهوية، وحتى أنا بني آدم!

دفع الباب وأطل الحاج محمد الرنجي فقال أحمد الرنجي:

-ها الحاج محمد، إنه يعرف كل تفاصيل هذه الحكاية إلا أنه لا يصدق منها شيئا خوفا من عار مات وانتهى، من طمع !

وصاح في وجهه الحاج محمد وهو يدخل:

-ماذا تفعل هنا، أيها المغتصب الكذاب المحتال، لا تصدقيه فزكي، رحمة الله عليه وسكينته، لم يكن يلد؟

فقال أحمد الرنجي، موجها الكلام إلى عمته زينب، وهو ينصرف:

-لقد اشترت أمي منيه من« مستودع الأموات» وألحقت نفسها به نكاية في الحاج محمد، الحاج محمد يظن أني أطاليه بالاعتراف بي لأجد سبيلا إلى شيء من ثروته، في رأسه آلة حاسبة لا غير، آلة قديمة مخزونة في «قماش الشرف»!

وقال الحاج محمد وهو يستلقي مكانه على الأريكة:

-لعنة الله عليك يا بن المتسول، قليل الأصل!

فرد أحمد:

-ها الاعتراف يفلت منه!

وأغلق الباب مختفيا. فكرت زينب لحظة نسيت خلالها الحاج محمد:

-«صحيح، فيه الكثير منها، من العائلة، القامة القصيرة والسفاهة والفظاظة و... الشحوب واللعنة و...! »

وقطع حبل تأملها الحاج محمد:

-كيف حالك، أختي العظيمة؟

«أختي، العظيمة»؟ يا للوقاحة!

-كانت ستأتي معي الحاجة والأولاد لكن عبلة تفتتح صيدليتها اليوم !

-«كذاب!...سفيه وفظ غليظ اللسان ولو رق وذاب! »

منذ أن «تفاهما» حول ما تبقى لديها عنده من الإرث وباع لها «قصر النملة» هذا بثمن فيلا «هدأت» الأمور بينهما، لم يعد لديهما ما يربط بينهما:

-لقد حجزت لك بيتا كبيرا يليق بمقامك، وبمكانة العائلة العظيمة، في العمارة البديعة التي أقوم ببنائها، على «شاطئ الصنوبر»، لرجال الأعمال والموظفين الكبار...

-«جاء إذن من أجل صفقة؟ البيت؟ لا، مجرد مقدمة !»

-ومبروك، علينا، الوزارة، الحكومة التي تعود إلينا بعد أن ضاعت منا فترة طويلة !

« ها سبب الزيارة إذن ! فأين الصفقة؟ » لم لا تجامله قليلا، تضحك عليه:

-مرحبا بالحاج خويا، نهار كبير هذا، ألحاج، فيك ريحة الوالد، والله العظيم!

« فيه غير ريحة لفلوس، يقدر يكون يغسل بهم ويتريح بهم ! »

-قلت لك، ألا له مولاتي، الله يرضي عليك...وصلتني عليك أخبار قبيحة !

-« مهلة التفكير في الوزارة؟ أكيد، وماذا يهمه مني غير هذا؟ »:

-الله يحفظ، ألحاج... قل !

كان يبحث عن الكلمات المناسبة بعد أن فلتت منه عبارة « أخبار قبيحة » فقررت أن تهزمه قبل أن يضربها:

-الوزارة، مع الأسف، اعتذرت عن قبولها، بسبب عدم الكفاءة !

-يا لطيف، يا لطيف، يا لطيف...عدم الكفاءة، ومن الأكثر منك كفاءة في هذه الأمة كاملة؟

تتركه يقول ما يشاء ثم تجد كلمة، في الختام، تطيب بها خاطره ليذهب إلى بيته بأمل أنه سيزداد ثروة وجاها وهما؟ ولكن، فيم ستفيده هذه الزيادة في الثروة، في ثروة لم تقدر على منحه ابتسامة واحدة، ولا عاطفة واحدة، صادقة من نفسه أو من غيره؟ في هذا العمر، في هذه الحال من عمره، يريد أن يستمر في السرقة والنهب؟ أما كفاه، هو وأمثاله، ما سرقه ونهبه طيلة أربعين سنة أو أكثر؟ لو أن هؤلاء عملوا الخير بهذه الأموال على الأقل، لو خدموا صالحا، لو أنهم أصبحوا، على الأقل، بها سعداء ! »...

«جدي العالم التقي المجاهد كان كلما يئس من هداية غني تعيس يقول: سبحان الذي أراد أن يعذب النملة فأعطاها جناحين، وأعطاها كل هذه الطاقة على الجمع والعمل ! لو أن المال والبنين، دائما، زينة الحياة... ها المال والبنون عدو لكم لا يرحم، جهنمكم...لا يستمتع لا بماله ولا بأبنائه، ألا يستحق الشفقة؟ لذتهم الوحيدة في التكديس ؟ هذا هو الجيل الذي ورثنا عنه اللهسة، والعياذ بالله، وها هو الجيل الآخر العظيم، من حفدتهم، في الطريق إلى أن يخلفهم ويتسلم منهم المشعل الطافي الجليل، أسرار كتب الصبغة والواجهة والنهم! أستغفر الله... »

-أنتم، الشباب، الجيل الذي ازداد مع الاستقلال أو ترعرع في كنفه، لا تعرفون أهمية السند العائلي في الوطنية الحقة، ضعفت رابطتكم العائلية، كما ضعف إيمانكم والواعز الأخلاقي لديكم، فضعفت وطنيتكم معها...

ماذا يريد أن يقول، أما كفاه كل ما قاله وظل يردده، طيلة سنوات، عن «خطورة المرحلة وعن دورنا في ما آلت إليــه الأوضــاع»، دور الشــباب المتسيس، من أين يأتي بكل هذه التفاهة، بكل هذه الوقاحة؟ من الســوق، ولا شك؟

-«أوهام السوق وأهل التجارة السهلة» !

-اسمعي كلامي، يا زينب !

-«لا شك أنه سينتقل إلــى المفيــد الآن وإلا فــإني سأضــطر إلــى «إفراغه»:

-اقبلي هــذا العــرض واشــكريهم عليــه، مصــالح العائلــة بــين يديك...الوطنية الحقة، في هذا الوقت، يا أختاه، تمر عبر مصــالح العائلــة، ولقد كانت الحركة الوطنية عائلة واحدة دائما، وكان الصحابة، رضــوان الله عليهم، عائلة واحدة، وكان ماركس وانجلزولينين وتروتسكي عائلــة واحــدة موحدة، كذلك كان ماو وشوانلاي وهو شي منــه، وأمنــا عائشــة وطلحــة والزبير ومعاوية رضي الله عنهم، فلما تفرقوا غلبهم الأجنبي وتشتت شملهم، والعائلات، اليوم، هي العائلات الكبرى العريقة، فلا غرابة أن يكره الفقــراء والأوباش والمتسلقون الجدد هذه الحكومة وأن يكيدوا لها، من الآن، ليطيحوا بها وهي لم تكتمل بعد ولا نحن فرحنا بها، اقبلي، فإن هذه الحكومة لن تجــد غيرنا للدفاع عنها والأخذ بيدها إلى شــاطئ النجــاة والتوفيــق بحــول الله وقوته... الأسرة أساس السعادة ومن يغضب الله يحرمه منها، ألا يحرم منها الكفار إذا يوم القيامة؟...

كيف تنهي عبث هذا اليوم العنيف الذي بدأه الحريزي وأشعله الهــادي ويؤججه الآن الحاج محمد؟ لقد تعبت، حقا !

-اسمع، الحاج محمد...أنا، في الحقيقة، لم أقل بعد لا نعم ولا لا، لقد طلبت مهلة للتفكير والمشاورة، وبطبيعة الحال فإني كنت سأجيئك لطلب رأيك، فأنت في مقام الوالد رحمه الله، وها قد سبقتني بالمعروف، جازاك الله خيرا، تقدم إلي ما كنت سأذهب لأطلب منك، فتأكد من أنني لن أتخذ قرارا نهائيا في هذا الشأن بدون الرجوع إليك، ممنونة وشاكرة !

انفرجت أسارير الحاج محمد وقام نحوها يريد تقبيلها ولكنها تقدمت نحو الباب وفتحته:

-طاب مساؤوك، سلم لي على الحاجة وعلى الأولاد !

ولم يجد غير الرد:

-عمت مساء، أيتها الأخت المصون المرضية !

غير أنه دفع الباب من جديد متكلفا ابتسامة عسيرة:

-مفتاح البيت وعقد شرائه، صوريا يعني، سيكون عندك بعد عشرة أيام !

وقالت وهي ترد الابتسامة بأصعب منها:

-شكرا جزيلا !

وأضافت لنفسها وهي تتوجه لفتح الثلاجة:

-وفي أقل من ذلك تكون الحكومة قد تشكلت، تكون قد عرفت إن كنت «أستحق» البيت الفخم الجديد أو لا، «في رأسع آلة حاسبة فقط»، ولكن «الحيلة، أحيانا، في بعض الأحيان فقط، أحسن من العار» !

أغلقت شقيقتها بالمفتاح وطرقت باب الشقيقة رقم 15:

-مساء الخير، إبراهيم، معي بيدزه وجبة، إذا كنت وحدك !

-وعندي فقط «الفصول الأربعة»، إنها على تورن-ديسك تقليدي، من أيام «الجدوالنشاط»، قلت وأنا أفسح لها لكي تدخل !

أتذكر، أسترجع ما سبق «مجيء الحكومة» إلى عمارة السعادة، وأنا وحدي هذا الصباح، في الحمام: تظاهرت بنسيان العوني و«فريق نجدتي» وعكف عادل على «مراجعة الجريدة» الجريدة التي قد يحدث له أن«يقرأها» ثلاث أو أربع مرات في اليوم. المقهى. كنا قد طلبنا قهوة من جديد. كان الحريزي نشطا، ومبتهجا، أكثر من العادة، يقولون إن أمره « تيسر مع إحدى الطالبات بفضل ساحر يهودي فوجبت الزيادة في الاحتياط من حسابه المغشوش دائما! » كان قد حل بيننا صمت غريب، كالتعب أو القرف: الكلام، كالعمل، محفز حين تضعف الهمة...قل أي شيء أو افعل أي شيء ولا تسكت أو تقعد، فللموت ألف شكل وطريقة... ! فجأة رفع عادل بصره نحوي وسألني:

-قرأت مقال العوني في الجريدة:«أمراض البروستاتة والشيخوخة»؟

-العوني موجود إذن، لا شك أني قرأت اسمه بدوري في هذه الجريدة ثم نسيته، هل أصبح الخيال بهذا الضيق وأصبحت الجرائد بهذا الفراغ أم ترانا فرغنا من شيءلا زال فينا هامدا...الذاكرة؟ »

-وكلامه مفيد ورزين في هذا الموضوع، ألا تذكرنا بكلامه في الأناقة فقد يكون بمثل الأهمية ؟

-« لنختلق على الأقل العوني منظر الناقة، فهات يا خيال !»

-قلت إنه يقسم الأناقة إلى أربعة أنواع، أليس كذلك؟

-«أنا قلت هذا؟ يا لطيف من أين أجيء بطاقة على هذا الأمر والعصر قد بدأ يختلط بالمغرب؟ »

-يعتقد البروفيسور العوني أن «أناقة القناع» هي الأناقة الأكثر شيوعا، اليوم في البلد...

-هات إذن ما يقوله العوني، هات !

يبدو وكأنه هدأ بالفعل بعد تلك «الخطبة والانتهاء من قراءة أمراض البروستاتة، يريد أن يهرب من كثرة الخوف أو الفراغ إلى شيء من الجمال والحسن، السبيل الوحيد إلى شيء من الطمأنينة في هذا العالم المليء بالأخطار والرهبة ! »

لكنه عرف الآن من تكون زينب، تذكرها بالفعل:

-«ابنة عمة أمي، ريحة الشحمة في الساطور، الشاكور، نسونا ونسيناهم فلم يعد أحد منا أو منهم يعرف الآخر، العائلة المقدسة !»

-«أناقة القناع تقوم على وظيفة الإخفاء والتظاهر، أي على قدر عال جدا من التنكر، وصاحبها، أو صاحبتها، قد يكون من علية القوم كما قد يكون من أوسع فئات الشعب: إنه يلبس ليكون شخصا آخر غير ذاته، إما لأنه يرفض هذه الذات وإما لأنه لا يعرفها، ونموذجا العادي هو ذلك الذي لا يستطيع أن يتعرف على نفسه في المرآة، ذلك الذي لم يرقط وجهه الحقيقي في المرآة، في أية امرأة

-في المرآة أو في المرأة؟ حدد !

-المرآة بالمعنى الرمزي أو بالمعنى الفعلي، ومثالها الشائع البسيط المرأة التي لم تر قط وجهها، رؤية بالفعل، خارج الماكياج، أو تلك التي شوهت وجهها من كثرة الأصباغ، وكذلك الشاب الذي لا يكف عن حلق لحيته وإرسالها كأنه لا يعرف ما ينبغي أن يفعله بها، يريدها ولا يريدها!

هذه أمثلة ضعيفة، لكن الفكرة واضحة!

-«شكرا، سعادة المفتش، على تفهمكم لصعوبة العمل في البادية، وقلة الأمثلة لربط التلاميذ، المدرسة، بمحيطهم، شكرا جزيلا ! »

-ويمكنك أن تضع، مكان الماكياج أو اللحية، السيارة والسكن والأكل والكلام والجلوس في مقهى أو في مكتب أو المشي أو طقسا من طقوس الفرح والحداد لتكتمل لديك بلاغة «اناقة القناع»، فهي ليست خاصة بما نسميه اللباس، بشكل عام، وإنما تهم كل ما ليس لك حقا وما لا يعبر عنك بالفعل، بإمكانك إذن أن تسميها «أناقة الواجهة». انتهى كلام البروفيسور بخصوص هذه النقطة.

-هذه فهمناها، فماذا عن الأنواع الأخرى؟

-« يعني عادل «بهذه فهمناها »، بطبيعة الحال: لا تعني زينب ! لكنه يعني كذلك: هذه فوتناها لك لنرى الباقي !»

-لكل نوع آخركذلك نموذج وأنماط وامتداد وتجليات، أمثلة تجسده..

-«واو على الكلام الجميل، واو!»

-والأقرب إلى القناع هو ما يسميه «أناقة الوظيفة» أو«المهنة». «تتميز هذه الصيغة من الأناقة عن تلك بأن الشخص، في هذه الأخيرة، لا يجهل، بالضرورة، ذاته أو يتنكر لها، بطريقة لا شعورية، وإنما يلبس رداء تقتضيه الوظيفة التي يقوم بها لحسابه أو لحساب غيره، المهمة التي يكلف بها أو يختارها، بأي شكل من أشكال الاختيار، ويدخل، في هذا النوع بطبيعة الحال والمجال...»

-«بطبيعة الحال والمجال» يعني؟

-واش بك،ما تعرف العربية؟ ويدخل، في هذا النوع، لباس العمال، البذلة الزرقاء، مثلا، والأطباء والممرضات والرهبان والجنود والمعلمون والشرطة والحرس والباعة، في المتجر، والقائمون بالخدمات، في المطاعم

وغيرها، كما يدخل فيه، من جميع النواحي، لباس بائعات اللذة ولباس المراهقين أو المراهقات، ولباس الشيوخ والعجائز، إضافة إلى ألبسة المناسبات، كالأعياد والحفلات والعطل وأيام الأحد والجمعة أيضا، وكذلك الملابس الداخلية، لدى الرجال والنساء، على السواء.

-يعني: كل شيء؟

-لا، كيف كل شيء؟ اسمع...وهذا النوع من الأناقة لا يصبح نموذجا حقا تحقيقا

- « حقا تحقيقا حقا » أفضل !

-بمعنى النمط أو البنية، إلا في إحدى الحالتين: الأولى، عندما يصير رداء دائما لصاحبه لا يفارقه في أية مناسبة ووقت، أي ولو زالت الوظيفة الأصلية أو تغيرت المناسبة الداعية إلى حمله.

الثانية: حينما يصبح، لسبب من الأسباب الكثيرة، لباسا نفسيا كاملا، أي معنويا خالصا، أي يلبس بدون ارتداء للبذلة الأصلية المرتبطة به والمحددة بـ، أو لـ، الوظيفة، أعني لما يصبح مجرد وظيفة مستقلة عن الزي أو، وهو نفسه، عندما يصير مجرد زي.

في الحالة الأخيرة يختلط بالقناع وفي الأولى يكون نمونجا مستقلا بذاته له بلاغته الخاصة: طغيان الرمز، الواقع المعنوي المستبطن، على الواقع الاجتماعي والنفسي المعيش...

-«واو، واو على الكلام، على التحليل الملموس للواقع الملموس في الوقت الملموس !»

-كمل، مالك، دخت؟

-يعني زوال القدرة على التمييز بين مختلف مكونات أو مستويات الاجتماعي والذاتي «ما يسميه العوني» بالتماهي مع الشكل أو الذوبان في

الخارج بحيث يصبح الكائن مجرد ظل، ظل البذلة التي تلبسه. الغيرلوس محل الذيتوس، بالتعبير العلمي الدقيق !

-جميل «الغيرلوس والذيتوس» جميل، والله !

-وهنا خاصية أخرى جديدة تميزه عن النوع الأول: بلاغة أو أناقة الوظيفة شكل من أشكال التماهي مع «خارج»، الغيرلوس، يصبح باطنا، الذيتوس طبعا، وأناقة القناع تماه مع«آخر»، «الهوسة»، يصير أنا، «ألغيرنا»، الأول يشكل «ذات الصورة» والثاني يجسد «صورة الذات»...

-أو العكس !

-في الأولى عندنا كائن صدى وفي الثانية كائن ظل. فهمت؟

-بكل تأكيد وكل شيء، تريد أن تتهمني بالغباء؟ إذن انتقلنا، الآن، بحمد الله وتوفيقه، من «القناع» أو«الظل» إلى«الصدى» ؟... تابع حفظك الله بدون الإكثار من المصطلحات العلمية اليونانية واللاتينية، تابع !

-وكيفما كانت، من هذه الناحية، أوجه التشابه بين هذه الذات وذاك الجوهر، على المستوى الفردي والجمعي، فإنهما لا يوجدان في وحدة وإنما في تضاد أو تصارع: كيف يمكن لجوهر خارجي وذات غريبة أن يلتقيا معا، من خلال تلك الوحدة المختلفة أو الصراع المتآلف البناء، في ذاتي الفعلية؟ وفي المجتمع؟ »

-هذه كشكلة، قل هي المشكلة الحقيقية، في هذا الموضوع الشائك، فما حلها حفظك الله؟

-... هناك إمكانية وحيدة، حسب العوني:«الأنقوسية، بمعنى الانتقال من خارج إلى خارج، من غربة إلى غربة، وبأقصى درجات العنف، من الصدى إلى الظل، أو العكس، من الرعب إلى الرعب، النفسي والاجتماعي، الأنقوسة هي أصغر وحدة انفصام أو تمزق » انتهى كلام الأستاذ العوني.

-الأمر أخطر مما يبدو عليه لأول وهلة، أخطر من أن يكون مجــرد شكل أو مظهر خارجي !

-هكذا يفسر«نظام الأناقة»، كما يشرحه ويبسطه طويلا البروفيســور جمال، جانبا من مظاهر العنف التي تسود في كثير من العلاقات بين الفــرد وذاته وبين الأفراد والجماعات عندنا، في الواقــع، ويخلــص إلــى أن هــذه الأشكال من«الأناقة» لا «تشكل ولا تعبر عن أي نوع من أنواع الســعادة أو الاحتفاء بالذات، وإنما هي ألوان مزيفة، تعبيرات مقنعة عن الشقاء والحــداد الغامض، سواء على المستوى الفردي أو الجماعي: أصداء وظــلال لأشــياء فارغة أو مكسرة !»

-آه ! آه ! باحث هذا أم ندابة؟ ادخل شويه للزين وارحمنا !

قال عادل مبتسما، شامتا كذلك، بعد أن فهم جانبا من«لعبــة» صــديقه مضيفا:

-وهذا بدوره، حفظك الله، لا ينطبق على زينب !

فخاف إبراهيم من أن يفسد عليه اللعبة كاملة بضربة مزاج:

-دعني أكمل من فضلك، دعني... !

-أكمل، حفظك الله، أكمل فسيكمل عليك العــوني، لا محالــة، لأنــك مازوخي وهو سادي ! من الزين إلى الحداد، آه !

-تخافون من الحقيقة دائما... من العلم، اسكت، تسكت تمامــا...أمــا النوع الثالث فهو«أناقة الخواء» أو«العري» !

-العري ! العري أناقة؟

-«حيث يظن المرء، أو الجماعة، أنه يلبس شيئا وهو عــار تمامــا أو يكاد، وهو يخص لباس البحر، وجميع ألبسة الاســتحمام والراحــة، ولبــاس الرياضيين كذلك، وجميع ما يجعل الحركة خفيفة ويترك الجسم غير مثقــل،

يتمتع بما يكفي من الحرية والتلقائية كألبسة النوم، كل ما يتعلق بمـــا نســـميه «ستر العورة»، وما نسميه « رداء الغواية » كما ترمز إليه ورقة التوت، كل ما حمل ليعري وليس ليستر، كل ما جعل ليوهم باللباس أو الستر، أي يعبـــر بواسطته صاحبه عن تحرره من «**غل الزي** » وعن اســتعداده الممنـــوع أو المكبوت في نفس الوقت، لمنح المتعة، لذاته ولغيره، عن طريـــق حركـــات خاصة أوفقط عن طريق السكون والاسترخاء.

–المكسي بالظل ومتاع الناس، السلف مثلا؟

–« فهم، بكل تأكيد، فلأتجاهل مصائده !»

–هذه، باختصار شديد، هي أناقة الخـــواء أو العـــري، أناقـــة الجســـد الفارغ، أو العاري، من ضغط اللباس وثقله. ولكنها ليست أناقة إيجابية دائما، على عكس ما قد يظهر للوهلة الأولى من شرحها، فهذا الصنف من الأناقة لا يعبر حقا عن ذات صاحبه إلا إذا خلا من المنفعـــة والغـــرض، بمعانيهمـــا الرخيصة، وكان بالفعل طلبا، ومنحا، للحرية والمتعة في ذاتها. بالطبع فـــإن الفنان المحترف للرقص، مثلا، ينبغي أن يعيل نفسه، مثلـــه فـــي هـــذا مثـــل محترف الرياضة، ولكنه إذ يرتدي بذلة الرقص أو الرياضة، ليتام فيها، مثلا، أو لمجرد المال والاستعراض، مع حقه الكامل في أن يحصل على ما يكفيـــه منه، فإنه يكون قد غير البذلة تماما، وبكل المعاني بما فيها المعنى الـــدارج، وقس على ذلك كل ما نفعله باجسادنا، ليل نهار، ونحن نحمل هذا النوع مـــن اللباس، خارج قيمتي الحرية والمتعة المتبادلة أو الشخصية، أي مـــن غيـــر أدنى شعور بإيجابية العري، أو الخواء من الثقل الثوبي، لذاته وبذاته لا تكسبا ولا تقليدا، ولا تسترا، إذ يحدث أن يخفى العري أثقل أنواع الكساء والهروب من الذات وأما شره فما خف وقصر من غير وعي ولا إرادة !

-ومن الناس، حفظك الله، من يرتدي أثقل اللباس وأغلاه وهو عـــار، والعكس صحيح ! أضاف عادل مشاركا في «اللعبة» !

-تماما !

أكد إبراهيم مرتاحا:« لقد بدأ يهدأ ويحسن اللعب !» فتابع عـــادل مـــن أجل مزيد من« التواطؤ»:

-ولعل من الممكن أن نوسع، هاهنا، مفهوم اللباس كذلك بحيث نجعلـــه يشمل كل ما يسعى الفرد أو الجماعة إلى أن «يستر » به نفسه مـــن غطـــاء ودور وذهب وفضة وبنين وعلاقات وسيارات، إضافة إلى الكفن والقبر.

-« و...فاهم، حفظك الله؟ »

-تماما، تماما، وهذا ما يفعله العوني ليظهر خفة الذات، ضآلة الـــنفس، وهي تحتمي بأثقله، وفقرها، وهي ترتدي أفخره، أو كثافتـــه، والمـــرء عـــار أويكاد !

-هذا العوني، حفظك الله، عفريت والسلام، لكـــن كلامـــه الرصـــين، بطبيعة الحال، والمراد، لا ينطبق على زينب !

-«الحال والمراد؟ ما علينا ! »

-أما بخصوص النوع الرابع من أنواع الأناقة فهو ما يســـميه «أناقـــة البساطة » !

-يعني انتقلنا، الآن، من القناع والظل والعري إلى اللباس؟

-«إلى اللباس؟ هذه لم أفكر فيها ! »

-شكرا، وهي « في الواقع، مزيج من الأصناف الثلاثة السابقة الذكر، تجمع بين العري والظل والصدى، فأنت تدرك، ولا شك، أن فـــي الأناقـــة، بسليم المعنى، شيء من الخفة أو الخواء أو الإشهار، أي قدر من الشـــفافية، كما فيها قدر من الوظيفة الاجتماعية، أو الرمزية، لأننا، بمعنى ما، وكما هو

معلوم لدى الجميع، نلبس للآخرين مثلما نلبس لأنفسنا، إذن من داخل نظام من العلامات المختلفة ولكن المحددة، ضمن«نسق الأناقة » إضافة إلى قدر من العري-التستر أو التخفي- الفضح أو الإعلان، أي من التقنع » !

-هذه العبارات غليظة جدا، مفرطة في«الأكاديمية » رقق !

-ولذلك فإن أرقى أنواع الأناقة هي هذه التي تجمع بشكل سليم، أي معبر حقا، بين مختلف أصناف الأناقة المذكورة، لا من خلال استعمالها جميعا متفرقة، كما في بعض المناسبات والأعياد، حيث ينتقل المرء من قناع إلى ظل أو عري، أو العكس تماما، وإنما عن طريق دمجها في نمط واحد هو هذا الذي نسميه «أناقة البساطة » ...

-تقصد، يعني العوني، بشكل توفيقي؟

-لا، فالشخص «الأنيق حقا، كما تعلم، أيها القارئ الكريم، لا يرتدي أغلظ اللباس وأثقله، ومثله لا تحس أمامه بأنه ظل أو صدى فارغ إذ يرتبط لديه القناع بدور محدود في الزمان والمكان، كأنه ممثل بارع يلعب الدور في وقته ومكانه ثم يتخلص من قناعه ليلعب دورا آخر مختلفا عنه، وبالتالي فإنه حر في جسده، تشعر أنه يمتع ويستمتع به في حرية وتلقائية ومرونة وشفافية، أنه إذن ذو شخصية، قوية ولطيفة، لينة وجذابة، أي خالية من الخشونة والرخاوة، من الخوف...من العنف ! »

-بهلوان إذن؟

-«أبدا، لباس البهلوان هو الأناقة معكوسة، أناقة التهكم، لون مازال ضعيفا أو بسيطا جدا عندنا، لهذا لا يهتم به العوني إلا عرضا في سياق حديثه عن اللباس والفرح ! » .

-وهذا نوع نادر جدا، كما يمكن أن أتصور، حفظك الله ورعاك للعلم والمعرفة، حكمه كحكم النادر أو الشاذ الغريب، أليس كذالك؟

سأل عادل مازحا ومستفزا !

-أناقة البساطة؟

-آه !

-أبدا، هو نادر في وقتنا، يقول العوني، ما في هذا شك، لكنه هو الذي ينبغي أن « يشكل القاعدة لأنه يعبر عن أعلى ما ينشده الإنسان، هو مثل الإنسان منذ ظهوره، صورته الحقيقية التي لا يكف عن طلبها والاقتراب منها دائما ! »

-للإنسان صورة واضحة بهذا الشكل؟

-«واضحة... أو غامضة، واعية أو... لاواعية، صورة الحسن والصدق، فقط ! »

-وهذا النوع كذلك حديث الظهور لأن عمره لا يزيد، في الغرب، عن قرنين، ولا، عندنا، على أكثر من أربعة عقود، في أحسن الأحوال، لأنه مرتبط بتطور كيف الحياة، من زاوية قيمة الإنسان ومكانته في الكون، من زاوية تقدم العلوم والاجتماع والاقتصاد، من جهة علاقة الإنسان بنفسه وبالعالم، إيجابيا... »

-وعلى ضوئه، حفظك الله، يمكن أن تصف لنا، وصفا دقيقا جدا، السيدة زينب الرنجي، أليس كذلك، وأنت تقول لي منتصرا: -«زينب أنيقة، هذا نوع أناقتها؟ »

-آه، ممكن الآن، ولكن مثل هذا الوصف لا يكون إلا تقريبيا !

-رغم استنجاذنا بعلم البروفيسور جمال العوني وفريقه العلمي الكبير؟

-قل: بفضله وبفضل فريقه العظيم، فلولاهما لتعذر علي، وعليك خاصة، أن تفهم هذه العبارة...

-أية عبارة؟

-زينب أنيقة أناقة البساطة !

-العكس تماما، لقد أفرغتها من كل معنى إذ حملتها على كلام العوني وحرمتني من أن أشبعها معنى من عندي، كل ما فعلته أنك أحللت العوني محلي !

-تقصد أني خلصتها منك، من خيالك الجاهز؟ أنني حررتها منكم لتكون لي وحدي؟ ومع هذا أرجو ألا تستعجلني وتعال نعد وصفها، الآن، من جديد !

-حرام عليك، والله ! بدأت لديك بعض صفات الشذوذ من جديد، من أين تأتي بكل هذه السادية، من العوني !

-لا، لن تسكتني هكذا، استمع، الآن، تسكت تماما: زينب الرنجي، نسبة إلى الرنجة أو الرنكة، أي إلى ذلك النوع من السمك الذي كان، كالشابل المرحوم، موجودا بكثرة في الصالحية، وكان يملح ويجفف ويحفظ ليؤكل مدخنا، زينب امرأة في السادسة والأربعين، امرأة أنيقة أناقة بسيطة، ذات بشرة قمحية تماما، تميل إلى الحمرة، شتاء، وإلى البياض، صيفا، وذات عينين واسعتين زرقاوين تضيئان جبهة صغيرة ينطلق منهما شعر أسود ناعم كثيف مسترسل حتى أسفل الكتفين، وتحت هاتين العينين، في هذا الوجه المثلث الشكل الصغير، وجنتان مدورتان يتوسط كل واحدة منهما حرف من حروف «الزين» المثيرة للنظر وكأنهما رسمتا لاستكمال قصر الأنف-العصفور وصغر ذاك الفم-الخاتم، لمؤانسة الذقن المحفور في وسطه، من الأسفل، حيث تنطلق حنجرة حادة كالخنجر تساعد الصدر الصغير على البروز الخفيف من المعطف الطويل المفتوح على القميص الحريري حيث يبدأ، عميقا ما بين النهدين اللطيفين والورك الممتلئ الحي، باطن عفيف، كأنه قاع تهوي إليه المفاتن، محمولا على سوار رفيعة تلطف بالتدريج إلى الأسفل

نحو الساقين والقدمين اللتين رقتا حتى صعب أن تقول هما من يحمل كل هذا العجب !

-الله، أستغفر الله !

-مالك، ألم تسمع من قبل قصيدة من قصائد الملحون؟... لذلك تظن أن هذه المرأة تلامس الأرض بالكاد كأنها، من خفة، تمشي سريعا، وهي واقفة، ومن ثقل، واقفة، وهي تجري، كأنها البرزخ بين الأرض والسماء !

-رقق شويه واحشم، الناس مخلطة والوقت صعب، شوف الناس، شوف القهوى، كلها ساكتة تسمع فيك، احشم، الله يلعنك، ألزنديق !

-الأحذية المتوسطة الكعب والحقائب الصغيرة التي توضع تحت الإبط الأيسر الذي يميل قليلا، إلى الأمام، ليكمل احتضان حقيبة اليد وما تحتويه من أسرار صغيرة شخصية جدا وتختلف بدورها، حسب الفصول: المشط والعطر والكحل والمناديل وكويس النقود والكتاب...وحده المعطف الفضفاض الأسود لا يغير من نونبر إلى مارس !

-ويحك، حفظك الله، من تكون؟

-هذه زينب التي يراها الناس، أربع مرات في اليوم، ذاهبة إلى العمل أو آتية منه !

-وهل هناك غيرها؟

-طبعا، وهي لا تزيد في هذه الأناقة أو تنقص منها إلا في إحدى حالتين: حالة تبدو من خلالها وكأنها تقول: انظروا، كم أنا في حاجة إليكم هذا اليوم أيضا، لست على ما يرام ! وحالة كأنها تقول فيها: أنا اليوم، هذه اللحظة، في قمة كرمي، مستعدة لكم ولي، بشكل تام للتبادل والمودة والإنسانية، فمن؟

-امرأة شفافة، بالفعل !

-لكنها زينب العمومية، هذه، زينب في العمل أو الشارع أو السوق، هناك كذلك زينب في البيت، زينب الخصوصية، هذه هي التي أريد أن أصف لك الآن...

-هاهي، آتية، أنظر !

-هي بالذات والصفات، تعرفها إذن ! ؟

-ليس مثلك، ولاحظ كيف اهتزت كل المقهى واشرأبت العنوق !

-شاهد الوجه، هل يبتسم؟

-لا، لاحظ الحريزي المسخوط كيف اختطف اليد ليقبلها، والعبدي؟من أين خرج ليحيها تحية عسكرية؟ والمقدم، ها المقدم يسير جنبها صاغرا كأنه مع القايد...

-هذه التي أصفها !

-يا أخي أنت لا تحبها، إنك تعبدها !

-تعال نراقب بقية المشهد عن قرب...

-يا أخي، حفظك الله، هذه زينب التي كنت تكتب عنها القصائد وتبعث بها إليها، إلى فرنسا، أليس كذالك، حفظك الله، قل؟

-تعال نقترب ودع الكلام، فليس الكلام، هاهنا، سوى مشاهدة للغياب عبر الحجاب، أما الحضور، وقل الحضرة، رجاء وتوسلا، هاهنا والآن، فهو سيد المقامات !

-وأنا تذكرت، أليست الذكرى مقاما كذلك للحضرة؟

-إذا احتفظت بأجمل ما فيها، لكن دعنا نراقب، أيها الثرثار دعنا نشاهد ونتواجد، دعنا ننغمس في الحضور !

-أنا ثرثار، ياك ألعوني الكذاب؟

-أنت جميل، طاغ، جبار، مليح سرمدي، أبدي، رائع، زين الزين أمولاي الزين !

–ويحك، إنك قد فقدت رشدك... الرنج هذا، الرهج، السم؛ قال لك الرنجة، الله يستر !

« الشكر، عموما وفي جميع الأحوال، أناقة ولياقة، وشكر النعمة وإعلانها خاصة أناقة فكرية، لا...أخلاقية، لا..روحية...لا...جمالية. الشكر كالتحية، كالإبتسامة، كالمحبة، كالمودة وكالحب، أناقة، جمال وجلال وإجلال، انتصار على الإحباط، مقاومة لكل وسائل التدمير والتصغير. لذلك يكف العقلاء عن الشكوى والتأفف: أسوأ سلوك يختاره الضعيف والمقهور! يتكلمون عن المشاكل، يفسرونها، يعالجونها، جماعات وفرادى، لكنهم لا يشتكون ولا يتذمرون وجلهم يشكر، يكثر من الشكر، وفي أغلب اللحظات، حتى على نصيبه من المشاكل:

نحمدك ونشكرك، يا ربي، لأنك أعطيتني هذا اليوم كسائر الأيام، ولكل واحد من أهلي، ما قدرت لي من المتاعب والصعوبات، ما يكفيني منها وما يغنيني ! ».

هذا دعاء أتيس الشكور، فطورا وعشاء، كما ألفه وتناقله أولاده وبناته عنه عبر مختلف الأجيال، والقرون، كنت تجده في كل بيت من بيوتهم وقد تتعرف على الواحد منهم من خلال التعرف على هذا الدعاء، تناقلوه، عبر القرون، والأجيال، كما سمعه الخلف عن السلف كاملا، بلا زيادة ولا نقصان، مدة طويلة، نقشوه على الجدران، وفي قلوبهم وعقولهم، أو تداولوه مكتوبا بخط مغربي رفيع، قبل أن يبدأوا في التصرف فيه، كل واحد حسب مزاجه وحاجته، وكان أصله بسيطا قصيرا:

«الشكر أناقة وشكر النعمة خاصة لياقة كالتحية كالإبتسامة كالمودة وشر الناس الذواقة العاقل الحكيم من تجنب الآه والأوف والأنين واستبدلها بالحمد والشكر والآمين في كل حين سر الفوز بالدنيا الابتسامة وسر النعمة

الحمد والاستقامة: نحمدك ونشكرك يارب العالمين لأنك أعطيتني هذا اليوم أيضا ولكل واحد من أهلي من كل شيء نصيبا وقدرت لي من المتاعب والصعوبات ما يكفيني منها وما يغنيني وعن متاعب الخلق كافة يلهيني ».

ولكن الأجيال المتلاحقة غيرت وبدلت فيه وبعضهم قد نسيه أو أهمله ولم نعد نجد منه سوى صورتين رائجتين:

الأولى غير الأصلية، وكما ذكرناها في البداية، في بيت الحاج محمد الرنجي، يسمونها «المزيدة والمنقحة »

أما الثانية، المذكورة أعلاه، فيقال بأنها الأصل الوحيد ولا توجد منها إلا نسخة واحدة في حوزة زينب الرنجي، التي تخلى لها عنها الحاج محمد مقابل ثلاثين فدانا ومائة رأس من الغنم، ويعتقد أنها تعويذة ضد البلوى والامتحان.

وكذلك كان آل الشكور«مصابين» دائما «ممتحنين» في المال والبنين وفي العافية والضمير، ولكن من الحامدين الشاكرين، من الصابرين والمقاومين...

ولقد غيروا هذا الاسم-التاريخ الطويل، مرات عديدة، قبل أن يستقروا فقط، منذ قرنين، على الرنجي، أو الرونجي في عهد الحماية الفرنسية. ولكنهم ظلوا معروفين دائما وأبدا بآل الشكور أو الصالحيه، نسبة إلى صالحة أتيس الشكور، أو صالحة بنت الخضير الخماس، فهما لم تكونا سوى امرأة واحدة كما هو معلوم ومتداول.

وقصة هذا النسب الصالحي لا تخلو من طرافة: كانت صالحة متزوجة، في السر، ولا أحد يعلم «لماذا في السر»، من ذلك الرجل الذي سمي حينا، المامون، والذي أشيع عنه أنه تزوج لفترة قصيرة، ولكن كافية لإنجاب بنت من إحدى جنيات البحر، إذ لم تكن هذه الجنية سوى صالحة

التي قيل إن ظهورها قد قل أثناءها، إضافة إلى وزنها الذي زاد عن المعتاد وبطنها الذي لم تنجح كل النجاح في إخفاء ما زاد منه واتسع:البنت التي عاد بها، والتي سماها زينب ثم الزاهية، بعد اختفائه، بنته من صالحه أتيس الشكور. وعلى كل حال فهذه ملامح البنت: «من يستطيع أن ينكر أنها ليست نسخة كاملة ووفية لصالحه غير النمامين والضالعين في الفسق والوشاية؟»

«والمامون، لماذا لم يغادر، منذئذ، الصالحية العليا، ولماذا كان يظهر مع صالحه، كظلها، في كل أوقات الشدة؟»

«ولنفرض، مع محترفي الطعن في الأعراض، أنها ليست من صلبها حقا، فمن ربى زينب، أليست صالحة، يا متشككة في أن الشمس دائما تطلع من الشرق؟ ».

«الشك نعمة، نور، لكن كثرته، إن كان في غير محله وصورته، ضلال وظلمة؛ تعاطف واحد، في محله، خير من مائة شك ودليل !»:

«يكفينا نسبا، وشرفا، أن زينب المامون، إن لم تكن بنت صالحة بالدم والولادة، فهي بنتها بالتبني، هي التي ربتها وعلمتها وحمتها من مكر الدنيا إلى أن أصبحت قادرة على مواجهة كيدها، ويكفينا فخرا أن لا أحد بإمكانه أن يتشكك في مشاركة زينب/ الزاهية، إلى جانب جدتنا صالحه الصالحة، في الجهاد ضد الانجليز وحماية الصالحة من الإبادة الشاملة وسوء التدبير والفساد، ومن شاء أن يطعن، في غير هذا، فليبحث عن أصله وليثبت، إذا وجد إلى ذلك أي سبيل، أن دمه صاف وخالص من كل شائبة: ألا تجد أن دعاة العرق الصافي هم الفاشيست والنازية أو الطائفية؟ طلب الصلاح والشرف ليس دائما من جهة الدم، وليس لله، يا مخدوع في ضميره وعقله، من أمر غير الشكر»...

وكما عدلت العائلة كنيتها، مرات عديدة، غيرت كذلك أسماء البنات تيمنا وترميما لتاريخها الخاص، «لكن هيهات: لا الكنية تغيرت حقا ولا تعديل أسماء البنات هربا من المصير، وأحيانا الذكور، أفاد في تغيير المصير ولا في شكل الشجرة والفروع الكثيرة، ظلت تأتي بنت واحدة بعد سبعة ذكور في كل فرع من الفروع»

ورغم تدخل الأطباء والاستنجاد بالمنجمين والسحرة وكل من ادعى معرفة الباطن والغيب، في لحظات اليأس الشديد أو الأمل الكبير، فإن آل الشكور، أو المامون، أو الرنجي، ظل قدرهم على ما هو عليه، منذ ظهور صالحه وصالحه إلى اليوم، وسيظلون، معدودين، عند الناس، من أهل الشكر والأناقة والصلاح والتقوى، وعند أنفسهم، من أصحاب المآسي والمحنة والاختيار، أهل الكرم والبذل وأصحاب الشدة، خاصة البنات فيهم: مهيآت للمجد والشقاء، للعز والوحدة كآلهة القدامى !

والأقرب من هذا، ولو بصيغ مختلفة، وضع الرجال: ستة« يغرقون» يهلكون، في جمع المال أو العمل الزائد عن الحد وفي «طلب المجد»، بحيث لا يمكنهم أن يهتموا بغير هذا الأمر، ولهم دائما وأبدا، في الولد، واحد، يسمونه «الصدقة» أو«الزكاة» أو«المنحة » أو«التميمة» يكون نوعا من الضحية أو كبش الفداء أو «العقوبة»، على حد قولهم، يختلفون دائما في أمر اثنين من أولادهم: من من هذين «الزكاة؟ ».

هو، في الغالب الأعم، الولد السادس أو الثامن الذي يأتي إلى الدنيا، قبل أو بعد البنت الوحيدة، السابعة، ليكون من القراصنة أو قطاع الطرق أو «الشعراء الصعاليك» أو من «المجاذيب»، الذي لا يتزوج، عادة، ولا يكون منه «خير يذكر ولا ولد ذكر». رفيق الأشرار والمختلين والفاشلين وأصحاب العاهات و«المدمنين، شرير في البيت وأكثر شرا في الخارج »

و«نسي بالمرة ذلك الدعاء أو أهمله أو أنكره، لا يحمد ولا يشكر، ليس بذي أناقة ولا لياقة، ذواقة، لياغة ومِلياع، هالج وهلوع، هلاع وهــلاب» ! وفــي هذا الوقت، أي في هذا الوقت من التسعينات، يعرف هذا الولـــد «العقوبـــة» باسم «سفاح البحر» كما يعرف باسم «كلب الشيطان» أو«الخنزير» الـــذي يشغل بال الكوخو، وبقية الناس من حوله، أكثر ممـــا يشـــغل بـــال المقـــدم والأمن، لأنه «لا يحب أن يوجد، في دائرته قوي، ولو جســـديا، كـــالكوخو، والكوخو يعلم ذلك كل العلم... »

أما الغارقون حاليا، في المـــال والولـــد والمجـــد، مـــن آل الشـــكور والصالحيه، المعروفين اليوم باسم الرنجي، فإنهم من كبـــار التجـــار، فـــي الحلال والحرام، والمنعشين العقاريين وأرباب الصناعة والعمل والمشـــتغلين بالفلاحة والتصدير، «يشتغلون في كل هذه الأشياء مجتمعة ولا ينسون شـــيئا من السياسة والعلاقات السمينة، بطبيعة الحال... »

لدى كل واحد من هؤلاء الستة بنت: ست بنات، في المجمـــوع لـــدى الأسرة، منهن واحدة «غير معروفة النسب»، هي ابنة زكي، أصغرهن فـــي التاسعة، اسمها صالحة، وأكبرهن في الواحدة والعشرين، اسمها عبلة، لكنهن جميعا مصدر رعب للعائلة، محط انتظار كما تنتظر قنبلة موقوتة أو كارثـــة وشيكة، كما ينتظر ووصول الذكور إلى سن «كلب الشيطان»، أي الأربعين، لمعرفة ما سيكونون عليه من مصير... هؤلاء البنات فـــي منتهـــى اللطـــف والأناقة والرقة والطيبة دائما، ومع ذلك رعب منتظر، موقـــوف: «الرعـــب المتوارث المخيف، كداء خبيث، لا تعرف متى يظهـــر ولا كيـــف تتقيـــه أو تهرب، رعب أكيد، وشيك، ولكن أين هو، من يحمله من هؤلاء الرائعـــات، متى، كيف يظهر وما مداه المحتمل؟ ! » غير أن زينب، المـــرأة «الأنيقـــة أناقة البساطة »، والتي تتحدث الصحف الكثيرة في البلد، وكـــذلك « راديـــو

المدينة»، عن احتمال تعيينها وزيرة، قد منحت عائلة الرنجي العريقة، نيابة عن بقية الإناث، وطيلة أزيد من خمس وعشرين سنة، ما يكفيها، من الرعب، لتظل «متماسكة مستقرة » ومن خلال «الامتحان والبلوى» !

كذلك يفعل «الخنزير»، الآن، نيابة عن الذكور، يمنح «العائلة الكريمة»، وفي انتظار الباقي، أي أسماء أخرى من الأجيال الصاعدة، ما يكفيها من الرعب ومشاعر السخط والعار...

«ويحدث في بعض العائلات ما يحدث لبعض الأشخاص، فيما يتعلق بالإحساس بالذل أو الإهانة: جزء منه يخون الباقي ويهلكه، بعضه يضعف بعضه، فهيهات أن يستقيم المجموع ويكتمل كما نريد ونتمنى، ولو تماسك والتم ! »؛ حتى في هذه العائلات من يسرق للحاجة ومن يغتصب بسبب الكبت والحرمان ويعنف على نفسه كما يعنف بالناس مللا وإهانة !

مات سعيد الرنجي مع الاستقلال وخلفه ابنه الأكبر محمد في رئاسة العائلة. كان محمد أقصى وأشد على إخوته، في التربية والرعاية، من أبيه، فظا غليظ القلب واللسان «لما فيه خيرهم والأمان»، خاصة لما توفيت الوالدة أياما معدودة بعد وفاة الأب: منع على الجميع مصروف الجيب، على البنات الخروج لغير المدارس وعلى الذكور التواجد خارج قاعات الدرس والمخازن !

-«صرف الوقت في الدراسة والعمل صيانة للخلق وليس يفسد الشباب إلا الفراغ ! » يتباهى محمد أمام زملائه الذين كانوا يعانون، جميعهم، من انحراف أبنائهم وبناتهم، وفي بعض الأحيان، نسائهم على كبر أو هرم...

«الملل والحشيش والخمر والفنيد وقلة الشكر أو سوء الحمد أو السكينة وأما كثرة حديثه عن الخلق فحقيقة أخرى يراد بها باطل من طرفه على عادته !»

-«الريال الذي لا يكسبه المرء بالكد يفسده !»

يضيف مشيرا إلى نفسه: كان عليه أن يعمل، طوال كل الوقت الفائض من المدرسة، مع والده بدون أن يمنحه الوالد ظل درهم وكان إذا أراد شـيئا يجتهد في القيام بما يجعله يكسبه خارج المخـازن، تجـارة صـغيرة، مـن تجارات الأطفال، أو سخرة هزيلة، فصار يحسب البصـقة ريـالا والظـل فزاعة ! هكذا تربى سعيد الرنجي وهكذا ربى أبناءه، وعلى رأسـهم محمـد الرنجي الحاج، وهكذا سار محمد على سيرة أبيه، في معاملة إخوته وأبنائه:

«يبدو بعض أولياء الأمور في حالة انتقام مستمر من العالم كلـه ! وللسـبب ذاته تتفتت بنيات عتيقة أو تتناسل ! »

وما يحدث في أسر كثيرة حدث بسرعة لدى آل الرنجي:

-«نقتسم مال أبينا، حسب الشرع والقانون، ويروح كل واحد إلى سبيله محتفظا بالمودة ! »

ما طبق الشرع ولا القانون ولا سادت المـودة وإنمـا تحولـوا إلـى «وحوش كاسرة» يأكل القوي منهم الضعيف وافترقوا كما يفترق ألد الأعداء التاريخيين، مازالت الخصومة جارية بينهم إلى الآن رغم مرور أكثـر مـن خمس وعشرين سنة ولم يختلفوا عن مثيلاتهم من الأسـر والعـائلات فـي الدنيا، ساعة الإرث، إلا في شيء وحد: لم يستطع الرجال أن يلتهموا حـق النساء كاملا، أي حق المرأة الوحيدة المشاركة لهم في الورث: زينب !

وكما جرت العادة، في مثل هذه الأمور، فإن أبناء مثل هذه الأسـرة لا يحتاجون إلى وقت أطول لتبديد هذه الثروة أو مضـاعفتها: محمـد وكـريم وقاسم من أكبر أغنياء البلد، الصادق مات مخمورا في إسبانيا، زكي يتسـول في شوارع المدينة والقمل يتساقط من جسده أكواما بينما الهـادي، «سـفاح البحر» الخطير، يزرع الرعب في الجميع وعلى رأس الجميع إخوتـه، مـا عدا زينب، والله أعلم !

كان من نصيب «كلب الشيطان»، من جملة ما كان من نصيبه من الإرث الكبير، «بيت الشاطئ»، «برج النوارس» جنوب المدينة، فأقام فيه، بعد أن جمع حوله كل مشردي الدنيا ومنحرفيها، فلما بدد كل ثروته أصبح رئيس عصابة تعرف باسم «عصابة سفاح البحر» لا أحد، غير الأمن ربما، يعرف أين توجد بالضبط لأنها تضرب على طول المحيط الأطلسي وإن كانت تضرب أكثر في ما يسمى«البلد النافع»، وإن كان الكل في هذه المدينة يعلم أن مقر إقامته الدائمة «برج النوارس» !

أما زينب، التي يشاع عنها، منذ أيام، ترشيحها لمنصب وزيرة مهمة وخطيرة، فإنها بمجرد حصولها على حظها من الميراث حزمت حقائبها ورحلت إلى أوروبا ابتداء من يوليو 1973 لدراسة الفن «ولكي أفهم شيئا مما يجري في هذه الدنيا العريضة العتيقة الغابة !»

قضت أياما، شهرين بالضبط، متنقلة بين مدن برشلونة ومدريد ولشبونة وكويمبره قبل أن تتوجه إلى باريس. كانت «حركات التحرر والانعتاق» على أشدها، آنذاك، فانخرطت فيها وزارت جل بلدان أمريكا اللاتينية كما ذهبت إلى أغلب دول أوربا الشرقية، ساهمت في تمديد السكة الحديدية بألبانيا وحملات إيصال الدعم إلى كوبا والفيتنام كما شاركت في الثورة الثقافية الصينية وتدربت على السلاح مع الفلسطينيين وأقامت باليمن الجنوبية وإريتريا وظفار...خمسا وعشرين سنة لم تجد فيها ما يكفي من الوقت للدراسة اللهم إلا بعض السويعات التي حضرت خلالها القليل من دروس فوكو وألتوسير !

وكثر العائدون إلى الوطن من رفاقها، «كما كثرت الهزائم والخيانات وخيبات الأمل والإحباط»، فعادت بدورها إلى البلد. استردت بصعوبة كبيرة ما تبقى لديها من دين عند أخيها محمد: ثلاثين مليون سنتيما، اشترت من

محمد شقيقة، غرفة وحمام وما يشبه المطبخ، بعشرين مليون ثم ابتاعت بعض الأثاث وعاشت بالقليل الباقي على الضرورة مترددة بين استئناف الحياة، التي بدت لها صعبة جدا، في البلد، الذي «ظهر لي متغيرا بشكل مخيف لا أتبين فيه الإيجابي من السلبي، المصير الواضح !» وبين الحنين إلى الهجرة من جديد إلى أوربا، التي بدت لها بلا هدف هذه المرة «لم يعد هناك لا علم نطلبه ولا طوبى تسحرنا وتجمعنا، حتى المثقفون هزلوا، القضايا صغرت، فهنيئا للإخوة في أمريكا !»...

شيء واحد ظهر لها مبررا للبقاء في الوطن: «حركة المرأة التي ازدادت قوة ونشاطا رغم كل النقائص والمبالغات والأخطاء، وكذلك بعض جمعيات حقوق الإنسان بينما غيْرَ ذلك، «كل ما غير ذلك»، فقد أصبح في تقهقر ملحوظ أو أفلس، الأحزاب والنقابات والجرائد، كم لا يقابله كيف يذكر حقا، في حاجة إلى إعادة نظر شاملة، من التصور والوظائف إلى الستراتيجية؛ طبعا العالم تغير، لم يعد هناك جاهز أو سهل، من قبل كان يكفي أن تؤسس جمعية، في السر أو في العلن، وتقول: أنا من هذا المعسكر أو من ذاك، بساطة العالم اليوم خادعة ! »

شيء من حقوق الإنسان، ما في هذا شك، ولكن !

اعترضت على «السيدة الوقور» التي كانت تمدح التحولات التي يعرفها البلد والتي تابعت مع ذلك:

-ونحمد الله على الاستقرار الذي ننعم به !

فقالت لها:

-على الدولة الحديثة القوية، ما في هذا شك، وعلى ما ينعم به أمثالكم من ثراء وبذخ عظيم، الحمد لله !

وازدادت «المرأة الوقور»، رئيسة جمعية «إيواء الطفل المشرد» رقة:

-نتكافل ونتضامن ضد الحاجة إلى أن نقضي عليها، نحـن وطنيـون والحمد لله، ومسلمون، بلدنا دائما في قلب العين !

ولم ترد أن تجرح هذا الشعور الطيب عند هذه المرأة الوقور بأن تقول لها:

-«إنك تشترين الجنة، تكفرين عن نفسك وعن أهلك»

-فقالت لها:

-كل شيء ينفع، حتى الصدقة، بارك الله في أمثالك، على كـل حـال، وأنا، في العمق، مترددة ودائخة: ألا يكون رجوعي إلى قضية المرأة، التـي تبدو، اليوم، ذات حضور متميز ورغم ما يوجه إليها مـن انتقـاد، تكريسـا لهزيمتي الشخصية، اختصارا آخر للعالم، مجرد تذييت أو تأنيث للدنيا !؟

ابتسمت «السيدة الوقور» ابتسامة لم تظهر لأن شـجنا عميقـا كسـا عينيها:

-نستسلم ونجمع أيدينا، قالت وكأنها، بالفعل تكفر، تعتذر، عن هزيمة !

بعد يومين جاءت المرأة الوقور تسأل عنها في البيت لتقتـرح عليهـا عملا في وزارة الشؤون الثقافية:

-الوزيرة صديقة، في حاجة إلى مثلك في ديوانها، ونحن، بقبولك لهـذا العمل، نقدم إليها هدية لم تكن تحلم بها بالمرة... اقبلي، هـو شـغل، كـأي شغل، والسلام !

-«يا ربي، هو شغل، كأي شغل، والسلام !»

وترددت طويلا:

-«نهايتي هذه أم البداية، شغل بوساطة، انخرطت؟»

ثم قبلت، خوفا من أن تضطر إلى «مد اليد إلى محمد الرنجي»، وهي تشعر بأن شيئا آخر قد انهد، بأنها قد انخرطت في حالة حداد خاص أو عام:

-«كل يوم تموت مني جزيئة، كأنني أستسلم بالتدريج !»

لكنها لم تردد في الرفض عندما طلبت منها المرأة الوقور أن تنضم إلى جمعية «إيواء الطفل المشرد»:

-آسفة جدا...عمل لا أتقنه !

لم تفهم «السيدة الوقور» في أول الأمر:

-تتدربين مثلنا عليه، نحن بدورنا لم نكن نعرفه !

فقاطعتها زينب:

-ولا يمكنني أن أتدرب عليه !

أضافت السيدة الوقور بائسة:

-دوماج !

ولكن زينب عرفت كيف تحتفظ بها «صديقة»، كما أن «السيدة الوقور» ظلت متمسكة بها وكأنها لم «تصدمها» أكثر من مرة، كأنها تفهم كل ما يؤرقها؛ لكل منهما «خبرة» وتربية عريقة تعرف «كيف تقدر مثل هذه الأمور»، لقد علمتها خبرتها الطويلة في العمل الصعب والخطير أن من بين نساء «الأرستقراطية والأغنياء الجدد» من تنفع بشكل حاسم في حل الكثير من المشاكل الآنية للمرأة، للرجال أيضا: أليست تلك الأرستقراطية المصرية هي التي أنقذتها بأعجوبة، لا تتعدى مكالمة هاتفية، هي ورفيقها الشيلي، من قبضة الأمن الإسباني زمن فرنكو؟ وقبل ذلك، أليست امرأة أحد الأغنياء الجدد بالبلد هي التي حالت دون أن يغتالها أخوها محمد الرنجي لما «سمع» بأنها تعمل «ضد البلد» ،هناك في الخارج، وبأن «الأمن يبحث عنها»؟

-أيام... أيام الرعب التي كان من الممكن خلالها أن تباع بوشاية، مجرد وشاية أو تهلك بحيازة كتاب أو منشور صغير ملئ بالحلم كالقصيدة !»

وبالفعل فإنها لما قررت تأسيس جمعية «مناهضة العنف» وجدت الدعم والمساندة لدى هؤلاء «البورجوازيات» أكثر مما وجدته عند أولئك «الشعبيات»، خاصة «المتحزبات» من هؤلاء الأخريات «الرفيقات والأخوات»، فإن من هؤلاء من لم يكتفين بالتشكك والتحسيس باللاجدوى، بل حاربن الفكرة وطعن في مثالية «اليسارية المزمنة» لدى صاحبتها وفي «الأهداف الخفية» لامرأة لم تجد في كل هذا العدد الكبير من الجمعيات والأحزاب مكانا يناسب «تطلعاتها السياسية» والإنسانية !

في هذا «النقد» جانب لم تكن تخفى عليها صحته: لقد أرادت أن تخرج إلى «الحياة من جديد، من هذه العزلة ومن هذه الخيبة، من بياض جدران الوزارة»، فكرت في الانضمام إلى أية جمعية تهتم بالمجتمع، بالمرأة على الخصوص، ولكنها دائما، ومع كل قرار، كانت تشعر بشيء من «عدم الرضى، من التوبيخ، من دقات الضمير، كأن شيئا ما ينبغي أن يعاد أو يزال لا تقدر لا على إعادته ولا على إزالته !»

«أحس، في كل مرة أتخذ خلالها قرار الانخراط في حزب أو جمعية أو تجمع، من هذه الجمعيات والأحزاب، أني سأعود أكثر من عشرين سنة إلى الوراء، إلى ما قبل ذهابي إلى أوربا والعالم، كأني أبدأ من حيث بدأت قبل أزيد من عقدين، وبالتالي كأني لم أفكر ولم أنتقد يوما، كأني لم أعش ولم أعرف هذه الدنيا، حوالي نصف عمري ضائع، كله !»

-ولكنها تغيرت، والحمد لله، والبلد كله يتغير !

ترد «السيدة الوقور»، مواساية كأم أو أخت، فتحاول زينب أن تطلعها على بعض سريرتها:

-ولكني انتقدتها أزيد من عشرين سنة، وربما كان هذا التغير كذلك مشكلة، عائقا، بالنسبة لي، سياسي أو نفسي فقط...اللون أيضا تبدل...ربما، عندي مشكلة مع اللون !

وتقول «السيدة الوقور»، بما يشبه حسن التخلص:

-أنا عاجبني لون لباسك، غزال... الله يعطيك الصحة !

- «من قال لي: تصالحنا مع كل شيء، إلا مع أنفسنا، إلا مع ذاكرتنا، أيضا وربما ذاكرة البلد؟»

-شعورك الحاد بازدياد العنف من حولنا قد يكون بفعل الزمن، إني لا أنكره !

-من داخلي، إحباطا وقلقا؟ ممكن، لم أعد أستثني شيئا !

في أول يوم دراسي نظمته الجمعية حول «مفهوم العنف» أثار اهتمامها، بصفة خاصة، عرض الأستاذ حميد الدوفري: «العنف المعيار» .لقد قسم عرضه إلى أربعة محاور:

1-تعريف: العنف رداءة في الموقف، في سياسة الموقف.

2-أسباب العنف من حيث هو ظاهرة اجتماعية: القهر-الجهل-الخوف

3-العنف ظاهرة فكرية: الحاجة إلى الموقف في غياب الموقف.

4-العنف ليس عامل، ولا نتيجة، إقصاء بل تشتيت.

خلاصة: العنف قصور، عجز، فراغ في الذات وفي المجتمع أيضا، وكيفما كان دوره، كمولد للتاريخ، فإنه ينتهي كما يبدأ دائما وأبدا، أي بالعنف دائما، كما يبدأ بالرعب ينتهي بالرعب، بالحالة الداعية إليه والدعوة إليها طبعا، بسببه ذاته !

لم تكن موافقة على كل كلام المتدخل، إذ كان بعضه بدافع التميز، والكثير منه للإبهار، ومنه ما كان أقرب إلى «الشعر»، ولكن أعجبتها فيه فكرتان «عاديتان»، صورتان:

الأولى أن العنف، من منظور جمالي، تقريبا، رداءة في سياسة الموقف العام، الموقف الشامل، أي الموقف الناظم للعلاقات بين الأفراد والجماعات في مجتمع معين وفي فترة من تاريخ هذا المجتمع، أي، ومن باب التقريب أو التشابه، ما يسمى في أدبيات أخرى «مشروع المجتمع» منظورا إليه من زاوية أخلاقية أو «نفعية»، وليس من الناحية الجمالية !

الثانية، ولأن أسبابه الموضوعية هي القهر والفقر والخوف، فإن العنف فراغ أو عدم، أي ملء، أو تعويض، للعجز والقصور والخواء، لذات لم تعد تستطيع تحمل خوائها، أو إخواءها بواسطة القهر أو الجهل أو الخوف الشديد، وهي بهذا تمارس العنف لتدعو إلى العنف ضد نفسها، العنف الذي يخلصها من ذاتها المفرغة أو مما يشعرها بالفراغ، الآخر، المصدر الموضوعي، أو المستبطن، للقهر أو الجهل أو الخوف، خارجة بذلك عن معيار العنف المطلوب، الذي يردع أو ينبه الموقف العام في كل المجتمعات الكبرى المتوازنة، ولدى الأفراد كذلك، دون أن يحول الشعور العادي، أو الطارئ، بالخواء إلى إحساس كابوسي بالعدم !

- «وهكذا يكون العنف، ومن أي مصدر جاء، أداة لتشتيت الموقف العام الذي هو غير الإجماع، بالطبع، بداهة !»

والواقع أن ما أعجبها حقا في هذا العرض، ومن جهة «عملية» لأنها تحب أن تصف نفسها بـ «امرأة الموقف العملي» ربما، هو بساطة البرنامج الذي يتضمنه تلميحا: «حتمية إعادة صياغة الموقف العام، من جهة، والتصدي لظواهر القهر، من جهة أخرى، بكل أشكالها المادية والمعنوية،

الجهل، وعلى رأسه الأمية بجميع صورها، الخوف، في صيغ الرعب والهلع واللهسة، الذي يسيطر على الفقراء والأغنياء، على السواء بألوان متباينة صارخة، متصارعة»:

-هذه الخطوط الكبرى لعمل جمعيتنا !

قالت وهي تختم هذه الجلسة موهمة بأنها تلخص بينما كانت تعيد صياغة التدخلات بما يوافق توجه الجمعية وعلى مائدة العشاء، والحديث حر ومتقطع حول هذا «اليوم الدراسي الناجح»، سئلت عما لم تتطرق إليه المداخلات فأجابت أمام دهشة الجميع:

-لون المرحلة !

ولم تتردد مدام المسكي، السيدة الوقور، هذه المرة في استجلاء هذا اللون الذي صار يحيرها:

-لقد استفدنا كثيرا من عروض السيدات الأستاذات والسادة الأساتذة الأجلاء، فلا تضيعي علينا فرصة استكمال الفائدة هذه المرة، أيضا !

قالت زينب محاولة توسيع ابتسامة رشيقة على ثغرها:

-هي عادة سيئة، تعلمتها لاختصار النظريات والمراحل: ساد عندنا، طيلة ما يقرب من أربعين سنة، لونان، الأصفر والأحمر، وكنت ترى أحدهما واضحا، دائما، على جميع الوجوه، واليوم لم أعد أرى سوى لون واحد وفريد يغمر الوجوه، جميع الوجوه: الشحوب !

وتأملت وجه مدام المسكي، الذي اخضر، ثم وجه النادل الذي يرتب الصحون فوق المائدة، الذي ازداد شحوبا، ثم وجه الأستاذ الدوفري الذي أحس بالحرج أكثر من غيره، وهو يحمر، فقال:

-الثابت عندنا كذلك أن الكثير من العنف عادة !

ولم تفهم زينب إن كان يقصدها شخصيا، لأنها كانـــت معروفـــة فـــي تدخلاتها بنوع من الحماس الذي لم يكن يخلو من عنــف، أم كـــان لا يـــزال يتحدث عن المجتمع، متابعا بذلك تفكيره في الإشكال الذي طرحه عليهم فـــي المداخلة التي قدم إليهم خطوطها العريضة في الندوة، فبادرت إلى حسم جـــو التوتر الذي خيم حول المائدة قائلة بنبرة اعتذار واضحة:

-هذا صحيح تماما، أما...أما أنا فكنت أمزح فقط !

لكنها، قبل ذلك، وهي تتأمل الوجوه، كانت قد تساءلت:

- «هل أنا مخطئة إلى هذا الحد؟ كيف أسمح لنفسي اليـــوم أن تقبـــل الاعتذار عن مشاعرها ولو كانت خاطئة، ولو من باب إعادة الترتيب؟ »

القـــرش

في الفيلا، التي التي أصبحت برجا، «برج النوارس»، ثم خرابا، علـــى بعد حوالي ثلاثة كيلومترات من باب الجنوب، في اتجاه «شاطىء الصـــنوبر»، يزعم البعض أن الخنزير يقيم، من حين لآخر، وأحيانا بشكل دائم، لكنـــك لا تستطيع أن تعثر له على أثر، خاصة إذا كنت من أصحاب الحكومة أو مـــن أعدائه الكثيرين جدا، لأنه، في الواقع، لا يقيم في هذه الفيلا بالذات وإنما فـــي النفق الطويل العريض الذي كان يربط، في عهد المرحومتين الصالحتين، بين مأوى هاتين المرأتين، في المغارة السرية، على رأس الهضبة، وبين الشاطئ والميناء: «نفق طوله سبعة كيلومترات وعرضه ثمانون مترا وارتفاعه، فـــي ذلك الزمن البعيد جدا، لا يقل عن ثلاثة أمتار، نفق اشتغل في حفره مئـــات، بل آلاف، من المغرر بهم، من ضحايا الأسر والفتنـــة والســـحر، مســـلمين ونصارى ويهودا، من العبيد والسادة والمجرمين والهاربين من خيال الواقـــع إلى واقع الخيال، من المتطوعين والمغلوبين على أمرهم، نفق لم يعرف لـــه أحد، في الواقع، علوا ولا طولا ولا عرضا إلا توهما أو تقديرا ولقـــد زعـــم نصراني، نجا من الأسر بأعجوبة، أنه كان يتسع ويضـــيق، كمـــا يطـــول أو يقصر، بإرادة تلك المرأة التي دوخت أهل ذلك الزمان، كان يكفيها أن تقول:

-وسعي، أو طولي، يا صالحة !

فيتسع النفق أو يطول، مثلما كان يكفيها أن تقول:

-افتحي، أو أغلقي، يا صالحة !

فيفتح النفق أو يغلق كأن على مدخله مارد من الجان !

...

«كذاب، ألف كذاب، من يدعي معرفة تامة بهذا النفق الذي تعاون على تخطيطه وبنائه الإنس والجان، لم يعرف أحد بسره إلى الآن إلا اثنان من آل الشكور !»

كان «كلب الشيطان» يحب أن يأتي وحيدا، «كالكلب المطرود من العرس»، إلى هذه الفيلا الخربة ليصطاد في غيرانها بعض الأسماك ثم صار يأتي إليها، دائما وحيدا، ليفكر في التاريخ السحري لجدته صالحة الكبرى، في الأساطير الغريبة والعجائب الكثيرة التي كانت تروى عنها. وذات يوم، وهو في السادسة والثلاثين من عمره، الذي قضاه بين المدرسة ورياضة الكراطي والعمل بالمجان في مؤسسات العائلة، غفا على ظهر بقية جدار فإذا بصالحة تخرج إليه، في غفوته تلك، فتوبخه على ما كان يفعله بحياته الفارغة وما يحسه فيها من ملل وحيرة وعدم استقلال ثم تسلمه كتابا وتأمره بقراءته لمعرفة ما كان يطرحه على نفسه من الأسئلة حول عجائب الأخبار المتعلقة بها، بالعائلة وبنفسه الملول المريضة !

-أين الكتاب، أيكون سقط في الماء؟

ظل يغطس ويغطس ثم يغطس ولا أثر للكتاب !

-«كفاية الصديق من النسب العتيق. آل الشكور الدهكون وآل صالحة الكبرى والمامون»، عنوانه، بكل تأكيد، هذا عنوانه، ولكن أين سقط وأنا نائم؟ أيكون جره التيار؟ لقد كان مغلفا بجلد سميك، بشكل محكم السد يستحيل معه أن يفسده الماء ! فأين يكون ذهب الكتاب؟

وتبع التيار، ظل يسبح، يقاوم عنف الماء الهادر الملتوي، ثوان عديدة بل ساعات! فجأة وجد نفسه يدور، يدور، يدور حتى أحس بأنه سيفقد الوعي تماما، بأنه سيسلم ذاته لعنف الماء، وكذلك فعل بعد دقائق معدودة. إلا أنه

استيقظ، بعد وقت لم يقدر على تقديره، فوجد نفسه ممسكا بخرسة باب، باب من النحاس السميك لم يأكله لا الماء ولا الطحالب: كيف يفتحه؟

-ينبغي أن أفتحه وإلا فإني هالك !

واستطاع، وكأنه يحلم، أن يهتدي إلى سره:

-افتحي، يا صالحة، أنا حفيدك !

ففتح الباب ودخل إلى الممر الطويل العريض الذي أخذ يصعد به نحو أعلى الهضبة إلى أن وصل إلى القمة حيث وجد بابا آخر يبدو وكأنه من تراب:

-افتحي، يا صالحة، أنا حفيدك !

غير ان الباب لم يفتح هذه المرة ! ظل ينادي أن افتحي يا صالحة بدون جدوى، إلى أن أحس بجسده ينهار فتداعى معه. لما عاد إلى وعيه كان ضوء خفيف وسكون كثيف يغمران المكان. تذكر كل ما جرى له:

-ولكن أين الكتاب؟

اكتشف أن ضوءا آخر ينبعث من على يمينه: غرفة واسعة بها سريران مرتبان بعناية وذوق رفيع كأن من نام فيهما البارحة يخاف أن يترك عليهما شيئا من ظله، خلف كل سرير خزانة كبيرة للملابس، ملأى بكل أصناف الثياب والأحذية، يقابلهما، على الجدار الآخر، مرآة عظيمة تغطي كل الحائط، بين السريرين صندوق من خشب العرعار المقوى بالنحاس والفضة:

-صندوق المجوهرات، كنز جدتي !

وحين فتح الصندوق، وهو يرتعش ويتصبب عرقا، وجد فيه صندوقا أصغر، من فضة خالصة، لم ينجح في فتحه إلا بعد ساعات:

- «كفاية الصديق من النسب العتيق. آل الشكور الدهكون وآل صالحه الكبرى والمامون» !

لم يكن في هذا الصنيديق غير هذا الكتيب !

-وهذا الكاتب من يكون؟

- «أبو جادة الرندي!؟»

في الصفحة الأخيرة «تعريف بالمؤلف»:

«أنا أبو جادة القرصان، الرندي المولد، بالأندلس العامرة بالذكريات والحنين والأهل، الصالحي الإقامة والأصل، جدتي صالحه الصالحة، طيب الله ثراها وجعل من ذكرها موعظة طيبة لمن دعاها وقدوة نافعة وبركة لمن بكاها أو وافاها، أبي المامون الأمين، المعدن الثمين، أمن الكريم العظيم الجلال مقعده في الجنة وجعل له حسنة وثوابا من كل محنة، طفت كل بحار الدنيا أغير على الظالمين والطامعين في العرض والجاه، لا أطلب من الغفور سوى رضاه، سلبت ما تيسر من الأعداء الضالين والمجرمين والكفار الأوزعة، بإلهام من الله تعالى وقدوة بأبي وأمي، غفر الله لهما ولي، على الفقراء والمعوزين من يني قومي المقهورين آملا أن ينتفعا، وأنا، بأجره وبالحلال الطيب منه، يا رب، آمين يا رب العالمين. وقد التجأت إلى هذا المسكن الكريم لما وهن العظم مني وشعرت بقرب أجلي، وأنا للقاء على سرعة وعجل، فهداني ربي الهادي الكريم ذي الجاه والفضل العظيم، أحمده وأشكره وأتوب إليه وأستغفره، إلى تحرير هذا الكتيب في ذكر نسب ومناقب أهلي لعل من يطلع عليه، إن شاء علام الغيوب، يهتدي بسره ويذكرنا بما نوينا وتوكلنا على الله في فعله، لما قدرناه فيه من خير ومنفعة لا نريد من ورائها ولا نطلب سوى رضى الخالق وأجره لعله يقبلنا، إذا يوم القيامة، إلى

جانب نبيه، صلى الله عليه وسلم، والصالحين من التابعين وأهل الخير والمحبة...»

وظل يقرأ الكتيب ويعيد القراءة إلى أن حفظه عن ظهر قلب وهو يسهر معه الليالي الطويلة ويسأل نفسه:

-كيف أنتفع به وأقتدي وبقية أهلي قد ضلوا وجهلوا؟ كيف، يا ربي، كيف؟ وجاء الفرج عاجلا: اقتسام الإرث !

قبل هذا جرب بعض الوسائل المتواضعة: مرة ارتدى بذلة شرطي وأخذ يتربص بأصحاب السيارات القديمة أو الصغيرة:

- «أوراق السيارة من فضلك... من هذه التي تركب معك؟»

ولكن التهديدات والتحدي، أو الاستعطاف، والمساومات التي تلي ذلك لم تات في كل مرة بما كان يعتقد: الناس لم تعد كلها تخاف كما كان يتصور وأحسن ما أدت إليه هذه القرصنة، التي تتم باسم القانون والأخلاق، هو تحريره مما تبقى لديه من خوف من أصحاب «البذلات الرسمية» إذ اكتشف أن الكثيرين من البسطاء يساومونه بغير قليل من السخط أو عدم الاكتراث أو بالتحدي والجلد، خاصة النساء !

لهذا قرر أن تكون معه امرأة وهو يخطط للفكرة التي بدأت تستحوذ على عقله:: «أمة الفقراء» أصحاب جدتي وجدي !

-جمع شتات المنبوذين والضحايا، أولئك الذين ضيعهم الجهل أو القهر او الوراثة أو حدة الإحساس والشهوة أو سوء الحظ والتربية والتعاسة !

وحين عرض على البنت، التي كم أظهرت عطفها عليه قبل ذلك بكل الأشكال، طيلة سنوات بدون جدوى، حين عرض على البنت أن تعيش مع، حين عرض عليها أن تعيش معه «الفقراء الأخيار»، في تلك «الفيلا»،

طارت ورقصت في الهواء فرحا إذ ظنتها مغامرة أو نزوة عابرة ستخرجها من الملل و «الشمة» !

-سنكون، إن شاء الله، أصحاب خير قضية: نجمع الفقراء ونحررهم من الخوف وقصر النظر، من مخلفات الجهل وسنوات الظلم والطغيان، ليكون لهم في الدنيا، وفي الاخرة، شأن !

وبدأ في جمعهم، من كل مكان، وتناقلوا الخبر فجاءوا من جميع الأنحار ومن كل الأنواع: رجل بنى، من إرثه الكبير الحلال الطيب، ملجأ للمحتاجين يؤويهم فيه ويطعمهم ويكسوهم ويعلمهم القراءة والكتابة ويرشدهم إلى سبيل استرداد حقوقهم وكرامتهم: «أمة الفقراء» !

وصاروا أمة عظيمة تاكل وتشرب وتتناسل وتنام أو تمارس كل أشكال العنف والكسل فاضطر إلى تكوين «ديوان وفاق» إذ تكاثرت مطالبهم ومشاجراتهم: أربعة من «الحكماء» اختارهم من بين أعقلهم وأكبرهم وأكثرهم تجربة في الحياة ليساعدوه كما يريد على ضبط النظام داخل هذا «الجيش»، ليسهروا على تقوية الإحساس بالكرامة لديهم، الذي لم يفهم كيف ازداد تدهورا على عكس ما كان يتمنى ويتوقع...

كانوا إذا بدا لهم يخرون ساجدين مهللين مكبرين حامدين شاكرين وإذا دنا منهم يتسابقون متدافعين لتقبيل أنياله وشم رائحته، لكنه إذا اختفى يمارسون كل أنواع العنف وكل أصناف القصوف والمجون، لا يراعون خلقا ولا حشمة ولا أمرا، فاضطر مكرها، وباتفاق تام مع «ديوان الوفاق»، أن يطبق عليهم بعض الحدود: حد السرقة وحد الاغتصاب وحد الاعتداء على الضعيف، على سبيل التجربة والردع، «... ولو أن المجتمع أسد، يجب أن يصبحوا نواة الخير فيه» «وانظر، أيها المتأمل الطيب القلب، كيف يتسرب الحرام إلى الحلال وكيف يخترق الشر الخير وكيف يعلو القبح الجمال

ويغطيه بلا نية ولا قصد من المرء ولا من الأمة وبالرغم من كثرة الاحتراس وشدة الحيطة نسأل الله اللطف والإحسان وعدم المؤاخذة بما لم يكن في البال والعفو والغفران على كل زلة قلب أو لسان وأن يرشدنا إلى الخير قبل فوات الأوان !»

يذكر أبا جادة الرندي، يقرأ ويعيد القراءة، باحثا عن تفسير لما آلت إليه أوضاع «أمة الفقراء»:

-لا تتعجب، يا بني، فالسبب بسيط: لقد قضيت على ما كان قد بقي لديهم من إحساس بالكرامة !

همس في أذنه أحد شيوخ «ديوان الوفاق» وهو يطلب منه الإذن بمغادرة «الجماعة» والعودة إلى «أهله» ليموت بينهم !

-أنا الذي ... والكرامة...؟

-انت الذي ...والكرامة !

أكد العجوز قبل أن يضيف:

-في الخارج كانوا، على الأقل، يسعون... !

-يسعون في الأرض مهانين !

نظر إليه الشيخ طويلا بإشفاق كبير ومودة ثم دار حول نفسه وودع وهو يردد:

-اللهم اللطف بالذي على ضلال وبالذي على صواب !

اعتكف سبعة أيام وسبع ليال يفكر.

كان قد اضطر إلى «إجراءات تقشفية» شديدة إذ لم تعد معه سوى دريهمات معدودة. كانوا قد بدأوا ينفضون من حوله:

-ما الفرق بينك، في هذا، وبين الحكومة... تقشف كل مرة؟ !

حاسبه الشاب الأعمى المقعد:

-الحكومة، على الأقل، تعرف كيف تستدين !

أضاف الشاب وهو يقسم بأنه لن يعود إلى «الفيلا» ولو مات من الجوع !

ومنهم من حمل معه ما استطاع وهو يغادر«الفيلا». ومنهم من صار يدعي الزعامة بدله والريادة... طعنوا في أصله وشككوا في قصده ونسبوا إليه كل شر ورذيلة وقلة الحيلة:

-«كنا أحرارا فاستعبدنا وكانت لنا مواقع ومراتب فخربها...»

-«ما الفرق بين هذه «القهرة» وتلك؟ زعيم، ولي أمر... قال!

-«وانظر، أيها المتأمل الصافي السريرة، مع الله وعبده الضعيف والجبار، الممتحن في ضميره وعرضه، الساعي إلى الخير وفضله، أنه ليس كالحمد والشكر في أمره، وليعلم كل من انتمى إلينا، بالخير والمعروف، أنه مبتلى ومصاب، كما يبتلى الأنبياء والرسل وأهل الخير، جميع أولياء الله تعالى الصالحين الشاكرين، نساء ورجالا، في كل زمان ومكان مازال من يحس بالتكليف والعناية...، خذ عني الحق والرسالة، فقد خبرت الزعامة وصاحبت أهل الفضل فيها، ما فيهم واحد فاز بغير أجر الله، ولا واحد أمهله صغار النفس والهمة وراكبو الشر، في مثل هذا الأمر، بغير الوشاية والكيد والدعاية، إلا ما قل وندر لطفا من الله تعالى ورعاية»

وتقرأ له الزوجة صفحة من نفس الكتاب:

-«العنف إذا لم يصرف في الخارج، ضد عدو أو خارج، صرف في الداخل وهلكت الجماعة، من الداخل، شدوا أنفسكم إليكم، وشدوا إليكم، وشدوا إليكم ذويكم، بشد الخناق على عدو أو فساق... وأكثروا من القرابين والضحايا، كبش الفداء: كبش الفداء، كبش الفداء، كبش الفداء، وكثرة الأعداء، فإنهم الرباط والوثاق !»

-أين وجدت هذا؟

-في نفس الكتاب... قرأت، يا رجل، ما كتب بماء الذهب ولم تقرأ ما سطر تحته بالمداد الأسود، أين بصيرتك؟

-«وأكثروا من القرابين والضحايا، كبش الفداء: كبش الفداء، كبش الفداء، كبش الفداء، وكثرة الأعداء، فإنهم الرباط والوثاق !»

كأن الرندي يعيش معه في خلوته، في سره وعلنه !

-لا، لا... تلك رؤيا رأيتها في المنام !

... تلك رؤيا رآها في الليلة السابعة، من الشهر السابع من 1997، ورسالة تلقاها في المنام، قبيل الفجر، فكيف يكذب الرؤيا وينكر الرسالة؟ كيف؟

ليكن له فيها اجتهاد وأجر وتطبيق: «فريق النجدة» و«فريق الموت» !

-كم بقى معنا من الشباب القادر على العمل والرياضة؟

سأل «الحكماء الثلاثة» المتبقين من «ديوان الوفاق».

-أحد عشر، ستة منهم معوقون، عرج أو مقعدون !

شرع في برنامج «التأهيل المستعجل»: كيف تخنق عدوك أو تشله عن الحركة فورا ؟...

ست ساعات من التداريب القاسية يوميا: «فريق النجدة» من سليمي البدن واللسان، يغيرون على «أصحاب الجاه والمال الحرام»، «لصوص هذا الزمان ومصاصي دم المقهورين المغفلين الجهلة»، لنجدة الجماعة وإنقاذ ما تبقى منها.

أربع ساعات من «التدريب الخفيف على وسائل الخنق والشل اللطيف»: فريق الموت «من هؤلاء المعوقين، يكلفون بخنق كل «مرتد» بقي

بداخل الجماعة» أو التجأ إلى الخارج، مثل متهتك أو مارق... «شرطة الخلق والنهي عن النزق» !

شعارنا منذ اليوم: القسطاس والإخلاص والشرف، وليكن معلوما لدى الجميع أن كل ما تفعلون ينسب إلي، وكل ما أفعله ينسب إليكم، إن خيرا فخير وإن شرا فشر، ولن أطيق أن ينسب بعد اليوم إلى هذه الجماعة قبح ولا ظلم ولا أي نوع آخر من أنواع الرذيلة والشر... ! »

وصادف بداية تطبيق هذا البرنامج اغتصاب بعض النساء، مع القتل، ونسب هذه الجرائم إلى «الخنزير سفاح البحر»، فكلف «فريق الموت» بالتحقيق في الأمر:

–الكوخو هو الذي يغتصب ويقتل باسمنا الآن، كذالك بعض الأوباش من بين قدامى الجماعة الخارجين عن «ميثاق القسطاس والإخلاص والشرف» يسرقون المحتاجين ويعتدون على الضعفاء وكثيرا ما يغتصبون نساء مريضات أوميتات... هذه أسماؤهم وعناوينهم !

–الكوخو اللعين البئيس؟

فكر مليا ثم استشار أعضاء «ديوان الوفاق»:

–تقومون باللازم تجاه «الأوباش» وتأتونني بالكوخو إلى هنا سليما معافى... واسمع ألمقدم الزيتوني...

وثب المقدم أحمد الزيتوني من مكانه مذعورا:

–السمع والطاعة يا سيدي !

وتابع مهددا:

–تقول للحكومة إذا سألوك هذه المرة إننا لن نستمر طويلا في القيام بواجبها وإذا عاتبوك ترد أن مهمتنا أصعب من مهمتهم وأشق وأنه لم يعد لها الحق، بعد أن أهملت القيام بهذه الواجبات الأمنية، أن تجمع لا الضرائب ولا

الزكاة، من المواطنين الضعفاء وسيكون لنا معكم في هذا الأمر قول فصل بإذن الله... انصرف الآن !

-حاضر مولاي !

ثم توجه بالأمر إلى «فريق الموت» من جديد:

-بيننا خونة ومخبرون نستعملهم، كما يستعملهم غيرنا، مرتزقة هم من دمنا ولحمنا، لكنهم ليسوا أكثر خطرا من مرتزقة الفتنة، فلا تخافوهم أكثر من اللازم، لكن تكتموا كثيرا واحترسوا، كذلك بخصوص الكوخو، تكتموا أكثر واحترسوا أشد فهو محمي ومسخر، له آذان وعيون... ومع هذا أريده، قبل طلوع الفجر هذا اليوم، هاتوه... !

جيء بالكوخو في منتصف الليل مكبلا صاغرا. تحول «ديوان الوفاق» إلى «هيئة محكمة» نطق «الخنزير»:

-نتهمك، يا كوخو، بثلاث جرائم، الاغتصاب والقتل وتشويه صورتنا لدى الناس... أين«القرد» ؟

نط قزم من مكانه، من وسط القاعة، كما ينط قرد حقيقي:

-السمع والطاعة، تأمر يا أميري؟

مر بيده على رأسه الأصلع يمسحها بلطف:

-تجلس هناك، غير بعيد من الكوخو !

والتفت إلى الكوخو من جديد:

-ماذا تقول في هذه الجرائم المنسوبة إليك، يا كوخو، ولا تقل، على كل حال وأنت تكذب، إنك بريئ، مظلوم... تكلم !

لم ينطق الكوخو بكلمة واحدة، كان ينظر إلى «الخنزير» بشيء من الاستغراب والدهشة:

-«أهذا هو الرجل الذي يتحدثون عنه بكل هـذه الرهبـة والخـوف، يحكمون عن غرائبه وعجائبه كأنه مارد من الجان أو وحـش مـن وحـوش البحر التي سارت بذكرها الخيالات والأفئدة في كل زمان، أهذا هـو «كلـب الشيطان»، «الخنزير» الذي أصبحت تردع به الصبيان ويرهبه «كبار القوم» و«صلاب قطاع الطرق» و«عتاة المجرمين»، هذا الشبح، هذا الظل... هـذا القزم...؟ لا يمكن... أبدا... مستحيل !»

هذا الذي اشتهر بـ«الخنزير» وبـ«كلب الشيطان» رجل قصير القامة بالفعل، نحيف إلى حد الهزال بالرغم من أن عضلاته الصغيرة تبـدو قويـة مفتولة، رجل أملط...

-قزم؟... «صبي» يطل، بصعوبة بالغة، على سن الرشد !

وقطع «الرجل» الهرم، الذي يجلس على يمـين «الخنزيـر»، سـيل عجبه واستغرابه:

-أجب، يا بني، وإلا فإن حبل المشنقة جاهز !

قفز «القرد»، وكأنه طائر، وأخذ يلعب على حبل طويل غليظ وخشن، فتابع العجوز:

-إنما نريد أن نسمعك لنرى إن كانت لك ظروف تخفيف، تكلم بسرعة وصدق، يا بني، إننا في أول النهار ويجب أن نستريح، تكلم !

لم يستطع الكوخو أن يتكلم من فرط الدهشة التي كانت تخنقـه فأشـار «الخنزير» بسبابته اليمنى إلى «القرد» الذي «طار» في رمشة عـين وحـط على كتف الكوخو المرتعد قائلا:

-الكوخو سيتكلم الآن، أليس كذلك، يا كوخو؟

فتح الرجل شفتيه ولكن لم تخرج منهما ولا كلمة واحدة وبقـي كـذلك فاغرا فاه إلى أن أشار «الخنزير» إلى «القرد»، بإبهامه الأيمن هـذه المـرة،

فأخذ يعريه، يمزق ثيابه، موهما بأنه يأكلها ويتلذذ بطعمها، ثم القميص، ثم الشعار، ثم السروال، ثم..

صاح «الخنزير» في «القرد» مشيرا إشارة يعرفها «القرد» جيدا:

-كفى، توقف !

فابتعد القزم ببطء قبل أن يقفز عاليا نحو السقف وينقض على قبل الكوخو ويعود، و«العضو» بين أنيابه، متوجها نحو «هيئة المحكمة» ليقدمه إلى «الرئيس»:

-هذا، يا سيدي، هو السلاح الرهيب الذي كان المجرم يستعمله في الفتك بضحاياه من النساء والصبيان !

دخل «الرئيس» في مشاورات طويلة مع أعضاء هيئة المحكمة إلى أن سمع الكوخو يستغيث:

-ارحموني وعيالي يرحمكم الله، التوبة، ارحموني وأمروني بما تشاؤون أفعله أنا العبد، ارحموني سينزف كل دمي، ارحموني...

عاد «القضاة» إلى المشاورة من جديد ثم نطق «سفاح البحر»:

-حكمنا على الكوخو بما يلي:

أولا، تستكمل عملية إخصائه قبل أن يخاط قبله، رحمة بأولاده وأهله !

ثانيا، يحكي بنفسه، لكل من يعرفه ولكل من لا يعرفه، في الحي وفي المدينة، من فعل به هذه الفعلة ولماذا فعل به... هل تعرف من فعل بك هذا يا كوخو؟

-أنتم، يا سيدي ومولاي، أنتم لأني اغتصبت وقتلت وأسأت إلى سمعتكم وشرفكم، أنتم... !

-لا، يا كلب، النساء اللائي أجرمت في حقهن، يا بعوضة !

وأشار «الرئيس» إلى «القضاة» الثلاثة من حوله فأزالوا الأقنعة عن وجوههم فإذا بهم امرأتان من ضحايا الكوخو، وزوجة «الخنزير» !

منذ ذلك الوقت عرف عن «الخنزير» بأن زوجته هي التي تفصل فـــي قضايا الأمن والشرف والفضيلة وبأنها لا تعرف الرحمة ولا الشفقة، لا فـــي النساء ولا في الرجال، فاشتهرت بـــ« بزوجـــة الخنزيـــر» واحيانــــا باســـم «السفاحة زوجة السفاح» لكن اللقب الغالب عليها هو «القرش» رئيس «فريق الموت»: كان الهادي قد اكتفى برئاسة «فريق النجدة» وتفرغ له !

لا له هنيه

ارتدت الجوارب الطويلة، البنية الشفافة، ثم الحذاء القسطلي ذي الكعب الصغير الدقيق، ثم الفستان الزيتي الطويل، ذي الوردة الصفراء المتفتحة على الصدر:

-«يا ورد من يشتريك، يا ورد؟»

ثم جمعت شعرها الأسود الكثيف، الذي مازال يصل إلى الساقين الرفيعتين، بالرغم من «قطعها» له مرتين مع دخولها للجامعة وخروجها منها، بمشبك صغير من العاج ثم لبست«السترة» البيضاء، وهي نوع من الوشاح، ثلجي يستر ولا يخفي، من الحرير الخالص:

-«مشكلة مع هذا الشعر !»

ثم تأملت صورتها في المرآة الكبيرة وأكملت ستر ما ظهر من شعرها تحت الوشاح:

-«يا بنت، خافي، خافي من الله !»

ثم أعادت غسل وجهها ويديها بماء الورد:

-«الله، ما أطيبه، منعش!»

ثم وضعت شيئا من الكحل البلدي في عينيها بعد أن جفقتهما بقطعة صغيرة مدورة من القطن الوردي:

-«غطي، غطي الزرقة، غطي !»

ثم أحكمت لم شعرها من جديد في السترة ثم دارت حول نفسها أمام المرآة الكبيرة ثلاث مرات، أربع مرات، خمس مرات، ست مرات ووضعت حقيبة اليد الوردية الصغيرة المكعبة تحت إبطها الأيمن ثم أطفأت نور الحمام وقصدت باب الفيلا:

-السلام عليكم !

-إلى أين؟

سألتها أمها، التي اكتنزت حتى استحالت عليها الحركة، وهي تتفحص الوجه المتغضن للزوج القصير النحيف الذي يجلس أمامها ممسكا بيد كأس الشاي وبأخرى قطعة «كعب الغزال» مستطلعة، في سرية متقنة، ردود فعله !

-أزور عمتي زينب، عندك مانع؟

لم يصدر عن الأب أي رد فعل. لقد بدأ يبرع في إخفاء انفعاله. يبدو وكأن الأمر لا يعنيه لا من قريب ولا من بعيد: أمر هذه البنت ! فردت الأم في هدوء وسيط سلم خبير بشؤون الحروب العائلية:

-لا تتأخري، البارحة قتلت بنت أخرى في طريق الجامعة !

-خافي على نفسك، من فضلك !

لم ترد الأم على هذه العبارات المستفزة. ظلت هادئة تماما ولم تستطع إخفاء ابتسامة عطف، أو شماتة، لطيفة. الأب بدوره ظل متمسكا بهدوئه الظاهري. يعرفان معا أن هذا السلوك المستفز موجه ضد «الأب»، في المقام الأول والأخير، ولا يمس الأم إلا من باب العتاب أو الاستنكار، عتاب على تضامنها، أو تواطئها، أي تعاطفها السلبي، معه بدون قيد ولا شرط، واستنكار «لقبولها التام لوضعها» معه، هذا «الوضع» الذي لا تعبر عن تعاستها فيه إلا عن طريق الإقبال الشره على الطعام و«الإضراب عن الحركة» !

-« رجل جمع جل ثروته الهائلة من الحرام، يأكل أموال اليتيم والضعيف، كل شركائه والمتعاملين معه من المرتشين والمهربين والمنتفعين من الفقر والقهر، لا يخجل من ممارسة الربا واستغلال أوضاع البؤساء

والمحرومين، يعاقر الخمر علنا ويعاشر أهل الفسق والمجون من كبار البلد ومتوسطيها، تزوج عليها مرات لا تحصى ولا تعد، في السر، من نساء ساقطات يحترفن صيد الرجال السمان ويضحكن عليهم: هذا زوج تعاشره امرأة بالمعروف ويمكن لأولاده، خاصة البنات منهم، أن يفخروا به؟»

-«أنت الأكل معك حرام... الأكل والسلام... العيش معك حرام ! »

ثارت عليه البنت، مرة، وهو يحاول أن يقنعها باحترام «قواعد اللعب» في البيت:

-« تأكلين وحدك وتنامين وحدك ولا تردين التحية ولا تبادلين أحدا منا التقدير ولا المودة ولا الخدمات اليومية العادية بين الأهل، هل نحن مجوس، في نظرك؟»

لم يتحمل الرد العنيف:

-« أنت أكثر من مجوسي، أنت أبو لهب، إلا امرأتك !» رفع يده ليصفعها فأمسكت باليد ولوتها:

-« تصفعني أردها لك صفعتين، تظنني أمي، أيها الطاغية المتجبر القاسي القلب !»

مرض الحاج محمد الرنجي مرضا أشرف خلاله على الموت. كم بكى طوال تلك الليالي التي قضاها في المستشفى وكم توعدهم، الجميع، الأهل كلهم، بالدمار والعار:

-« لا، ألحاج علي، أنا لا يمكن أن أكون مثل الحاج سعيد أو الحاج صالح والدادسي، بناتي يمارسن الزنى أما عيني، أوه... وأولادي يتعاطون للفسق والفجور في داري، أوه... لا سيدي، وبنتي تتزوج النصراني لا..أنا... نخربها... قبل ما يخربوني، نبيع كل شيء ونخوي لبلاد ويجيوا يشدوا في... ذيك الساعة... في ... السلك ! »

-«استغفر الله... آش... ؟»

ماذا يقول له الحاج علي؟ مصائبه، وكذلك مصائب كل أصحابه وشركائه ومعارفه، استكمل معرفتها خلال هذه الأيام التي قضاها في السرير: الوقت صعب والأولاد خرجوا لنا من الجنب ولا ربح لا رأس مال، ضاق الأفق وصغر الأمل !

-«كان عليهم أن يشكرونا ويفتخروا بنا، جمعنا لهم ثروة وأمناهم ضد أولاد الحرام، ما كاين غير أولاد لحرام !»

أضاف الحاج علي وقد دمعت عيناه !

-«الاحترام والتقدير؟ على جرائمكم !»

-«يحترمونا، لا غير، وبعد الموت الله غالب، يبولوا فوق قبري !»

-«جيل آخر، ألحاج محمد. جيل... قال لك احنا لصوص ومرابين وجبناء وسفهاء، كفار...تقدر تسمع هذي من ولدك، من بنتك؟»

-«طالبين السهل والحلال وما عندهم جاه ولا قوة... بداوا بنا الجهاد «ومن عرق كتفنا !»

وظهر له بالفعل أن هذا زمن آخر وأن زمنه قد ولى:

-«الحقيقة أننا لم ننجح في المحافظة لا على الأخلاق ولا على الشرف: قانون الغابة، هذا ما وجدنا !»

ولكنه حين تذكر تاريخ العائلة، وبالخصوص وهو يتوقف طويلا عند حالتي زينب وصالحه وعبله ثم عند حالة «كلب الشيطان»، خيل إليه أن الأمر يتعلق بلعنة:

-«لعنة دائمة أو...امتحان يتكرر...لى مستوى العائلة ...كل فرد !»

فنام وهو يأمل أن تأتي البنت لتصالحه، فقط لتطل عليه من غير أن تقول شيئا، لا عفوا ولا معذرة ولا...« أبي» !

غير أنها لم تأت لا مع العائدين و لا وحدها:

-«ترى من يملأ رأسها ويسود قلبها ضدي؟ الـذين يلعبـون بأفكـار الشباب هذه الأيام !»

وشرع يقنع نفسه بأن البنت بريئة وبأن حربا ضـارية مـع أعـداء لا يعرف وجوههم تنتظره فور مغادرته للمستشفى !

-« ونحن أهملنا بدورنا، ألحاج محمـد، أعمتنـا الـدنيا... المنافسـة والجري... اللهسة، لعنة الله عليها... ونسينا التربية !»

-« ربما نسينا القدوه، ألحاج علي، النموذج... أولادنا لايجدون فينا أي نموذج، مع الأسف...مع الأسف !»

ولم يدر كيف اهتدى إلى هذه الكلمة السحرية: القدوة !

تلك الكلمة التي أحسـته بالراحـة...؟ لا... أكثـر مـن الراحـة... بالسعادة... لا... لا... بالتوبة؟ ربما، بما يشبه ذلك، على كل حال !

-«لقد تصالحنا مع كل شيء إلا مع أنفسـنا... إلا مـع ذوينـا، مـع الأسف !»

-تلك هي العبارة-السم التي كان يطلقها «الخنزير»، في وجهه وفـي جميع الوجوه العائلية، بمناسبة وبلا مناسبة؟ يكرهه ويكره كل مـا يقولـه... كل ما يسمعه عنه..عن زينب كذلك... عن عبله... يكـره عبلـة ؟ علـى حسب؟... على حسب !

أما «المتسول المتشرد» و«الكافره المناضله»... لماذا يكرهها إلى هذا الحد؟

-«لأنهما يمثلان كل ما تخاف منه وتخشاه: ضميرك الميت في ذاتـك الطماعة الأمارة !»

ترد البنت بوقاحة خانقة...

وهو يرد دعوة زوجته إلى أن يصالح الهادي وزينب وأن يظل «الكبير»:

-«طهر نفسك، وأنت على نية الحج من جديد، من الغضب والكراهية، من الخوف من غير الحق، لماذا تكرههما إلى هذه الدرجة، تتخلى عنه...؟»

-«لأنهما يمثلان كل ما تخاف منه وتخشاه: ضميرك الميت في ذاتك الطماعة الأمارة !»

-«اخرجي، اغربي عن وجهي قبل أن أرتكب حماقة في حقك !»

أمر وهو يرتعش...

كانت البنت منصرفة وهي تقول:

-«ستظل تكرهني حتى بعد قتلي وتكره زينب و«عمي»، تكره نفسك !»

وقام ليتبعها لكن الأم اعترضت طريقه فلم يستطع تجاوز كتلة اللحم هذه...

-« وتعرف ما يرعبك، يرعب ذاتك الطماعة الأمارة؟ ضميرك الذي لا تسمعه ولا يسمعك، كأنكما عدوان !»

من أين لها بكل هذه«السفالة»؟

-«من عندكم، ألحاج، من العائلة !»

أجابت الأم في هدوء ذابح فقام غاضبا وانصرف إلى «بغيته» !

-«ونحن نعرف جميعا، أو نحس على الأقل، بهذه الكارثة، فلم لا نستطيع فعل أي شيء لإنقاذ ما تبقى، ما يمكن إنقاذه...؟»

-«العمى، أعمي الحاج محمد، العمى، اللهسة خربت البصيرة...فما تريد أن أفعل لك؟»

قالها «الخنزير»، في وجهه، وهو يسأله، باعتباره أصغرهم، أي أقرب إلى الشباب منهم:

-«لماذا لم يعد الآباء والأبناء يتفاهمون، في نظرك؟»

والواقع أنه فاجأه، إذ لم يسبق له قط أن طلب منه رأيا أو سمع منه فكرة أو رغبة، فهرب «الخنزير» إلى السخرية، ولكنها أرقت الحاج محمد أياما وليالي طويلة:

-«ليتفاهم بقية الأهل، تفاهموا أيها الكبار، قبل أن يطلبوا التفاهم مع الأولاد والأحفاد، مع الصغار، والحرب من عندكم شعلت، أعمى الحارج خويا الكبير !»

-«يعني، عدو الله، أنني قد عميت بصيرتي وخرب نظري، وكيف حافظت لهم وضاعفت هذه الثروة، بالنظارات الطبية؟ ليضع بصيرته حيث يعرف... الأبله الحقير القليل الحياء والحيلة والعفة وقليل النفس، أنا...؟...الله يلعن... !»

وحاول أن يفتح عينيه على أهله ونفسه، خاصة بعد أن تحولت إحدى زيجاته إلى فضيحة، فلم يجد لا الصبر ولا «المساعدة» ولا الوسيلة، لا الإرادة الكافية في ذاته ولا «التعاون» معه من طرفهم:

-«لقد أدانوني بشكل لا رجعة فيه، ولا حق التوبة والاستئناف !»

-«كان عليك أن تشرح لهم وأن «تشركهم» برغبتهم وإرادتهم هم، ألحاج محمد ! »

يدرك شيئا من هذا، لكنه رد يائسا:

-«مع من الله يهديك ألحاج علي... مع من؟»

إلا أنه قبل أن يغادر المستشفى كان قد قرر أن يتصالح مع البنت ويفتح مع الجميع، معهم كلهم، وكذلك مع نفسه التي تبدو له مظلمة ومتقلبة وكارهة، صفحة جديدة، صفحة بيضاء تماما...

عاد إلى البيت هاشا باشا وبمجرد أن وضعوه في السرير واستقام في مكانه طلب البنت:

-«أين عبلة؟... هاتوها لي أتصالح معها قبل أن ... أموت !»

خرجت الأم من غرفة نومه إلى غرفة البنت تحاول أن تسترضيها فأبت البنت أن تقابله ولما أعيا الأم الصبر والحيلة صرخت فيها:

-«مسخوطة، لعنة الله عليك !»

فردت البنت بهدوء وابتسامة ساخرة:

-«يضحك عليك، يالحمقه، غادي يكون تزوج من جديد أو لا طلق البنت اللي كانت معايا فالجامعة... هذاك يموت؟ أستغفر الله العظيم، يموت ! سيري... رجعي عندو راه يعيط عليك، يضحك، يتماوت، راه غير يتمسكن !»

عادت الأم خائبة:

-«الله يمسخك، الجنية الكحلة !»

كان قد سمع كل شيء:

-«لو كانت ولدا لطردتها من البيت، لكن طرد البنت فضيحة تولد الفضائح !»

-«أنت، يا الحاج محمد الرنجي، يا كبير الصالحين والرنجيين وآل المامون، يا كبير التجار الكبار والمقاولين، أنت لا تخاف سوى من شيئين اثنين: الفضيحة والإفلاس !» «الخنزير»، مرة أخرى !

-«ستنسى وتأتي تبكي بين يديك، وهل لها غيرك، ألحاج؟» تقول الزوجة مواسية !

-«مواسية؟ هذا اللفعه أم نظارات؟ مااللي بدا يقل جهدي وحالي وهي تمثل علي، متفقة معهم كلهم، وضدي، ماتة في...»

وهاهي، وبعد زمن طويل على هذا، تراقب صمته الباكي وتنصحه بأن يفكر في طريقة يبدأ بها الكلام من جديد معها، فهي، على أية حال:

-بنتك وكبدتك، بنتك الوحيدة، أسيدي الحاج !

فيخرج من هدوئه المفتعل، من لامبالاته، وكأنه يهدد:

-تموت في حادثة سير، إن شاء الله !

كانت البنت قد أخرجت سيارتها، سيارة حمراء آجرية أهدتها إليها الأم بمناسبة تخرجها من كلية الصيدلة، سيارة يابانية صغيرة تتوفر على أحدث مبتكرات التكنولوجيا في العالم، سيارة حين تمتطيها تشعر بأنها قد غادرت الدنيا الضيقة المكتظة إلى فضاء الحرية والانعتاق، فأصبحت كلما تكدر مزاجها تهرع إلى المقود وتنطلق بأقصى سرعة ممكنة، لكنها كادت، مرات عديدة، أن تموت فيها وأن تتسبب في قتل راجلين وسائقين آخرين، فتجد الأم في هذه الحالات مناسبة للبكاء الطويل وتأنيب الضمير:

-إني أساعدها على تحقيق رغبتها في أن تقتل نفسها !

وأخذت تبكي حين سمعت السيارة تزمجر خارجة من المرأب فقال لها الحاج محمد:

-أراهن، بكل ما تريدين، على أنها ستقتلنا، هما وإهانة وعارا وتجبرا، قبل أن تتفرغ لتبديد نصيبها من الإرث والاستمتاع بالدنيا مع مسخوط مثلها !

-العن الشيطان، ألحاج، البنت مصابة، في هذا الزمن، أكثر من الولد، العن إبليس ولا تفايلش عليها مسكينة ! قالت لتردعه وترد الفال السيء.

-الله يلعنه ويخزيه ولد الحرام ! رد وهو يفكر في البنت وهي ترتدي قناع الشيطان. فحاولت الأم أن تقوم من مكانها، بصعوبة بالغة وبدون

جدوى، لتذهب إلى الحمام، وهي تنادي، بصوت عال مضطرب، على الخادمة العجوز التي تشتغل عندها منذ أكثر من أربعين سنة:

–مبروكة، مبروكة، مبروكة، تعالي الله يعطيك حادثة !..فينك تضربك الماشينه، إن شاء الله رب العالمين؟ يضربك الضوء، يضربك السم !

وتظهر المرأة العجوز متظاهرة بالهرولة وهي تجاهد في إخفاء ابتسامة ماكرة:

–هانا يا لاله، كنت فالمطبخ، غارقه فالما... وها أنت، شوفي حالتي !

–باركه من التمثيل والبكا، عاونيني الله يعطيك الشلل !

–آمين، ألاله، آمين، يا رب العالمين ! تقول العجوز بصوت كئيب وهي تحاول أن تساعدها على الوقوف والخطو !

يتبعهما الحاج محمد بنظراته إلى أن تختفيا داخل الحمام:

–وها نصيبي من الدنيا قد اكتمل: أبنائي أعدائي وزوجتي فيل مشلول، والحكومة عند «المعارضة» !

وتقول هي للخادمة، التي تحفظ كل أسرارها، منذ ما يزيد على الأربعين سنة، وكأنها تسمع ما يقول في سره:

–الله يعطيه مصيبة تديه، معقدنا بن المعقد ومحرم علينا المعيشة تحرم عليه الجنة !

وتلعب الخادمة جانبا من الدور التقليدي الذي تلعبه في مثل هذه الحالة:

–لا، الله ينجيه مسكين، ألاله، الله يخليه مسكين دفه للباب وعصا للكلاب !

–غير يولي مشلول ويشد الركنة ونفرجك فيه !

–مازال عليه الحال، ألاله هنيه، وبالمهل تاكل العسل !

تنخرط المرأتان في نوبة ضحك وعناق بينما يطرق الحاج محمد مفكرا قبل أن يهب واقفا:

-البنك يسد والمدير يخرج !

فتحت «قاعة الندوات» أبوابها وظهرت المنصة المزينة بالورود ويلافتة طويلة كتب عليها بلون الدم: «جمعية مناهضة العنف تنظم -بتعاون مع منظمات حقوق الإنسان- يوما دراسيا حول العنف والبيئة».

سعت عبله إلى قراءة أسماء المشاركين والمشاركات على كل اللوحات الصغيرة المثبتة فوق المنصة وكأنها تريد أن تتأكد للمرة الألف من وجود الاسم العائلي: «زينب الرنجي-رئيسة الجلسة».

ثم قرأت الأسماء الأخرى، ثم عادت لتقرأ من جديد اسم عمتها:

«زينب الرنجي-رئيسة الجلسة» !

لم يسبق لها أن رأتها من قبل، لا هي ولا ««الخنزير»»، لكنها تعتقد أنها تعرفها جيدا من خلال الحقد العارم الذي يكنه لها الحاج محمد الرنجي والاستخفاف الذي تتحدث به عنها أمها، بل من خلال ««الأساطير» التي حيكت حولها، خاصة عن مغامراتها بالخارج وعن معارضتها في الداخل لسياسة البلد وتقاليد العائلة:

-«امرأة من فولاذ لا تساوم ولا تتنازل، لا تلين أبدا !»

لذلك تصورتها، في الغالب الأعم، كجندية لا تخلع اللباس العسكري !

وها هي زينب الرنجي أمامها، الآن: امرأة أنيقة، رقيقة، جميلة، مليحة باسمة، تلقائية، بسيطة، عادية، لا تمت بأدنى صلة لتلك المرأة-الغولة ولا لتلك المحاربة الفولاذية، في الأفلام، على الطريقة الأمريكية !

-«زينه وممراره، الزين والملحه !»

لقد أحست تجاهها فورا بنوع من التعاطف، بنوع من التقدير والمحبة بالإعجاب وإن كانت كل هذه المشاعر مختلطة لديها بشيء.

-«من...ماذا؟»

تغبطها أم تحسدها أم تشفق عليها أم تكرهها مع ذلك؟ مشاعر مختلطة هلامية، غير صافية ولا دقيقة !

-«شاحبة قليلا، السن أم التعب أم بصمة العائلة؟»

تكلمت زينب، شكرت، شرحت أهمية الموضوع، قدمت السادة المتدخلين والسيدات المتدخلات شاكرة مطرية ثم أعطتهم الكلمة، الواحد بعد الآخر وهي تثني أو تسأل أو تعلق أو تربط هذا التدخل بذلك، هذه الفكرة بتلك قبل أن تنتقل بلباقة وذكاء إلى إعطاء الكلمة للجمهور من أجل المساهمة في المناقشة وطرح الأسئلة:

-الأخت؟ الاسم من فضلك !

اخترق الاسم القاعة فانتبه الجميع، والتفت نحوها الكثيرون لحسن الإصغاء:

-عبله الرنجي !

لم تستطع زينب أن تضبط المفاجأة:

-عبله الرنجي؟

رددت البنت وكأنها تعلن تحديا:

-آه، عبله الرنجي !

ولم تفهم زينب لماذا كانت تبدو وكأنها أضافت:

-عبله، والرنجي، وبالرغم منك، يا زينب بنت الرنجي !

كانت القاعة قد انخرطت في ضحك خفيف نبه زينب إلى هذا «الخطإ الذاتي» في التقدير بينما قالت البنت، في سرها:

-هي أيضا لا تعرفني !

وبسرعة، ولكن بمجهود بدا لها ضخما، استرجعت زينب بعضا من ابتسامتها ومهارتها:

-الكلمة للأخت عبله الرنجي، تفضلي لطفا !

احتضنت عبله حقيبتها الصغيرة بكلتا يديها في حركة استنجاد لاواعية ثم أطلقت العنان للسانها بلا وجل ولا تردد:

-لا أريد أن أتوقف عند الشكليات وسأذهب مباشرة إلى ما أعتبره أساسيا، أي خطأ قاتلا لا يمكن السكوت عنه وإلا أصبحت متواطئة معكم: الموضوع المطروح للنقاش اليوم، كما أعلنتم عنه وكررتموه أكثر من مرة، سواء في الإعلانات أو في بداية هذه الجلسة، هو «العنف والبيئة»، طيب... المداخلات كلها خارج الموضوع...

اهتزت القاعة ثم خيم على الجميع سكوت ثقيل وتابعت:

-كل المداخلات تناولت موضوعا واحدا لا ثاني له، أعني الرجل كمصدر وممارس للعنف ضد المرأة: هل انتهيتم، بعد كل هذا التعب والشغب، إلى اختصار مفهوم البيئة كله في مفهوم الرجل وحده، لا طبيعة ولا سلطة ولا ثقافة ولا تواطؤ ولا دور للمرأة في هذا؟ ليس عندنا أي شكل من أشكال التفاهم والمودة؟ ومن هي هذه المرأة التي تتحدثون عنها، هكذا بإطلاق وتعميم، أي بالكثير من التعتيم: أنتم، «النساء العصريات المتعلمات»، وقد صرتن «قديسات»، «المعذبات الصالحات»؟ السجون ليس فيها نساء إذن؟ آه، الرجل هو الذي يرسلهن إلى السجن ! إذن خلت المحاكم من المحاميات والقاضيات ! ما علينا، الآن طيب... ...

لنتأمل الخلاصات التي توصلتم إليها، ولنبدأ بمداخلات النساء: السيدة الرامي، وهي تعالج موضوع الطلاق الذي جعلتم منه حصان طورادة، ضد الرجل، انتهت إلى أن من حق المرأة «البيت والأولاد والنفقة»، وزيادة

الفضل فضل، أي من حقها الحق في الرجل أيضا، ليكون من حقها الكل، ومن لم يعجبه الأمر فلينطح باب «مدونة الأحوال الشخصية»، طيب...

وماذا قالت لنا العانسة، أقصد الآنسة، «الدهني»؟ خلاصة؟ طبعا...

لنجلد الرجل، لنشنقه، أو نحبسه، في السجن أو المارستان لكي نرتاح منه،لم لم تقدم ولا واقعة واحدة، من تلك الوقائع العديدة التي ذكرت، يستحق فيها الرجل الرحمة أو الشفقة فقط، لا الدفاع أو التضامن ! طيب...لا محبة ولا مودة...

ليكن لكن هذا الجحيم ! هل يمكن لك أن تقولي لنا كم مرة طلقت، ولماذا تتمسكين بصفة «الآنسة»، وقد تزوجت كل هذا العدد من المرات، لعلنا نفهم سر حقدك على هذا «الشيء» الذي تسمينه» رجلا ؟...

أما عرض السيدة «الظاهر» فلم يظهر فيه غير عنف الرجل اللئيم أيضا الكريه الحقير، تجاه الخادمات المقهورات، في تلك البيوت السجون، والعاملات والموظفات الطيبات المستغلات، وباختصار، حسب طرح هذه السيدة البريئة، فإن المرأة لا تستغل أحدا، لا تستغل لا المرأة ولا الرجل، ولا تمارس أي شكل من أشكال العنف، لا ضد الرجل الطاغية ولا ضد المرأة العفيفة... هذا منتهى العلم والوعي ومبتغاه !...

هنيئا لنا بمملكة النساء العامرة بالنساء الطيبات، الرحيمات والصالحات الخالية من الرجال الأشرار الطغاة ! طيب...

وأنتم، أيها الرجال، ماذا أصابكم لكي تصبحوا، فجأة، أكثر وأشد، وربما أعنف «نسوية» من هؤلاء «النساء الصالحات»، «قديسات الحداثة»، «راهبات المساواة»؟ هل حللتم، فجأة، وبقدرة قادر وهاب كل عقدكم «الذكورية»، كل مشاكل «الفحولة»، أم أنكم وجدتم مادة سالكة في الأسواق ومسلية وسهلة؟ طيب...

«جمعية الرجال النسويين»، لنتركها لكم، فانعموا بفردوسها ! طيب...

عن أي شيء يتحدث الفيلم الذي عرضه وعلق عليه الأستاذ المحترم «العلوشي»؟ رجل يترك امرأة، مسكينة حقا، بلا نفقة، بعد أن أثقلها بخمسة أولاد، وقد قبلت الزواج منه وهي تعرف أنه متزوج، قبلها، من امرأة أخرى مسكينة بدورها، وله معها أربعة أولاد، وأنه قبل الأولى كان مع أخرى، مسكينة وبريئة، له معها بنت وولد، الكل على علم بالكل وبما في الكل، ولكن هؤلاء النسوة الثلاثة لا يلتقين إلا في المحكمة رافعات جميعهن دعوى ضد الرجل الفاسق، المستهتر، اللامسؤول... طيب...

وهاهم القضاة، الرجال العتاة بدورهم، «يتضامنون» مع الرجل المجرم، ضد النساء البريئات الطيبات، ولا يريدون تطبيق الحكم الذي أصدروه بانفسهم، وبكامل وعيهم وإيحاء من ضميرهم، أي «النفقة أو الحبس»، لأن الزوج الرهيب، الذي كان عاملا من عمال البناء، يوجد في «مستشفى الأمراض الصدرية»، ينتظر، في أمن وسلام، أن ينتهي به سرطان الرئة إلى الهلاك... فيلم رائع، أليس كذلك، يا أستاذ؟ بلا عنف، رجاء من فضلك، دعني أكمل من فضل، ولقد تحملنا سلخك لنا بصبر، فاصبر، إنك «رجل»، وأنا مجرد «امرأة»، واحدة من هؤلاء «النسوة البئيسات»، اللائي تدافع عنهن، فكيف يضايقك إذا تحدثت واحدة منهن ! هذه حدود حملك لقضيتنا، أيها الرجل الكريم ! طيب...

أما التحليل النفسي الرفيع، «الذي قدمه الأستاذ» الزنيكي، لعقدة الأم عند الرجل البئيس، في هذا البلد، فهو بكل تأكيد، ومن جميع المستويات والجهات، تحليل عظيم لم يحلم فرويد نفسه ببريق من شطحاته: الرجل عندنا، في هذه الأمة الظالمة من الرجال الأشداء الطغاة، يمارس العنف على –والصواب، يا أستاذ، أن تقول: يعنف ب أو على– المرأة، أختا وزوجة

وعشيقة وزميلة أو رفيقة، لأنه رأى أباه، وجده وعمه وخاله وأخاه يمارس العنف ضد أمه، فنشأت لديه عقدة مزمنة هي «عقدة اضطهاد المرأة»، يعني نوع من السادية ! يا سلام !...

طيب... باختصار، اختصار شديد، هذه المرة... دعوني أكمل، أنا امرأة !...

الأستاذ القدير، موحى الشنديد، درس نماذج من القصص واسترعى انتباهه «أمر خطير»، في الكتابة السردية، عندنا، عن المرأة، ولا يكف عن تكريسه الكتاب والنقاد الرجال: امرأة تزني، كما يزني زوجها، لكنهما يزنيان بطبيعة الحال، في السر، وذات يوم يكتشف كل واحد منهما سر الآخر ويضبطان، كل واحد في وجهة، متلبسين ! فماذا يحدث؟ تصفح المرأة الزانية عن الرجل الزاني بينما يرفض الرجل الزاني أن يصفح عن زانيته ! وماذا يستخلص «أستاذنا» الكبير؟ السيناريو يتكرر، بصيغ عديدة، في جميع النماذج السردية المحللة، يقول !...

كيف نفسر هذا اللغز الرهيب؟

الجواب جاهز عند هذا الأستاذ الباحث:

المرأة تصفح لأنها حلوم، غيرية، ومتعودة على الرقة والرأفة والحنان بينما يرفض الرجل الصفح لأنه أناني، صلب، غليظ القلب، قد تربى على الشدة والعنف !

الله أكبر، ظهر العنف وبان ووضح في الميزان !...

عيب، يا سادة، يا أساتذة يا فضلاء، يا أستاذات، يا نساء، أن تجعلوا من هذا الموضوع مجرد مادة، كأنها الطين أو الفحم تكتبون به مسودات وتعجنون نماذج، تشترون بها المنابر وغش الضمير، تتحايلون بها علينا وعلى أنفسكم، عيب... كل من لم يجد موضوعا، في متناوله، الآن، يلتجيء

إلى موضوع المرأة، والطفل، ليجعل منه بضاعة سهلة، سلعة رائجة «علما فجا»، و«قضية مجة»، يتسلق بها ويظهر: تستغلون البراءة والجهل الحقيقيين، في المجتمع، من أعطاكم هذا الحق في أن تنوبوا عني، أنا كامرأة، وعن أمي وزميلاتي، من، أن تبيعوا وتشتروا فينا لدى الدولة والمنظمات، من أعطاكم هذا الحق، غير البراءة والجهل؟ الحق بين والباطل بين، في هذه «القضية المحرفة»، بين الحق والواجب...

وأنتن، بالذات، أيتها السيدات الفاضلات الطيبات، هل فكرتن في صورة المرأة التي تصنعن الآن لأولادكن، وبناتكن: صورة المرأة المستضعفة الطيبة، المرأة الضحية دائما، المرأة البريئة دائما والتي ليس لها من مشكل غير الرجل الظالم القهار؟ وفي صورة الرجل الذي تصنعن لبناتكن؟ وفي قرارة أنفسكن، عندما تأوين إلى ذواتكن، إن كنتن تأوين إليها، من حين إلى آخر، فهل هذا وحده كل ما يشغل تفكيركن، عاملات وربات بيوت، وإذا كان كذلك، فهل يبدو لكن، وأنتن في وعي وصدق تامين مع أنفسكن، أن آباءكن، وإخوتكن، وأولادكن، الذكور طبعا، بكل هذه الصلابة وهذا الشد؟ ولماذا تكرهن الضرة، والكنة، والحماة، والخادمات المسكينات وتسخرن من هؤلاء الرجال «التافهين جدا»، في وسطكم العائلي، الذين «تلجمهم» النساء؟ لماذا لا تحكين أيتها السيدات الطيبات العادلات، قصصكن مع الخادمات، مثلا؟ انتهيت، انتهيت... سأكتفي بهذا القدر وأترك الباقي لتدخل آخر، لكني أريد فقط أن أضيف...

قامت «الآنسة» الدهني من مكانها، في المنصة، محتجة:

-هذا عنف، لا سلخ، إرهاب... لا يمكن ان أوافق عليه ولا أن أساهم في تكريسه بالاستماع إليه، أنا منسحبة...

قاطعتها عبله:

-لتكن لديك الجرأة، والتسامح الفكري، للرد عليه !

-لا يمكن أن أرد على الجنون، على الهذيان... أو أناقشه !

أضافت «الآنسة» الدهني وهي تخرج من الباب.

-وهل هناك جنون، من هذيان، أقوى مما قلت في عرضك؟

السيدة الظاهر قامت بدورها لتنسحب. وكذلك فعلت السيدة الرامي. انسحبتا بهدوء تام وبدون أدنى تعليق !

-كفى، قالت زينب، كفاك !

-قلت لك لم تبق لدي سوى إضافة صغيرة... لا، ألخصها ثم أسكت نهائيا !

آنئذ هب الرجال منسحبين بدورهم من المنصة فبادرت زينب إلى رفع الجلسة وهي تعتذر لمن تبقى من الحضور: ثلاث نساء، إحداهن محجبة في عمر عبلة والأخريات في حوالي الخمسين، إضافة إلى خمسة شباب في سن الجامعة.

قالت لها إحدى المرأتين ذاتي الخمسين:

-كملي، يا بنيتي... يعطيك الستر !

التفتت يمينا وشمالا لتتأكد من أن زينب ما زالت في القاعة:

-أردت أن أضيف فقط ما شاهدتم، فقط...ما شاهدتم !

ومرت على زينب التي كانت لا تزال تعتذر للأساتذة الغاضبين فأمسكت زينب بذراعها اليمنى... تبادلتا نظرة حادة ثم جرتها زينب بعيدا عن الناس وحررت ذراعها قبل أن تلطف النظر إليها:

-تعرفين، يا عبله؟

استعجلتها عبله:

-ماذا، ألا تنطقين ؟

نطقت زينب كما لو كانت تهمس:

-أنت وأنا يمكن أن نكون صديقتين !

انتفضت عبله:

-ليس أقل من عدوتين، أنت لست من هذا البلد، ولن يكون لك أبدا شرف الانتماء إليه، بعد أن بعته طوال أكثر من عشرين عاما، وتخلقت بأخلاق أمم غريبة عنه، وتشربت من أفكار وأنماط عيش أخرى... لقد تخليت عن هذا البلد وعشت لقضايا وأمم أخرى فلم عدت إليه، لتطعميه من فشلك الدولي؟ وأسست جمعية، لماذا، لتفرغي علينا عقدك، أيتها العانس، أم لتكون لك مطية سياسة، انتهازية؟...

استدارت عبله قاصدة سيارتها فلما رأتها زينب تفتحها صاحت فيها آمرة:

-عبله، انتظري !

توقفت يد البنت على باب السيارة:

-أنت بورجوازية مريضة، يا عبله، ضعيفة الشخصية، تحتقرين نفسك، لأنك عالة على أبيك وأمك... لا يمكنك أن تستقلي عنهما وتصبحي واعية وحرة، أنت مجرد عبدة لثروة أبيك وأمك، لهذا تكرهين نفسك وتكرهين الناس، تمارسين العنف لأنك شقية حتى اللسان، لست مستقلة ولا حرة، وبرغم كل ما قلته في القاعة، فإنك لا تحبين أحدا، لا شيئا، ولا أحد يحبك.. هذا العنف موجه إليك، منك إليك: إنك مريضة، لا تستطعين حمل نفسك وإيواءها !

آنئذ جمعت عبلة كل اللعاب الذي كان في فمها وبصقت على عمتها...

انطلقت عبلة بسيارتها كالريح ورفعت زينب المنديل إلى وجهها تمسح البصاق:

-كل هذه الكمية من اللعاب في فمها؟ !

لما تذكرت أن عليها أن تجمع حقيبتها من على المنصة اكتشفت وجود «السيدة الوقور» التي راقبت كل ما جرى:

-هذي عبله بنت الحاج محمد الرنجي، ابنة أخيك؟

أجابت زينب:

-تماما، مع الأسف !

وشرعت تبكي فساعدتها مدام المسكي على الدخول إلى القاعة:

-كان عليك تبهدليها، المغروره، قليلة التربيه !

قالت السيدة الوقور فلم تجد زينب، بعد طول تفكير، ما تقوله سوى:

-ولكنها في حاجة إلي !

لم تفهم السيدة ولكنها أكدت:

-الدم ما يروب !

ابتسمت زينب للمفارقة وصارت معها نحو سيارتها.

قصر البتول

توغلت بنا السيارة الفخمة في حي لا أعرفه، «أرقى»، «أحدث»، حي في المدينة:

-هذا حي لا أعرفه، سألت مدام المسكي بطريقة غير مباشرة !

ضحكت ضحكة خرجت بها عن وقارها المعهود ثم قالت وهي تحاول أن تكتم ضحكتها:

-يسمونه «حي الشفارة» أو ...« القراصنة» !

ضحكت بدوري، وأنا أتذكر أسماء أخرى من هذا النوع، تختصر الكثير من الكلام والوقائع ! ثم حطت بنا السيارة أمام مدخل فيلا اسمها «قصر البتول»:

-ستفرح بك البتول وتسعد !

تحفظت:

-ولكني لا أعرفها !

فأمسكت السيدة الوقور، في لطف كبير، بيدي اليمنى ووضعتها في يدها فأحسست، لأول مرة، بأن يدها ناعمة جدا ودافئة:

-لا تخافي، هي تعرفك وتعرف كل امرأة تفعل شيئا في هذا البلد !

لا شك أنها شعرت بي أحاول أن أسحب يدي من يدها إذ قالت وهي تستعين على إبقائها باليد الأخرى:

-لا ينبغي أن يذهب بك الظن بعيدا، إنها امرأة حرة، عفيفة وشريفة تحب مثلنا البلد وتريد له الخير والعافية، ستعجبك !

ممر طويل، فسيح وسط حديقة شاسعة مليئة بأنواع عديدة من الأشجار وألوان من الزهور:

-«ذوق وعناية، بكل تأكيد !»

-البتول بنت حلال، «بنت الخير في القلب الكبير» !

-« راديو المدينة لا يخطئ دائما، قصر كهذا إما يبني من السرقة والنهب وإما يكون من مخلفات إرث عظيم أو زواج سعيد !»

كأن مدام المسكي تقرأ أفكاري:

-السيدة الباتول ورثت هذه الفيلا عن زوجها الذي يعد من كبار وأشهر «المختفين» !

-«مختفو السم أم مختفو المحبة؟»

في نهاية الممر، وتحت شرفة تتدلى منها الزهور، تقف امرأة تجاوزت الستين، امرأة بادية السمرة لكنها مشعة تحت الضوء الخافت، نحيفة لكنها لطيفة المنظر، متغضنة الوجه لكنها ناعمة وعميقة الأحداق، حادة النظر، شعرها القصير مصبوغ بالحناء لكنه كثيف ومضيء، ترتدي جلباب تقليديا أصفر، بدون غطاء الرأس، مفتوحة الصدر، في رجليها بلغة صفراء تقليدية قديمة وعلى فمها ابتسامة عريضة تكاد تكون تلقائية لولا أحمر الشفاه المثير:

-«امرأة إيجابية، صلبة، مازالت قوية وفاتنة رغم كل ما ينطق به هذا الجسد من تعب عظيم، جسد يبدو أنه عنف عليه طويلا من غير أن يعتنف !»،

-السيدة البتول !

قالت مدام المسكي وهي تشير إلى تلك المرأة فمدت المرأة يدها اليمنى في اتجاه يدي فأحسست بضغط الخاتم الكبير في كفي:

-زينب الرنجي !

أضافت مدام المسكي فتقدمنا نحو بعضينا مادين الخد الأيمن فالخد الأيسر ونحن لا نزال متماسكين بالكفين الأيمن ثم شعرت بها تجرني أكثر فتركت جسدي يلتصق بجسدها ويستمع إليه بعد أن أحطنا بعضينا بذراعينا:

-«هذا جسد قد قاسى ما لا يعد ولا يطاق من الأهوال، جسدي لا يخطئ مثل هذه الأجساد إلا نادرا !»

-وأنا، وأنا، أنا هنا !

تدخلت مدام المسكي لتفك الارتباط وهي تتظاهر بالاحتجاج:

-أنت كل شي في كل شي، ألحبيبه، ربي يحفظك ويرعاك ويخليك لي ألاله طيب الطيب، لاله المسك، لاله الفن !

وساعدت البتول، وأنا أنفصل عنها، على أن تحضنها بسرعة فتعانقتا طويلا وهما تتمايلان بجسديهما وكأنهما تعصرانهما الواحد في الآخر !

وكذلك دخلنا إلى الصالون: صالون تقليدي، أرائك من العرعار وكذلك الموائد وأفرشة يغلب عليها الوردي والأصفر والبرتقالي ورائحة الورد في الأركان الأربعة طريا، أصفر، أحمر، أبيض، وردي...حوالي ثلاثين مترا مربعا، أنيقة، حميمة، مرحبة. كنت قد تعبت حقا من تلك الصالونات الحظائر، الصالونات-الواجهات الفارغة جدا، من شدة امتلائها، والضيقة من كثرة فساحتها

-«ملاعب التينس والروغبي» !

-نسينا زينب...سامحينا، أزينب، حمق السن والوحشة !

قالت البتول وهي تلقي بذراعيها فوق كتفي وتدفعني في اتجاه الركن الأقصى من الصالون:

-أنا سعيدة وفخورة بك، بكل امرأة، في هذا البلد، أية امرأة تتحرك...

-هذا من لطفك وكرمك والشرف، كل الشرف، لي...

الواقع أني خجلت من هذه العبارة:

-«هذا من لطفك وكرمك والشرف، كل الشرف، لي...» التي اعتبرتها من مخلفات تربيتي الأولى في بيت والدي، ولكني تنفست الصعداء، من جهة أخرى، ومرة أخرى، لأني تلقيت مثل هذه التربية التي تعلمت من خلالها طرق تصريف الخوف أو الرهبة، أي العنف العائلي ثم الاجتماعي، في عبارات جاهزة أعدت لاتقائه، وفي ذات الوقت لممارسته، بطرق آمنة نختصرها في المجاملة أو النفاق أو اللياقة الأدبية:

«الأدب»، «الصواب» و«جوابه على نابه، في حرير» !...

-امرأة لا أعرف سوى شيء من جسدها، كيف أسمح لنفسي بأن تشرف بـ«معرفتها» وأسمح لها بأن تصفها بالكرم واللطف؟ أهذا كل ما تعلمته من تربيتي ومن طاحونة السياسة؟ أم ترى هذه التربية، وهذه الطاحونة، هي التي تفسد علينا فرص الود ومناسبات الصفاء والحميمية؟ ألا ننتهي إلى الاحتياط من كل شيء، من كل الناس؟ ألا تعلمنا هذه التربية، هذه الطاحونة، اختزال الناس، وحتى العواطف والأفكار والانفعالات، وردهم إلى أمر واحد أوحد: لأي شيء يصلحون وكيف يمكن أن أستفيد منهم، أن أوظفهم، أي أن أستغلهم، أو أدفع شرهم؟ ليس كمحترفي السياسة الطاحونة، والتربية التقليدية، وهي تصطدم بالحداثة، من مختبر لتفريخ الأنانية والآلية! وماذا أريد، أكثر، من هذه المرأة غير اللطف والكرم؟ أفضل: مم أنا خائفة؟ أنا، بالفعل، خائفة منها... لأعترف بهذا! إذن مم أنا خائفة؟ من أن تستغلني؟ وفي أي شيء؟ تبدو أكبر مني خبرة وحنكة، أكثر صلابة وقوة، إيجابية أكثر مما أستطيع، أقدر على تسخيري فهل تستطيع أن تتحكم في حريتي وأن توجهها فيما تريده؟ السؤال المناسب والمعقول؟... بدون شك زائد ولا كثرة «الحيطة والحذر، يا رفيق»؟

لماذا أنا هنا، مٰذا جئت أفعل في هذا البيت الذي أعجبني، من النظـرة الأولى، مثلما أعجبتني صاحبته؟ مدام المسكي، ولا شك... مجاملـة لمـدام المسكي! وماذا أفعل: لم أعد قادرة على رفض طلبات المدام الكبرى، السيدة الوقور؟ تقول لي:

-هذا البلد «مهدد بالجهل» ولا يمكن أن ننقذه بدون مشـاركة النسـاء المتعلمات الواعيات...«الأنيقات»... «الأناقـة» فـي مواجهـة العنـف أو الخوف، العنف خوف والخوف قبح، بشاعة، ما أبشع العنـف أو الخـوف، انظـري... ملامـح العنيـف وملامـح المعنـف بـه...! «مـاذا تعنـي بالضبط؟»...«الأناقة في مواجهة العنف»؟ هل لهذا الكلام شيء من المعنى، حظ من الصحة؟ لا أصدق أنها تفكر خارج السياق التقليدي إلا بمقدار: مدام المسكي ضد الرجل! الأناقة عندها الكرم! الكرم عنـدها الصـدقة، بواسـع المعنى! الصدقة عندها أداة لدفع القلق! من أين تأتي بكل هذا الكـرم لتشـل تفكيري؟ وهل أصبحت مجرد طفلة متخلى عنها تتلقى الرعاية في جمعيتها، لا تحس معها بالقلق؟... أماه، أماه !

فأقول، بكثير من المجاملة والعطف:

-«صحيح، ولاشك، السلم ائتمان!»

-«والائتمان اطمئنان، الاطمئنان ثقة، ومنه اطمأن في أو بالمكان، أي أقام فيه واتخذه وطنا، واطمأن، أي سكن ورثبت واستقر... هذا في المعجم، يا زينب !»

-«وهذا في القرآن»، «وهذا في الحديث»، «وهذا في الأثر»، «وهـذا كلام أهل الله»، «وهذا تقوله بنات العلوي»... وتقول لـي ولا تكـف عـن القول فأقول ولا أكف عن تكرار:

-«صحيح، ولاشك!»... هل حلت مكان أمي حقا؟

-ماذا تقولين، يا زينب، هل تريدين شيئا آخر؟... اشربي الشاي قبل أن يبرد!

فلتة لسان رهيبة:

-أفكر في عبله !

غمزتني وهي تضغط بمرفقها على صدري:

-انسي الموضوع، الآن !

استمرت فلتة اللسان مدينة رهيبة:

-أشعر بنوع من الحاجة إليها !

-عبله، من؟

آلمني المرفق في صدري:

-بنت أخيها، عيانة مسكينة الله يشافيها !

وعادتا إلى موضوعهما...

كنت جالسة بينهما، كل واحدة منهما تكاد تضع كتفها على كتفي وأمامنا براد الشاي والأكواب الملونة، وكانتا مستغرقتين في الحديث عن الأطفال المشردين، عن الارتفاع المهول في أعداهم، عن تزايد العنف الذي يمارس عليهم، والذي يمارسونه على أنفسهم وعلى غيرهم...هذا هو الموضوع الذي جعلني أشرد !؟

-أرفض أن أساهم في تحويل المواطنين، ولو كانوا معوقين بالفعل، إلى جيش من المنكوبين الدائمين، من المتسولين المحترفين، مواطنين يعيشون على الصدقة والهبات !...

أحسست بكتف السيدة الوقور تدخل في كتفي:

-ولكن، يا زينب، يا بنتي، نترك الحال على ما هي عليه الآن ونسكت، نجمع أيدينا ونتوقف عن القيام بما نستطيع القيام به نحن، كل واحد من

موقعه وحسب إمكاناته؟ لمن نتركهم ولمن نتخلى عنهم، هؤلاء المغلـوبين، والحال هذه؟ للسماسرة وتجار البؤس البشري؟ من سيسمعهم؟ من سيراهم إذا لم نسمعهم نحن ونساعدهم على أن يسمعوا ويروا، من؟ من الخطـإ أن نطلب من جميع الناس أن يفعلوا نفس الشيء، كل شيء كما نـراه نحـن ونتصوره، والمشكلة الكبرى، أو الطامة، في هذا البلـد، أن لا أحـد يقـوم بعمله، من موقع الواجب والمسؤولية، ويكتفي حامدا شاكرا، بهذا العمل حين يتقنه ويتفانى في إنجازه، الكل يريد أكثر من نصيبه، أكثر مما يقـدر عليـه، يراكم فيتيه أو ينتظر «الحل الجذري» التام، «الحل الكامـل...السـحري»، والنتيجة، ما هي النتيجة؟ الخوف والعجز والرهبة، ضـيق الأفـق والأمـل واليد... كلنا خائفون، نرتعد من الخوف، أو غاضبون وقلقون، فلم لا نعترف بهذا الخوف وهذا القلق، لم لا نفعل... شيئا؟

-«ينطلق لسانها، هكذا، من حين لآخر، حين تحس بسـوء الفهـم أو النية !» أي سوء فهم؟ ولم وجدتني أردد، مرة أخرى:

«صحيح، ولاشك !؟...بعض الناس لا يمكن أن يُقْنِعُوا، ولو اسـتعملوا أقوى الحجج وأمتنها، لكنهم يسربون إلينا الشك، نوع من الشك قريـب مـن الإقناع أو شبيه به، عن طريق إصرارهم واستمرارهم، عن طريق شفافيتهم أو صدقهم، حسن نيتهم، وحتى عن طريق سوء النية، إن كانوا غير واعـين به، على عكس الكثيرين من ممتهني الحجاج، فقد نقتنع بالعادة والتكرار كما نقتنع بالحجة والبرهان، أحيانا أكثرأو أفضل! من عاشر قوما...؟ مـع مـن شفتك...؟»

أنقذتني الباتول:

-أنا متفقة مع زينب، التضامن واجب، من جهة الواجـب والتطـوع، لكنه لا يجب أن يخفي تقصيرنا، على مستويات أعلى وأنجـع، ولا يجعلنـا

نتستر أو ننسى، نغض الطرف على التقصير والتهاون، فتحول المسـؤولية، من جهة المسؤولين، إلى استقالة في شكل تعاطف مصحوب بالعجز، وتحول التضامن الإرادي المطلوب، من جهة المتضررين، إلى تنازل عن الحق في الكرامة والشرف والحرية والإرادة... شيء مفزع، هذه النتيجة أقصـد مـن جهة المدى البعيد: مسؤولون يشتكون ومواطنون يبكـون، مفـزع ومهـين للجميع !... للصدقة نعم... والتضامن والتكافل، نعم، ولكن لا يحق من جهة الدين والمسؤولية، أن نلبس الحق بالباطل ولا... الحمد لله وصل المسؤولون الجدد... الصلا والسلام... !

وعلت «الصلاة والسلام»، مع الزغاريد، من الداخل:

-«كأن ليس في هذا البيت إلا النساء !... من هم هؤلاء المسـؤولون الجدد؟»

لا حديث، هذه الأيام، نراديو المدينة وبعض الصـحف، سـوى عـن التشكيلة الجديدة للحكومة التي يسمونها «حكومـة التغييـر» أو «الحكومـة الوطنية» أو «التناوب»، خاصة عن الشخصية الأولى التي سـتتحمل فيهـا مسؤولية الوزير الأول... وها هو الرجل «نجم هذه الأيام، وربما ضحيتها»، في بيت السيدة البتول:

-«دخوله إلى هذا البيت يرفع البتول في نفسي درجـة أخـرى: مـن الصعب أن ننكر البطولة، بطولة أي شخص، ولو كنا ضده على طول الخط، بخصوص الشكل الذي ينجزها به وحتى الأهداف، الأبطال الحقيقيون أبطـال ولو كنا نكرههم ونختلف معهم، مثل الشهداء والشعراء، إلا الأدعياء والأشباه والمقلدون... هذه هي التربية: إنتاج الشخصية !»

ما زال يسلم كأنه عاد من سفر طويل إلى بيته !

–وها أنت قد بدأت المصالحة مع «آبائـــك»، يـــا زينـــب، يـــا بنـــت الرنجي !

من؟ من يتكلم معك، في هذه اللحظة الحرجة، الضيقة كعنق زجاجـــة المشحوذة كشفرة حلاقة؟

–«صوتي فقط، شيء من صوتي الباطني !»

ثلاثة رجال وخمس نساء !

الرجل «الزعيم» أعرفه، كما أعرف الآخرين، بل أعرفه أكثر مـــنهم: لمدة تزيد عن العشرين سنة، في فرنسا ! أما هؤلاء النسوة فلا أعرف مـــنهن سوى اثنتين لكن البتول كانت قد شرعت في التقديم بحس ومهارة محترفـــة، فلما وصل دوري واقترب مني «الزعيم»، قلت لنفســـي، بغيـــر قليـــل مـــن الإحراج:

–لن يستطيع أن يمد يده إلي، وإذا فعلها، وأهانني بذلك التجاهل، فإنني سأرد الإهانة إهانتين !

وجاء صوت البتول دافئا وحادا:

–اما هذه فبنتي زينب، زينب الرنجي، أستطيع أن أفـــاخر بهـــا كـــل «نسائك» !

تركتها تقدمني كما تشاء، وهو صـامت، قسمات وجهه محايـــدة حيـــادا قاتلا، لا ينظر إلي، فرأيت قامته ولون بشرته وكأنني لم أره قط، قبل ذلـــك: قامة والدي وبشرة وجهه، وعيناه تلمعان كعيني أبي حين كان يتكلف الوقـــار والحياد ! لذلك ترقبت المفاجأة بقلب أقل اضطرابا...

–تعرفين، ألبتول، منذ متى أعرف زينب؟... منـــذ أكتـــوبر 1975... تصوري! قالها من غير أن ينظر إلي أو يتخلص مـــن حيـــاده فاضـــطربت أسارير البتول قبل أن يغمرني بصره وتستغرقني بسمته:

-مرحبا زينب !

وضمني إليه في عناق طويل، حار، عارم إلى أن علت تصفيقات الحاضرين... ظل ممسكا بيدي اليسرى بكلتا يديه وأجلسني جنبه وهو يقول:

-لقد اشتقت إلى صوتك !

كثر الهمس والوشوشة في الصالون:

-تعرفت على زينب، سنة 1975، في باريز، في نانتير، حيث كنت أدير جلسة حول «ذكرى الشهيد»، كانت جلسة طغت عليها «قضية الوحدة الترابية للبلد»، إذ كان موضوعها «الشهيد والوحدة الترابية»، وفجأة، في خضم النقاش الحاد والمشاحنات الصاخبة، أسمع صوت امرأة يناديني باسمي الشخصي، من وسط القاعة الغاصة التي خيم عليها السكوت فورا:

-هل تستطيع ان تخبرنا، هنا، وبكل موضوعية وشجاعة، بالمبلغ الذي حصلتم عليه، ونصيبك أنت شخصيا منه، مقابل السكوت عن «اغتيال الشهيد»؟

وعادت تجلس في مكانها بينما عادت القاعة إلى الضجيج فلم أستطع أن أرد لأن القاعة كانت تقاطعني، في كل مرة أحاول فيها الرد، بالصفير والصراخ ! وليت هذه الوشاية-المؤامرة توقفت عند هذا الحد: أشاعت عني، كذلك، أعني زينب هذه البريئة أمامكم، أني أحمل بطاقة عضوية من «حزب العمال الإسرائيلي»!،... إلى الآن لم أعرف منها كيف كانت تبرع في صياغة الوشاية ونشرها، والأهم من هذا كيف كانت تصدق من طرف المناضلين والمتعاطفين، فهل يمكنك أن تفسري لي ذلك اليوم، يا زينب؟

كنت قد دخلت في بعضي واستنجدت بابتسامة لم أعرف كيف استطعت أن أحافظ عليها كل ذلك الوقت وكان الجميع يتكلفون الابتسامة

مثلي وكأنهم ينتظرون الصاعقة لكني التزمت الصمت والابتسام والزعيم نفسه لم ينتظر الرد:

-زينب يتمناها كل وزير أول وزيرة «للدعاية والوشاية» !

تضاحكوا متبادلين نظرات متسائلة:

-تصوروا أنها رفضت، آنذاك، وطيلة ما يزيد عن السنتين، عروضي الكثيرة من أجل الالتقاء بها، والأكثر من هذا أنها انتهت إلى اشتراط انضمامي إلى الفصيل الذي كانت تتزعمه: «فصيل الثورة الآن»، فقبلت ثمنا للقاء الزعيمة، زينب أول زعيم، عفوا زعيمة من هذا النوع، تفرض علي شرطا للالتقاء بها...

تزايدت الضحكات والترقب:

-وبطبيعة الحال قبلت، بعد نقاش حاد وطويل، دام منقطعا أكثر من خمس ساعات، أطروحتها القائلة: «فصيل الثورة الآن» هو نواة الحزب الثوري، وكانت تعني حِزْبَهَا، طبعا... ومنذ هذا الوقت وأنا عضو في حزب زينب، اللهم إلا إذا كانت قد طردتني غيابيا بتهمة الارتشاء والعمالة للصهيونية !

مازالوا يتضاحكون ويبتسمون:

-سعيد بلقائك، يا زينب، وهذه أرقام هواتفي، سأكون سعيدا بسماع تهم أو وشايات جديدة، منك، عديني، قيديني؟

كان قد وقف ووقف إثره الباقون:

-نراكم بخير، إن شاء الله !

جرت الباتول في اتجاه الباب لتسده:

-والعشاء؟ حرام عليكم ان تضيعوني في عشاء !

قال حازما:

–تنتظرنا مسؤوليات كثيرة، تعرفين !

وانحنى يقبل يدها:

«جنتلمان! جنتلمان وغاو رغم تقدم السن !»

ثم استدار نحو مدام المسكي:

–العشاء ساعدي به مدام المسكي، تتعاون به على أولادها المشردين !

–يعطيك الخير والستر، ردت السيدة الوقور وكأنها تبكي !

وخرجوا ونحن نتبعهم مودعات. كنت في آخر الموكب. وسط الممـر، وسط الحديقةالتي تفوح منها رائحة الورد، توقف، فجأة:

–زينب، فين زينب؟ ...انتظرونا لحظة، هنا، رجاء !

ورجع يجري نحوي:

–نسيت، تعالي نرجع دقيقة إلى الداخل !

أعرف أنه لا ينسى أبدا أي أمر مهم !

توقف، وسط الصالون، وهو لا يكف عن استطلاع المكان من حولنا:

–أريدك في خدمة، خدمة للبلد !

–«هو يأمر أبدا، يطلب، أو يلتمس، فقط !»

ومع ذلك قلت:

–تأمر، في قلب عيني !

وبدون نف ولا دوران أطلق المفاجأة:

–رشحتك وزيرة مكلفة بـ«التضامن والرعاية» في الحكومة الوطنيـة التي أعمل على تشكيلها وقد أكون الوزير الأول فيها !

كانت المفاجأة مزدوجة:

–أنت وزير أول، وأنا وزير الرعاية والتضامن، أين نحن، ماذا تغير؟

-أشياء كثيرة، بالداخل والخارج، تعريفينها وقد لا نختلف في كيفية تحليلها، إنما في نتائجها وفيما العمل بها... أرجوك، يا زينب، ساعدينا فنحن في حاجة إليك: أعني بلدك في حاجة إليك، فإما نحن وإما هم والهاوية !

-من، «هم» ؟

-هناك شخصية أخرى، من إياهم، تعمل بدورها على إيجاد تشكيلة حكومة، إما هم واستمرار التدهور وإما نحن !

-«إنه يستنهض في «الحس القتالي»: ها الأسود، هم وها الأبيض، نحن، في حرب، فمع من تحاربين؟ وهل ترك لي خيارا؟ لقد وجدت هذا المنطق دائما «طفوليا»، أي «أوليا»، بمعنى «بدائي»: وكأن الداخل إلى حرب أو مجرد خصومة يعود القهقري إلى طفولته أو إلى جد قبيلته. لهذا اخترت السلم ضد الحرب، منذ سنوات، لأظل «راشدة»، لكن ما علينا:

-لا أفهم لماذا قبلتم، وأنت بالذات، تشكيل حكومة، وفي هذا الوقت بالذات، إنها مغامرة بإرث الحزب وبتاريخك الشخصي !

-لا يهمني تاريخي الشخصي أمام مصلحة بلدي، أنا مجرد مواطن، جندي !

-لا، معذرة، يجب أن أفهم !

كان يريد أن يأخذني على حين غرة:

-أريد أن أفهم سر هذا التحول الكبير، الخطير !

-لقد قبلنا أن ننشئ هذه الحكومة لهدفين كبيرين، أعني لهدفين سياسيين استراتيجيين، أعني خارج جميع الاعتبارات الظرفية والحزبية، ونحن نعلم كل العلم بأن خصومنا، وأعداءنا كذلك، سيستغلون قصدنا النبيل أسوأ استغلال، إضافة إلى أننا قد نخيب أمل قواعدنا وأمل الجماهير الواسعة فينا، على المدى القصير:

أولا، تأسيس تناوب حقيق، أعني تناوب ديمقراطيا يخرج من صناديق الاقتراع وتكون فيه الأغلبية أغلبية والمعارضة معارضة حقا، أعني أن نعيد الثقة إلى الشعب في الديمقراطية لنحصنه ونحرره من قوى التخلف.

وانطلاقا من ذلك، وتأسيسا عليه، وهذا هو هدفنا الكبير الثاني والأهم، إعداد البلد كله بمساعدة وتجنيد كل قواه الحية المخلصة، للانخراط في العالم الحديث انخراطا فعليا ومندمجا حقا، أعني أن نكون أعضاء حقيقيين في المجتمع الدولي ومساهمين عضويين فيه بالفعل، أعني فاعلين لا مجرد منفعلين وتابعين مستغلين... أمر يقتضي منا تضحية كبيرة ووعيا خاصا لمواجهة انسداد الأفق الذي يزداد سوادا في وجهنا، اليوم وغدا، يعني أن نتجاوز حساباتنا الحزبية والظرفية، أن نضحي بمصالحنا الآنية لتطويق الأزمة وإنقاذ مصالحنا الكبرى التي لا يمكن بدونها أن ننجز لا أهدافنا العامة ولا أهدافنا الخاصة... نحن في حاجة ملحة إلى امرأة في مستوى تجربتك ونظافتك وإرادتك، لها ما لك من خبرة وحنكة، من علاقات دولية كذلك كثيرة وشخصية ونضالية... أعني، بصريح العبارة ومباشرها أن تكوني معنا، في هذه الحكومة الوطنية، بكل المقاييس الوطنية والأخلاقية، متحملة لمسؤولية رسمية هامة، وأنا أعرض عليك منصب وزيرة «التضامن والرعاية » وأنا أعرف جيدا ان قبوله يتطلب كفاءة خاصة وشجاعة، بل مغامرة، وأنت لا تنقصك لا هذه ولا تلك...

-هل لديكم ضمانات معينة لتحقيق هذه الأهداف؟

-ليست لدينا أية ضمانات من هذا النوع، إنها واجهة نضالية أخرى متقدمة وخطرة جدا، حساب الربح فيها أقل من حساب الخسارة، لكن ينبغي أن نتحمل المسؤولية ونستغل الفرصة لترميم حظوظ البلد وحظوظ الحزب، كل الأحزاب الوطنية المتكتلة الآن، هل فهمت؟

-«هل اقتنعت؟ الصراحة؟ لا، صعب !»

-أعطيني مهلة للتفكير والمشاورة، كم من الوقت؟

-ينقصنا الوقت، المفاوضات صعبة للغاية، لا أخفيك. خمسة أيام فقط، كافية؟

-عشرة أيام، على الأقل، أنا بطيئة التفكير والقرار !

-لا، كثير. كثير جدا، أريدك جنبي في أقرب وقت، خذي ستة أيام !

-آسفة، ليس أقل من أسبوع !

-ستكونين وزيرة صعبة، قوية، ما أريده، وزراء أقوياء... وإياك أن تترددي في الأمر، هواتفي معك !

-أدركت المعنى المبطن في «وإياك أن تترددي» رغم «هواتفي معك» !

-على كل حال، لن يكون هذا أول ولا آخر وهم أنخرط فيه إذا ما كتب لي أن أنخرط !

-ستنخرطين فيه، إن شاء الله، لا أريدك أن تضيعي هذه الفرصة التاريخية، هذه المغامرة !

-«مغامرة، مغامرة كبيرة جدا !»

-أعدك بأني سأحاول تغليب كفة الجوانب الإيجابية إذا ظهر لي ما هو إيجابي !

-ستفعلين، بإذن الله تعالى وقوته، سننجح، سترين، عمت مساء، تأخرت عن الجماعة !

وقبلني أربع قبلات حارة قبل أن أتبعه إلى الباب وأتركه يتابع طريقه الطويل:

-رافقتكم السلامة !

-إلى لقاء عاجل !

وعدت إلى مكاني في الصالون فالتحقت بي، بعد حين، مدام المسكي ثم البتول. أخذت الأولى تشكو من صداع حاد في رقبتها:

-أظن أنني سأستأذن لأنصرف... زينب، أوصلك، الآن؟

-«هل انتهت مهمتها؟ كل شيء يبدو مرتبا بشكل مسبق: آه كم أشك وأرتاب !»

-زينب ستبقى معي، سأوصلها بعد العشاء...

نظرت إلي تتفحص ملامحي فبقيت محايدة بينهما فتابعت البتول:

-كنا نريدك للعشاء معنا، لكن إذا كنت متعبة...

-جدا، مخلوفة قريبا، أما زينب فإنني سأراها إذا، في الوزارة، أليس كذلك، يا بنتي؟

-أكيد، قلت وأنا أقوم لتوديعها !

وعانقتني، وهي تعصرني، كأن إحدانا ستسافر بعيدا، لمدة طويلة... ثم خرجت مع البتول كما دخلت في البداية !

ليلة الحداد

انصرف جميع المدعوين إذن، بمن فيهم مدام المسكي، وبقيت مع البتول التي أصرت على أن نستمر معا في السهر إلى أن:

-يطيب لنا النوم، نستفيد من ليل هذا الربيع المبكر، فقد يأتي الصيف قبل أوانه !

لم يكن العشاء إلا حجة ولم تكن لي فيه رغبة:

-أنا متعودة على إكمال عشائي بالنوم والأحلام !

-وأنا آكل القليل لكي أنام، المعدة الفارغة تسبب الأرق !

لم استبقتني إذن، بتواطؤ واضح مع «ماما المسكي»؟

الحقيقة أنني وافقت على البقاء معها لأنني أحسست بأنها «مكلفة بالزيادة في إقناعي». لكنا لما جلسنا وجها لوجه تحدثنا في شيء آخر....

-سأقول لك سرا، يا زينب !

اللهم اجعله خيرا وأخيرا، فقد كثرت علي الأسرار والألغاز هذا اليوم وما أحوجني إلى كتاب أو فيلم أو موسيقى !

-خذي، خذي هذه الشهيوه !

لم أمد يدي ولم أعتذر: أكلت ما يكفيني واستمعت إلى ما يغنيني من حديث عن فوائد سمك القرب المشوي والقمرون، أو القريدس، المسلوق !

-كنت سأكون واحدة من عائلة الرنجي !

لا تكف سلالة الرنجي عن التوالد والظهور هذه الأيام، من كل الجهات وبكل الألوان:

-السلامة، يا ربي !

الأسى في عينيها، حنين غامض أو ندم عميق؟

-الصادق وأنا كنا سنتزوج !

ولكن الله سلم !

-وكيف نجوت من هذه الكارثة، لطف الله؟

-كان والدي صديقا لوالدك، كان الصادق يقضي عندنا، في أسفي، كل عطلة، وكان هناك ما يشبه الاتفاق السري، وسط العائلتين، بأننا سنكون لبعضنا نظرا لما كان يجمعنا من اهتمامات مشتركة: حب الكتب والتفوق في الدراسة وكتابة الشعر...

-الصادق كان يكتب الشعر، نحن، وراثيا، لا نفهم إلا في المال و«السياسة» و«بعض فنون الحرب»؟

وانتبهت إلى أني نسيتها هي، أقصيتها:

-وأنت، مازلت تكتبين الشعر؟ عليك ملامح الشعراء...والله !

-ليس للشعراء ولا للشاعرات ملامح خاصة، الصادق كان شاعرا بالفعل، من جهة الولع والموهبة، لو أمهله العمر..

-فرق بينكما الموت، إذن؟

سألت شامتة في أخي ومن غير أن أفهم سر استعجالي لها:

-«عائلتي لن تكف عن مفاجأتي و...إبهاري! الإبهار، قلت؟»

-حصلت على الباكلوريا سنة قبله، عام 1957، كنا اتفقنا على أن نرحل معا إلى فرنسا، هو لدراسة الطب وأنا لدراسة الفلسفة... انتظرته سنة، حصل على الباكلوريا فسبقته إلى مدريد بعد أن تواعدنا على أن يلحق بي عند خالتي، أسبوعا بعد ذلك... انتظرت أسبوعا ثم أسبوعا آخر. ثم أسبوعا آخر كتبت إلى أختي وكَتَبَتْ إليَ «الصادق لا يفيق من الشرب لكنه سيلحق بك إذا فاق !»، وانتظرته أسابيع أخرى فلم يفق من الشرب فجمعت أمتعتي وغادرت مدريد مغيرة وجهتي إلى لشبونة وأنا أردد:

-منذ الآن لن أنتظر رجلا، ولا دقيقة، من جهة العواطف، ولن يخطر له على بال، ولا لأحد غيره، أني في البرتغال !

يبدو أنه جاء، عشر سنوات بعد هذا، يبحث عني عند خالتي، في مدريد، ولكن لا أحد كان لديه عنواني والغالب، من جهة ميوله الانتحارية المفاجئة، أنه وجد، في خمر إسبانيا ومقاهيها، الملاذ والخلاص إلى أن توفي هناك، في خمارة بين أرانخويس ومدريد، تعرفين الحكاية، أظن...

فهمت لماذا كان شريط «كونشيرتو أرانخويس» يدور في المسجلة: ليلة حداد !

-الحقيقة أنني لم أعرف الصادق جيدا، كنت صغيرة، وكان منطويا، دائما سكران، يثير في الأسرة مشاعر الخجل والعار، كأنه كان ينتقم من شيء لا يعرفه، شيء موجود عندنا في الأسرة لا نخجل منه نحن، باقي الأسرة، بينما هو ... !

ترددت قليلا قبل أن تتابع:

-ولا أنا استطعت ان أعرف مم كان ينتقم، لماذا كان يريد الانتحار بتلك الطريقة بعد أن تغير بغتة، من جهة الطموح والهمة...

تصورت أنني، فجأة، فهمت شيئا، في العائلة:

-نحن لا نكمل أي شيء نبدأه، أي شيء، ولا نجني ثماره !

ولم تسمع أو تفهم، ربما لأنها تفكر في أشياء أخرى:

-تصوري أنني درست الطب والفلسفة معا، كأنه، من جهة الرغبة والحال، ظل معي... سكنت في صخب، وفوضى الحياة، بحي «روشيو» الشمالي، غير بعيدة من «المسرح الوطني ضونا ماريه2»، قبل أن يلتهمه الحريق، قبل أن يوشك حريق 1964...كنت نائمة والحريق يلعلع في «روشيو»، جاري هو الذي كسر الباب وانتشلني منه، اكتشفت أن هذا الجار

من البلد بدوره، كان يدرس القانون بجامعة «كويمبره»، فنشأت بيننا صداقة عميقة، ثم حب...

-«وجمع بينهما الحريق، عنوان قصة رومانسية جميلة في التلفزيون، إنتاج ضخم مصري أو برازيلي أو مكسيكي !»

-ثم تبعته إلى «كويمبره» وتوقفت عن دراسة الفلسفة لأتفرغ للطب... كان يهزأ ويقول:

-أول المودة بيننا، يا بتول، حريق وآخرها شخير !

ذلك أني سألته كيف عرف بوجودي في الغرفة وقت الحريق أجاب:

-كان شخيرك أعلى من صفارات الإنذار !

وتخرجنا وتزوجنا وبقينا هناك، لم يكن البرتغال يختلف كثيرا عن البلد إلا من جهة المستعمرات التي ترهقه... واشتغلت في مستشفى عمومي بينما اشتغل عبد الرزاق في مكتب محاماة زميل لنا سيصبح، بعد سنوات رئيس دولة. لم تكن، من جهة الحاجة إلى المخلصين، المشاكل والصعوبات قليلة، فانخرطنا فيها مناضلين إلى أن نسينا أنفسنا وأسرنا...

-«نضال وزواج وعمل، نضال متوازن، يا زينب!»

-سنة 1973، في شهر يونيو، إذا لم تخني الذاكرة، توفي والد عبد الرزاق فاضطر إلى السفر إلى البلد، لكنه لم يرجع إلى البرتغال بعد هذه السفرة: لا أحد من الأصدقاء أو الأقارب رآه في البلد مع أننا كنا متأكدين من أنه خرج من مطار لشبونة وامتطى طائرة ونزل بالفعل في مطار الدار البيضاء !

-«وذقت عذاب الاختطاف بدورك !»

يا ربي كم تحب النساء الحديث عن ماضيهن مع الرجال وكم تخلصن للذكريات !

-أردت أن أقول لك، من هذه الجهة، أننا نتشابه قليلا !

نتشابه، هي وأنا؟ من جهة ماذا وبأية مناسبة سعيدة؟ الحداد؟ لا أحبه ولا أطيقه !

-من أية ناحية؟

اعتَرَضْتُ بشيء من القسوة:

-« إذا كانت تريد أن تقترب مني أكثر فليس بهذه الطريقة، أن تحملني حدادا شبيها بحدادها لا رغبة لي فيه ولا طاقة لي به: كلنا نتشابه، نحب رجلا فيتخلف عنا، أو نتخلف عنه، دقيقة أو دهرا، فنمل الانتظار، فنحاول أن نبدأ من جديد، نهرع إلى رجل آخر، أو إلى قضية... أي سر، أية معجزة في هذا الأمر يجعلنا نتشابه أو لا نتشابه، هي وأنا، دون بقية النساء، دون الرجال؟...»

نادمة أم محتارة؟ في مأزق؟ أساعدها:

-كأنها قصتي بالفعل، أنا ثرت، إذ يصعب علي أن أقول انتظرت أو توقعت، على إبراهيم، حبي الأول وزميلي في الدراسة، لأنه رضي أن يتوقف عن الدراسة ويشتغل موظفا في الجمارك ولأني أنا، بعد كل المعاناة، التي تذكرين، من صعوبة الوقت، ولا شك، لم أوافقه على قيمة النضال من الداخل، آنذاك، بطبيعة الحال... حين دخلت في علاقة مع توني، رفيقي الشيلي، كان ذلك بسبب أنه أنقذني من الحبس مرتين، وعلى أية حال عاد بدوره، في زيارة إلى الشيلي، ولم يرجع منه...هو كذلك، وإلى الآن، في عداد المختفين !

-«لم تبكي؟ الدمع سهل إلى هذه الدرجة؟ ولم لا أبكي؟»

دموع ساخنة، صامتة، صغيرة، عاقة، أشد إيلاما من السم !...

تعالي نذهب إلى المكتبة !

قالت وهي تقف وتمد نحوي علبة المناديل...

-كأن هذا الحداد، من جهة التعاسة، لا حد له !

أضافت بصوت خافت:

-«ليس أفضل من مكتبة، أو كنيسة، لممارسة الحداد السري في العلن !»

في المكتبة أثار انتباهي وجود صورتين مختلفتين متقابلتين كل واحدة منهما على جدار وليس في هذا المكان صورة غيرهما:

-هذه الملامح أعرفها !

-طبعا تعرفينها: تلك صورة الصادق... وهذه صورة عبد الرزاق !

مازوخية هذه المرأة؟ أيعقل؟... معا !

-اسمحي لي، لا أفهم لماذا تحتفظين بالصورتين معا !

عاد النور، ذلك النور البهيج الذي رأيته في عينيها أول مرة وأنا في الممر، يشع من عينيها:

-هما الآن، الصادق وعبد الرزاق، مجرد ذكرى، لكنهما كل ما تبقى لدي من الدنيا، زادي وملاذي، والآن أستطيع أن أقول لهما معا، بدون الخوف، من جهة الغيرة، ومن جهة الذكورية والأنانية، وأنا مطمئنة تماما إلى أنهما سيفهماني، في وحدتهما وبرودة العالم من حولهما:

« لقد أحببتكما حبا واحدا كما لو أنكما، من جهة القلب العاشق لكما، شخص واحد ! »

مفكرة كبيرة سوداء فوق المكتب:

-تكتبين مذكراتك؟

سألتها لعلي أنجح في تحويل مجرى الحديث وتجنب البكاء من جديد !

ضحكت وضحكت بالفعل هذه المرة، بل قهقهت:

-مذكراتي، وماذا أقول فيها: أحياني الحب مرتين وقتلني مـرتين؟...
ألم تقرئي ما على غلافها، المفكرة؟

«مفكرة الموت والخير» !

وتابعت وكأنها تكتب:

-إني أفكر في الموت، من جهة معنى الدنيا وعلاقته بالخير !

اضطربت، هل خفت أم بهت أم بوغت؟

-تعنين في علاقته بموت «رجليك»، اسمحي لي عن كلمة «رجلين»؟

استمرت تتكلم وكأنها مازالت تكتب:

-من جهة، ومن جهة أخرى في علاقته بالخير، لقد اكتشفت أن الـذين لا يفكرون أبدا في الموت هم الذين لا يفكرون أبدا في الحياة !

كنت قد تجرأت على تصفح المفكرة السوداء:

-الحياة لا شيء، في الواقع، عبور سريع سواء طال أو قصر في هـذه الدنيا، الحياة هي الخير، هل تعرفين ما الخير حقا، يا زينب؟

-«أنا لا أفكر لا في الموت ولا في الحداد وكأنني لن أموت يوما ولـن أفقد أحدا، لا نفسي ولا أي عزيز، انا أطوي صفحات مـذكراتي البيضـاء، أجمعها ليوم موعود قد لا يأتي !»

لم أكن أنتظر السؤال، بطبيعة الحال، فارتجلت الجواب:

-خدمة الناس، تقديمهم على نفسك، العمل الصالح، أي الصالح العـام، مثلا !!

-والحب، يا زينب، الحب، لأن الحب هـو الخيـر، إذا لـم نحـب لا نستطيع فعل شيء غير أناني، من جهة، أما من جهة أخرى، فـإن المـرء، حين يطيل التفكير في الدنيا، أو في الموت فيها، فهما وجهان لشيء واحـد،

يجد الحياة فارغة، تافهة، عابرة بسرعة البرق، فكيف يملأها ويطيلها؟ بالمال والجاه؟... بالبنين؟

-«مثل إخوتي الأغنياء؟ !»،

-ولينظر إليها الآن، من جهة الحب، كم هي طويلة وغنية، كم هو قوي ومهم، أقوى من الموت وأغنى من الدنيا، من لحظته في الدنيا ونصيبه منها، الحب، كالعمل الصالح، يطيل العمر القصير، يجعل الإنسان سرمديا... لهذا أله الصالحون والعشاق !

-ولكن الناس، عندنا وفي كثير من الدول الأخرى، كلما فكروا في الموت ازدادوا لهسة و... ذلا !

لماذا قلت هذا؟ «الناس»، من الناس، من ؟

«لهس كلب الزبالة

لهس رجل الأعمال

لهست الكلبة

لهست زوجة رجل الأعمال

لهس الطفل مما لهست أمه

ولهس الجرو

لاهسوا على أنفسهم جميعا

لقد لهطوا

فمن لهط بهم

أنا اللاهط

إلا قومي

كفاني»

ص. ر .

-هذه المفكرة ملأى بشعر الصادق، كان يكتب بالدارجة !؟

لم تسمعني؟ كنت أكلم نفسي؟

إبراهيم بدوره كان يكتب الشعر ويبعث به إلي لما كنتُ في الخارج !

كيف أفلتت هذه العبارة مني؟ هل يمكن أن أتماهى إلى هذا الحد مع هؤلاء «البورجوازيات»، «الوحيدات»، «المسنات»، «الهاربات» مما ورث أو سرق أو مل أو أخاف؟

-وهل احتفظت بقصائده؟

التقطتها إذن؟ ولم تسألني إن كنت أُحتفظ بها؟

-احتفظت ببعضها لأنقذها من التلف، تعرفين: الكثير من الشعراء متلفون !

هل كانت تبتسم حقا أم خيل إلي؟ ولماذا لم أقل لها:

-«عز علي أن أمزقها !»؟

-وطبعا، احتفظت بالقصائد التي تخصك، بشكل مباشر، من جهة النرجسية، أظن !

وكيف عرفت؟ أنا لم أقل لها بعد:

-تماما، كما فعلت مع شعر الصادق، من جهة ما يرضيك أنت أيضا، أظن، مع فارق أن إبراهيم مازال حيا !

«يا للقسوة: إبراهيم مازال حيا !»

-وقد اشتريت شقيقتك بنفس العمارة ونفس الطابق الذي يسكن فيه وحده، أعرف... حافظي على هذا الشعر فقد ينفعك يا زينب، ذات يوم، ويساعدك على إعطاء معنى لحياتك وإطالة ما يتبقى منها !

-«أسراري، يا ماما المسكي، عيب عليك !»

ليس لفضول مدام المسكي كابح ولا حدود، لقد صارت أمـي بـالرغم مني، وها هي تفرض علي خالة:

-«عبله، مسكينة، يجب أن أعلمها شيئا من الشعر!»

-هل يمكن أن أستعير منك بعض قصائد الصادق؟

-خذيها معك، السائق في انتظارك ليوصلك، تعالي...

تريد الآن أن تبقى وحدها لتبكي، للحداد...

-«حدادي قريب بدوره أم تراه قد بدأ في غفلة مني، ولم أشعر بالحاجة الآن إلى إبراهيم، إلى البكاء !؟»

ليل الصالحية بارد، في فبراير.. متقلب !

-«أهكذا كان ليل جدتي صالحة وصالحه؟ »

-«الحب أناقتنا الوحيدة، خارج الموضة، ضد الزمن، ضـد الرجـل، لمقاومة الشيخوخة» الحب، كلمات البتول، تضرب، في رأسي، لا تصل إلى قلبي بعد، كأنها بعيدة، تلك الكلمات البسيطة، كل البعد، عن جسـدي، هـل بسبب ما فيها من «نسوية فحولية»، من «أنانية غيرية»، من «تضخم»...؟:

-« كيف أنكر أن حدادي، عن نفسي، لم يبدأ بعد؟ لأن إبراهيم مـازال حيا؟ لأن الموت لم يأخذ مني، بعد، كل شيء؟ لأني لم أفكر، بعد وبالشـكل الملائم، في نفسي؟ وما هو الشكل الملائم للتفكير الملائم في النفس؟ غيري؟ لقد وجدت، على ما يظهر لي الآن، في هذا الليل الذي برد فجـأة، أن كـل أفكاري، وكذلك عواطفي، قد تقاسمتها البتول ومدام المسـكي وعبلـه و... ملتقى سبع طرق، فكيف أنام، في منتصف عمري؟ »

مفكرة الحب والإرادة:

آخر فبراير، الرابعة، «عمارة دار السعادة»، الشقة رقم 13، الطـابق الثالث: مازال النور في رقم 15، مازلت مستيقظة، مازلت أفكـر، وحيـدة، حزينة: ماذا أفعل؟

تمت في الرباط بتاريخ 26 يونيو 1999

أريانة

أمـــــارة

يحذرني العربي الشيهب، وكأنه يحذر نفسه:

– هذا الوقت ليس الزمان فلا تغتر بأوانه!

ثم يحكي عن نفسه، وكأنه يحكي عني، يتماهى بي:

– نفس المشهد يتكرر في نفس، أو مثل، هذا الوقت: أهبط من شقتي، في الطابق الرابع، فأجدني في باب العمارة، بشارع إميل زولا. زنقة خريبكة. أمشي حتى ساحة النصر. أقف في محطة الطاكسيات، أنتظر. تأتي امرأة تنتظر الطاكسي بدورها. نركب معا أول سيارة، خلف السائق. لا نختار أي اتجاه. لا نتكلم. لا يتكلم السائق. يكتفي السائق باختيار الاتجاه. شارع رحال المسكيني. شارع المعاني. شارع عبد المومن. يدخل الطاكسي في زقاق ضيق. يقف أمام عمارة صغيرة من ثلاثة طوابق. ننزل. ينصرف السائق. نصعد معا إلى الطابق الثالث. ندخل شقة من صالون، وغرفة نوم، ومطبخ. نذهب مباشرة إلى غرفة النوم. أخلع ملابسي أمام النافذة المشرعة. تخلع ملابسها أمام المرآة التي تحتل نصف الجدران المقابل للنافذة. أضع عيني في عينيها كأني أغطس في يم عطر، دافئ في البداية لكنه يظل يسخن حتى يصير مثل شمس صيفية. نختفي تحت غطاء السرير العريض كأننا ننزل إلى البحر. يغمرنا الفيروز طيلة وقت لا يحسب. وننزل معا إلى باب العمارة منهكين، صامتين، سعيدين. نجد نفس الطاكسي في انتظارنا. نصعد خلف السائق صامتين. ينطلق السائق صامتا. نخرج من ذاك الزقاق الضيق. شارع عبد المومن. شارع المعاني. رحال المسكيني. ساحة النصر. ننزل من الطاكسي. تنصرف في اتجاه لآله ياقوت. أنصرف في اتجاه إميل زولا.

أصعد إلى شقتي في الطابق الرابع. الساعة الثانية، نهارا أو ليلا؟ أنام قليلا قبل أن أذهب إلى العمل. أستيقظ فأجد عطر المرأة يملأ أنفي، كل جسدي. أغتسل. يصبح العطر ألطف:

ـ الله، الله، ما ألطف هذا العطر!

ـ اللهم صلي على النبي!

يعلق زميل أو زميلة والجميع يبتسم. أكتفي بابتسامة بدوري وأجلس إلى مكتبي.

أستطيع أن أتذكر وجه هذه المرأة، عينيها بالخصوص، ودفء بدنها، شمسه وبحره، مده وجزره، هديره. أتذكر كذلك عطرها النفاذ اللطيف ومسام جسدها الحارة، التي لا تبرد أبدا، التي تنفث العطر النفاذ اللطيف كأنها هي التي تصنعه وترش به الفضاء...

–من تكون إذن، هذه المرأة التي تشبه البحر الدافئ الهادر والشمس الحارة العطرة، يتساءل العربي الشيهب دائما وكأنه يبكي؟

ثم يضيف خائبا:

– تتبدل، أو ترتقي، من البحر إلى الشمس، أو العكس !

أو يختم منهكا ضائعا في صورة:

– صورة ؟ صورة فقط !

صورة؟ صورة من؟ بالضبط ، أسيدي العربي الشيهب!

– حلم!

حلم؟ حلم يقظة أو نوم؟ يقظة الليل أو يقظة النهار؟ نوم طبيعي أو تحت تأثير مخدر؟ نوم قيلولة، صباح، آخر النهار، بداية الليل ؟

– ذكرى!

ذكرى؟ ذكرى من؟ ذكرى متى، أين؟ في أي عمر؟ في أية حال؟

- امرأة مكبوتة، ممنوعة!

امرأة متزوجة؟ زوجة من؟ ولماذا تلبسني هكذا، تتناوب علي حالاتها شمسا وبحرا ؟

- لاشك أنها عاهر!

عاهر أمولاي العربي؟البغي المقدسة؟ الحاضنة المربية؟ الفاتحة للشهوة أو لمتاهة الهلاك؟

- أو صبية!

صبية؟ الصبية الجنية، تلك التي تولد جاهزة للذة، ناضجة، أو تلك التي تتظاهر بالمتعة لتفرغ قلوب الرجال، والنساء، وهي تمضغ العلك في جلبة؟

- وهم، ألمسلك، وهم وخلاص!

وهم ؟ يا للوهم الفاتن، الملغز، المعذب، الممتع، المخدر، المنبه!

ويضيف العربي الشيهب، كأنه يقلدني، أو يزايد:

- أنا على يقين تام من أني قد لا أستطيع التعرف عليها لو صادفتها خارج ذاك الوقت، في مكان آخر، بالرغم من أني لا أخطئها أبدا عندما تأتي إلى محطة الطاكسيات، وقبل أن تصلني رائحة عطرها...

ثم يعلق مستغربا:

- امرأة تلبس الأسود دائما!

كم من امرأة تستطيع أن تلبس الأسود هكذا، بكل هذا السحر؟ تبدو في الظاهر كأنها في كفن: سحر الجثة!

- من تغريه ميتة؟

نلبس الثياب لكي تلبسنا، نستتر وهي تعرينا أو تفضحنا، وهي تخفينا... حكاية معروفة!

- مثل قوانين السير، لا، مثل الليل، مثل لغتنا!

ما علينا، تابع، أيها الخائف من نفسه، تابع، ألعربي:

ــ ولقد شككت في نساء كثيرات، منهن زميلات وجارات، لكن لا واحدة منهن تملك نفس العطر ولا نفس الحرارة: عطر فريد و سخونة خاصة، عينان كالبحر، أو كالشمس، حسب الوقت والحال. هذا كل هويتها: سواد يسكنه البحر والشمس، يعبق بالعطر النفاذ اللطيف، لا يبرد أبدا، كأن البحر رماده فقط، ليس البحر ماء: المرأة الحية، التتين حيوان الماء والنار!

وسائق الطاكسي الصغير، الذي يقلنا دائما في نفس الوقت، ويعيدنا في نفس الوقت، وفي نفس السيارة، "الفيات أونو" الحمراء، من يكون؟ مجرد سائق مثل بقية السواق؟ لا، هو أذكر يديه الغليظتين، لكنني لا أذكر غير هاتين اليدين الطويلتين، الغليظتين اللتين يغطيهما زغب كثيف!

ومن صاحب، أو صاحبة، تلك الشقة الصغيرة، ذات الألوان الفيروزية في ذلك الزقاق الضيق الذي لا أعرف اسمه؟ عمارة متواضعة تحوي شقة بهية الفيروز! من تكون أو يكون؟

– كم قضيت، والله يا لمسلك، من الساعات الطويلة، في البيت أو المكتب، وأنا أحاول أن أفك هذا اللغز: أريد أن أعرف ما يقع لي بالضبط، ما يحدث لي أنا الصحافي، الذي يوصف بالكبير، الذي لم يستعص عليه أي لغز من قبل، هل يعقل أن أعيش حالة كهذه، بين النار والماء، بين اليقظة والنوم، بين الحياة والموت، بين العقل والجنون، كائنا وغير كائن، طائعا ومجبرا، معذبا، خارج عقلي، سعيدا وشقيا؟

ثم يستدرك العربي الشيهب متمسكا ببقية عقل، أو منبها على نزيف العقل:

– لا أريد أن يقول لي أحد إني أحب، إننا نعشق العشق، نتوق إليه أو نحلم به، أكثر مما نعشق بالفعل، ولن يستطيع أي واحد، مهما أوتي من

الإرادة والصدق، أن يقنعني بأنه يحب، بأنه أحب ذات يوم، بأنه سيحب ذات يوم، أو على الأقل اعترف بالحب، فلم أقنع نفسي بهذا الوهم؟ هذا الوقت ليس الآن، ليس الوقت، كابوس!

بدوري، ذات صباح، وأنا أسير في اتجاه المكتب، سمعت هاتفا بداخلي يقول:

– لماذا تصر على تفكيك هذه اللذة، التي تسميها اللغز، وماذا ستربح من هذا التفكيك؟ اترك جسدك يكتشف، قد يكون أذكى منك أو على الأقل أصدق قد يكون الجسد الحل، الخلاص!

سألت الهاتف بصوت عال:

– من أنت، وماذا تريد مني؟

قال الهاتف هامسا في رقة:

– أنا عزيزي، الاسم العائلي الذي تخليت عنه وأنت طفل، مراهق أقصد، يوم احتجت إلى ورقة الحالة المدنية من أجل امتحان الشهادة الابتدائية!

وارتفع صوتي طويلا حتى اجتمع حولي بعض المارة فهمس هاتفي في رفق من جديد:

– أهذا ما تريده، أن يعتبرك الناس أحمق، أنت العاشق؟

فانتفض عقلي:

– أجل الأمر، أجله إلى أن نستشير مالكا!

مالك، من يكون هذا الآخر بدوره؟

– توأمك، يا ملوك، قال صوت آخر ادعى أن اسمه الراضي، الاسم الذي كان والدي يريد إطلاقه علي قبل أن يكتشف أننا توأمان في بطن الوالدة فسمانا مالكا ومملوكا: مملوك عزيزي كان سيكون أفضل من مملوك لمسلك،

أجل كبقية خلق الله، أجل، أجل والله!

وفوق مكتبي وجدت رواية لكاتب مغربي تحمل عنوان "شجر الصور" فلم أتركها إلا بعد أن أنهيت قراءتها. آنئذ، وقد بقيت وحدي في الجريدة، كتبت عما يحدث لي وقررت أن أنشره في صفحة " افتح قلبك" باسم مستعار: مالك عزيزي!

ولأني لا أعرف اسم تلك المرأة فقد أعطيتها، بوحي من تلك الرواية، اسم: أمارة!

ولقد تلقيت، وفي ظرف الأسبوع الأول وحده، عشرات الرسائل من قراء الجريدة أستطيع تصنيفها الآن إلى ثلاثة أصناف:

صنف أول ينصحني بزيارة طبيب نفساني، أو ولي من أولياء الله الصالحين، أو عرافة ملهمة، أو ساحرا بارعا، لأن ما بي لا يعدو كونه مرضا نفسيا مزمنا، أو مسا من الجن ملوثا، أو سحر ساحر لعين!

صنف ثان يحرضني على أن أتجنب النوم في القيلولة وأوقات الصلاة وأن أتوقف عن أكل المالح والمر لأنها كلها تفسد المزاج و تملأ النفس بالتوهم والخوف!

صنف ثالث يطمئنني على أن حالتي عادية جدا لأنه جرب قبلي "حب المرأة الفاسدة" التي تغرق كالبحر وتحرق كالشمس لأن ماءها قطران ونورها دخان ولأنها تمتص من الجسد أكثر مما تعطيه، أو كما وصفها أحدهم علقة، ولا مخرج لي من هذه المصيبة، سوى بالصبر والإرادة شريطة أن أقول لنفسي، اليوم لا غدا:

– لا للعلقة!

وكانت هناك رسالة واحدة طريفة من امرأة، أو رجل وقعها باسم امرأة:

- "أنت عائم في الحب، ومتعه، لكنك خائف منه فتشعر بأنك تغرق دائما في البحر لكنك إذ تمد يدك إلى الشمس مستنجدا بها تشعر بأنك تحترق، أي تتعذب، وليس لك والله من حل غير أن تستسلم لمشاعرك، أيها الرجل، وإلا فإنك ستغرق حقا، تغرق في النار!"

وقال لي عزيزي وأنا أنتهي من قراءة هذه الرسالة:

- الماء يحرق والنور يغرق، إلا الأطفال، ومن خبر أخلاط الجسد !

لكني شعرت بالتعب، وبالغضب، فقلت لنفسي:

- تعالي نشرب البحر ولتحرق الشمس من تشاء، من يريد!

حينها تذكرت أن أغلب القراء الذين راسلوني أصروا على شكل كلمة أمارة، بفتح الميم وتشديدها، أما أنا فقد استعملتها بدون تشديد ولم يخطر ببالي ذلك المعنى؛ مرة أخرى تهرب العلامة، تجن أو تجنن!

وكان سليم الناظمي (أو العربي الشيهب؟) هو الذي يمسك بالطرف السفلي للعلامة، والعلامة راية، علم وأمارة، يا حليمة، هناك دائما من يصر على طمسها، على تمريغ رأسها في التراب، لإخلائها من الرمز، من الشعر، من الأسطورة:

"تناقلت الصحف خبرا مفاده أن الصحافي لمسلك قد سرق من الصحافي الشيهب قصة وأن هذا الأخير سيرفع ضد الأول دعوى قضائية!"

يسرقني الشيهب ويتظلم؟

حليمة

- "أعشق ونخوة؟! لا يتفقان أيها الأخ، ولا تقف أيها العاشق عند باب الكبرياء والنخوة!!"، فإنهما مهلكة المحب، أيها الأخ المغفل: العشق مذلة ترفع، عشق الزين، طبعا، بينما عشق الشين نخوة تذل... ترهق، وتقرف، فحذار من نفسك الأمارة، إنها توأم اللوامة وهما معا للمطمئنة في تربص!

- "وسترى بأم عينك ما جرى لعمران وزيدان وسمعان، كيف يمس العقل، أو يمص، إذ تصبح مسعودة كلبة، وقطة، وبومة...!" وكله من العشق، بارك الله فيك.

- يمس العقل، يا توأمي العزيز، من جهتين: إذا غلبه الجسد أو إذا غلبه الوهم. آنئذ مرحبا بالهذيان. "وليس للجسد سوى وسيلة واحدة للتغلب على الفهم: إطلاق العنان للشهوة، للنزوة. ويغلب الوهم الفهم حين تعتقد أن كل شيء يخضع للعقل، أي حين تغلب الصور. ليس للعقل سوى شكلين: شكل آلي، في المعرفة، وآخر اجتماعي، في العلاقات. وفي هذا الاجتماعي صورتان، نظامان للصور: نوع خارجي وآخر باطني كلاهما شكليان"، فلا تغتر، أيها الظل: تمسك بالأصل! ... الشقاء أن تعتبر العقل، أو الفهم، كل الأصل، ,أن يبقى لك عقل أصلا، فالعقل عقال، لا تعقل نفسك...أيها لعزيز.

ـ "أكلما مستكم عاطفة تقولون جنون، مكر، إهانة، أيها العاقلون، أيها المغفلون، أيها المتنكرون، المخمورون، فكيف لو مسكم حب؟"، أيها الأعزاء !

أتيه في نفسي، وفي الناس، في العديد من أصواتي وأصدائي: كيف تغلبني شهوة، لا أستطيع أن أخضعها لأي منطق؟ أجلس على كرسي، في مكتبي أو في مقهى، تتخاصم أسمائي وتتعارك ألواني:

ـــ تريد أن تفهم!

ماذا أريد أن أفهم: أني أصبحت عبدا لطقس يجري بين الأسود و الفيروزي؟ هل يستطيع عقلي أن يفهم اللون، أي لون، خاصة الأسود والفيروزي؟ الألوان ليست من مجال العقل، إلا في المختبر ربما، وهل هناك من يفهم كيف يجره جسده إلى نزوة، إلى اليم، أو الشمس، إلى الطيف، عندما يحب، أنه يصعد وهو يهبط؟

ـــ تحلم !

أكيد أني كنت أحلم، جالسا على كرسي خشبي أصفر قديم، في وسط غرفة نومي، أنظر إلى نفسي في مرآة خزانة الملابس، أكلمها وتكلمني، ولكن الأصوات التي تنبعث من المرآة لم تكن سوى همسات أشباح أعرفها ولا أعرفها، غريبة وأليفة في نفس الوقت إلا شبح الناظمي (أو العربي الشيهب؟)!

لقد رجعت من العمل محملا بالعديد من تلك الرسائل التي بعث إلي بها "القراء الكرام" وفي نيتي أن أعيد قراءتها بعيدا عن ضوضاء المكتب وفضول الزملاء. ولكني وجدتني في الطاكسي ثم في الغرفة الفيروزية ثم في الطاكسي ثم في البيت وليس معي جرائد ولا رسائل.

ـــ سرقت مني؟ من سرقها؟

لم أعر الأمر كبير اهتمام فأنا كثير السهو، ويحدث لي، من حين لآخر، أن أنسى، وفي أي مكان، أشيائي، وقد أنسى نفسي، كما يقول بعض الزملاء...

كنت متعبا، ذلك التعب اللذيذ الذي يعقب متعة كبيرة ويستمر طويلا في خلايا الجسد، وحائرا، تلك الحيرة التي تسري بين السكينة والخوف، مترددا بين الرضى والتوجس، بين الاستسلام لمتعة العوم وانتظار الغرق:

ــ أنا نائم أم مستيقظ؟

رن الهاتف:

ــ انتقلت إلى رحمة الله زوجة أخينا سليم الناظمي!

ــ الحمد لله، قلت في الهاتف!

غير أن الصوت تابع:

ــ مراسيم الدفن غدا صباحا، قبل العاشرة، لا تتأخر علينا!

لا، أكيد أني كنت أحلم، فقد توفيت زوجة الناظمي منذ سنتين، وها هو الهاتف ينعيها إلي كأنها توفيت اليوم فقط!

هل أحتاج حقا إلى تذكر هذه الفواجع لأفهم؟

ــ " وماذا تريد أن تفهم؟"

ــ كيف نحول المتعة إلى غول، سعادتنا إلى شقاء، لا نفرح بأي شيء.

كم تعذب، أو تظاهر، هذا الرجل بسبب هذه المرأة... فهل كان الناظمي شجاعا إلى هذه الدرجة أم كان مجرد نذل؟

ــ وها هي تموت أخيرا!

لا أحد كان يتوقع موت امرأة ظلت تموت طيلة عقود:

ــ تموت، قال، كانت تتهيأ للجنان!

لقد كانت حليمة " عقدة الناظمي"، " لغزه". تعرف عليها في كلية الحقوق حيث درسا معا الاقتصاد. وفي ذلك الوقت كنا ندرس "السياسة" أكثر من دراسة التخصص بحصر المعنى. كانت أحلامنا أكبر من عقولنا. وكنا نعتقد في أحلامنا. كانت هذه الأحلام في قوة وحجم الشمس!

ــ أين ذهبت كل تلك الشمس؟ أكلها " الواقع" الذي يختلط ب"العقل"؟ العقل؟

وضبطت حليمة "متلبسة" في جلسة "خمر وجنس":

ــ لم يكن هناك خمر ولا هم يحزنون، البوليس هو الذي دس الخمر في القضية لكي يحولوها من "السياسة" إلى "الأخلاق"، ويقولوا "فساد"، يؤكد الناظمي!

وتنوقلت أخبار تقول بأن حليمة في سجن " عكاشة"، لكن الناظمي ظل يؤكد:

ــ حليمة ما زالت تتنقل بين " الفيلا" و"الكراج" و"الدرب"!

وأكد لنا "الرفاق" أن "الفلسطيني" و" العراقي" "واللبناني"، وكذلك" الشامية" و"التونسية"، الذين ضبطوا معها في تلك "الجلسة الخليعة"، لا علاقة لهم بأية حركة سياسية، وإنما كانوا طلاب لذة ومغامرة، لكن الناظمي ظل ينفي:

ــ كذب وبهتان، إنهم من "الأممية الدولية القومية"، وقد كانت حليمة معهم تلك الليلة في اجتماع تنسيق بتكليف من "الرفاق"!

وتناهى إلى علم الجميع أن حليمة خرجت من السجن بعد ثلاث سنوات ورحلت إلى الخارج صحبة "اللبناني"، لكن الناظمي بقي على قناعته:

ــ لقد فرت إلى الخارج لتعيش في المنفى، هي ممنوعة من الدخول إلى البلد لأسباب سياسية!

ثم عادت حليمة من الخارج صحبة "تونسي" واكتريا بيتا وأسسا "شركة معلوميات"، وعاشا معا في البيت وفي العمل، لكن الناظمي كان يقول:

ــ تمويه وتقية، " التونسي" زعيم كبير في "الأممية الدولية القومية"!

وأفلست الشركة فرحل " التونسي" إلى جهة غير معروفة واستقرت حليمة، لأول مرة، مع الناظمي في بيته فأصبح يخرج معها كل مساء في نزهة استعراضية باحثا عن أي شخص، مستغلا كل مناسبة ليقول:

ـ هذه حليمة، حبي الوحيد!

وتتعالى عبارات الحيرة، والدهشة، والشك:

ـ كيف يقدر رجل على حب امرأة بهذا الشكل؟ ينتظرها كل هذا الوقت؟

ـ لا يكف عن تلميع صورتها والإعلاء من شأنها؟ هل هي أمنا مريم؟

ـ هل يمكن أن نصدق القائلين "بالسحر" أوب"بلاهة" الناظمي و"دهاء" حليمة"؟

ـ متى "يستيقظ" الناظمي، يشعر بشيء من الكرامة أو الحقيقة؟ أليس للناظمي عين ولا أذن ولا عقل؟

لن تنفع النصائح ولا التعليمات ولا التحذيرات، فكل شيء يوحي بأن الناظمي قد أصبح أعمى وأصم:

ـ آه كم تؤلمنا النساء، يعلق أحدنا وهو يبكي ضاحكا!

ـ كم تعمى البصيرة، تغرق في ظل، في عرق، من نعشق، يضيف آخر داعيا إلى الخراب!

فيقول الذي قد يكون بدأ يفهم:

ـ لماذا نحشر أنفسنا في أنفس الآخرين، هل نفعل هذا لنبقى على السطح؟

وقيل إن حليمة مصابة بسرطان الرحم، منذ عادت مع "التونسي"، ثم إنهم استأصلوا رحمها، منذ استقرت مع الناظمي، ثم إنها قد أصبحت تعاني من هستيرية فظيعة، والناظمي ينفي:

ـ حتى إذا صدق المغرضون، لعنهم الله، فإنهم لا يعرفون كل كنوز جسد حليمة!

ولزمت حليمة الفراش فشاع بأنها تحتضر، لكن الناظمي لم يكف عن

التكذيب:

ـ إنها تكتب مذكراتها ليلا وتنام نهارا، هذا كل ما في الأمر!

وماتت حليمة بالفعل، لكن الناظمي بقي يكذب:

ـ ذهبت في مهمة سرية بالخارج، فقط!

لكنه أصيب "بخللٍ عقلي" شهرين بعد ذلك ومات في المستشفى وحيدا فلم يترك سوى رسالة صغيرة، وغريبة، إلى "أصدقائه"، وكان العربي الشيهب أول من قرأها:

" تنكرون علي حب حليمة كأنكم لستم من هذه الدنيا ولا من هذا البلد، كأنكم لستم أحياء. قد يتنافى الحب مع الكرامة، مع الشرف، ولا يطيق العقل ولا الفهم. ما الحب إذا لم يرافقه عمى ولا صمم ولا بكم؟ ولكن لا تحبوا أحدا مثلي، أحدا لا يحبكم، فقد كنت أشقى من على هذه الأرض. سامحوني رجاء فأنا لم يكن لي خيار في هذا الأمر فإما حب حليمة وإما كثرة الولد، أو التيه، أو القبر! وعلى كل حال فأنا لم أكن أحب حليمة الحب الذي كنتم ترون: كانت حليمة عصاي فقط!"

كنت أحلم، بطبيعة الحال، ولكن حين مدت حليمة يدها نحوي، لتحاول مداعبة رأسي، استيقظت مذعورا وأنا أردد:

ـ أنا الناظمي، لا أريد أن أجن!

ثم قلت لنفسي وأنا أزحف في اتجاه الحمام:

ـ كفاك خروجا عن العقل، فأنا لا أحب، وليس الناظمي أقوى مني، ولا الشيهب!

لقد كان الناظمي يركب سيارته وامرأة كل ساعة، وكان بيته مليئا بالنساء، كل ليلة، في حضور حليمة وفي غيابها، وكنا نسميه " سليم بو البنات"، لكنه كان يحب حليمة بتلك الطريقة:

ــ النساء، كل النساء المشاع، نجوم، وحليمة الشمس، يدافع الناظمي عن سلوكه قبل موت حليمة!

وماتت حليمة فماتت معها كل النساء، انتحر الناظمي بتلك الطريقة، بينما بقي العربي الشيهب يتفنن في خلق علاقات غرامية مع نساء جارفات كأنه يريد أن يقنع نفسه بأن الحب دائما مصيبة، هو الذي لم يحب قط: المصيبة!

ــ لن أموت مثله، الناظمي، ولن أنتحر، مثل الشيهب، ينبغي أن أصحو من هذه الغفوة ــ اليقظة، من هذا الواقع الذي يشبه النوم ويشبه الصحو في الوقت نفسه، أن أتخلص من هذه الأصوات التي تضعف سمعي وأطيافها التي تعمي! لماذا تستحيل الراحة بهذا الشكل؟

واستطعت في الحمام أن أتذكر صلاتي:

ــ "حياتي مليئة بالحب، والفهم، والتعاطف، والحلم والإقبال، والعزم، بالعقل!"

فرددتها مائة مرة قبل أن أقرر الخروج من بيتي إلى وجهة أخرى غير العمل وغير الطاكسي:

ــ أقسم أني لم أضاجع حليمة سوى مرة واحدة؛ عندما تأكدت من إصابتها بالمرض الخبيث جاءتني، ذات ليلة، كنت خلالها أختنق بقرفي، وقالت لي:

ــ أنت الوحيد الذي لم يساعدني بعد!

ليست الضحية دائما حيث تبدو الضحية، ولا الجلاد حيث يظهر الجلاد: العربي الشيهب، ولد الحرام، كان كالذئب، وسط الزميلات ونساء الأصدقاء، وكان الناظمي الطاووس، وكانت حليمة الفانوس، كانت ضحكتها القوية تفتن الحجر، توقظ الميت من سباته العميق، تجعل الأعمى يرى كل

النجوم... لكنها كانت مريضة، وكان الناظمي يحبها كذلك، فكيف أقدر على حبها بدوري، كيف أحبها كذلك وأنا دائما مرهق ومتوتر؟

ـ تعترف إذن أنك كنت تريدها بدورك، ولو في سرك؟

ـ اسمع، آلناظمي، كلامي الأخير: الشيهب، ولد الحرام، شيطان: لا يمكن أن يريد الخير لا لك ولا لي لأنه، ببساطة، يكره نفسه، سيظل يشوه كل شيء، يحط من كل شيء!

وكانت كل نفس الناظمي في حليمة، فمن يصدق؟

ـ ماذا تريدنا أن نصدق: فاسقا وفاسقة؟

كيف أفهم كل هذا، خاصة عودة كل أصواتي، وأسمائي وأنا في عنق زجاجة؟

لا شك أن سائق الطاكسي قد سمع كل شيء، تبدو أذنه اليمنى كأذن كلب سلوقي!

أريانة

نفس المشهد في الطاكسي حتى مدخل البيت....

لكن المرأة توجهت إلى المطبخ بينما توجهت، كالعادة، إلى غرفة النوم. خلعت ملابسي وتسللت إلى السرير.

ـ ادخل، أسيدي الشيهب، طل، شف خوك ثم نمم أو تماه كما تشاء!

انتظرت. خمس دقائق. ربع ساعة. نصف ساعة. سمعت المرأة تتحدث في المطبخ مع...

ـ رجل !

ثم أدركت، من نوع الحركات والصوت، أنهما يمارسان....

ـ الجنس !

وأصغيت إلى الهذيان: أين ؟

ـ في المطبخ !

ارتديت ملابسي بسرعة، غاضبا أو خائفا:

ـ العربي الشيهب ولد الحرام، شبحي!

لكني وجدتني في...

ـ المطبخ !

من ؟

ـ أريانة لن تأتي اليوم، سافرت !

واضطررت إلى أن أنظر إليها. عيناها مشدودتان إلى التلفزيون. هناك لقطة جنس طويلة...

ـ في التلفزيون !

في حجر المرأة قطة سمينة، هادئة، مستمتعة، سوداء في...

ـ الثوب الأسود !

خيل إلي أني أسمع أصواتا، كل أصواتي... خاصة الناظمي.

في الطاكسي أحسست بأن رائحتها مختلفة:

ـ ولم لم تقولي منذ البداية ؟ قلت وأنا أعاني من الشعور بالخديعة.

ـ أية بداية تعني ؟ أجابت متحدية حتى تحول شعوري بالخديعة إلى شعور بالإهانة.

ـ في الطاكسي أو على الأقل قبل أن تدخلي إلى المطبخ!

كانت تضحك، لكن في لطف:

ـ وتظن أن هذه هي البداية ؟

ونهرت القطة السوداء:

ـ اشت ؟

قبل أن تتابع:

ـ على كل حال أحسست بأنك تتشمم رائحتي في الطاكسي، لكل شخص، كما لكل حيوان، رائحة مميزة، فلماذا لم تصدق أنفك ؟

وأضافت في سرها ظانة أني لم أسمعها:

ـ العجلة أو الرغبة !

فقلت بصوت أعلى:

ـ العادة تعمي أكثر !

فتجاهلت عدوانيتي، أو إحساسي بالخيبة، ودفعت القطة السوداء برفق نحو الأرض ثم قامت بتؤدة وأطفأت التلفزيون قبل أن تبدأ في تحسس المسجلة لتضع فيها...

ـ شريطا!

أدركت أنها عمياء فتضاعف حجم خجلي، لقد دارت أمور كثيرة بسرعة فائقة في...

ـ رأسي، وفي البيت، وفي الطاكسي، وفي... !

الكاسيت تدور في...

ـ المسجلة !

وتأخر خروج الصوت في المسجلة من...

ـ الكاسيت !

وضعت بيني وبينها صينية قهوة:

ـ كانت تتقطر منذ وصلنا، أحبها مقطرة قطرة قطرة، آمل أن تعجبك!

وخلتها تتحدث عن ممارسة الجنس مع أريانة، غير أني فكرت في طعم...

ـ القهوة !

لم أذق مثيلا للذتها من قبل:

ـ القهوة... تشربها قطرة قطرة، لتحس بلذتها أكثر !

قالت وكأنها تريد أن تذكرني بجسد أريانة من جديد فسعيت إلى أن أغير مجرى الحديث:

ـ تعيشين وحدك في هذا البيت ؟

لم أفهم من أين خرج ذلك السؤال:

ـ لا، مع زوجي !

ولا السؤال التالي:

ـ وأين هو زوجك ؟

قفزت القطة السوداء السمينة فجأة إلى حجر المرأة:

ـ في ميلانو، إيطاليا !

ماذا يعني كل هذا الفضول فجأة؟ أزعجت القطة مرة أخرى إذ شاهدتها تنظر إلي بعدوانية:

ـ وماذا يفعل هناك، في عطلة ؟

ضغطت على رأس القطة وأخذت تداعبها:

ـ لا، يشتغل منذ خمس وعشرين سنة!

أخرجت لساني للقطة فضغطت المرأة من جديد على رأسها:

ـ ومتى ترينه، يعود إلى البلد، أقصد ؟

هي هادئة دائما في سوادها الكالح لكن توتر القطة لا يتوقف ولا يخف:

ـ مرة كل سنة أو سنتين !

وتخيلت أن الزوج لا يبعث إليها بأي قدر من المال، أنها تكثري بيت نومها لنوع معين من النساء، مثل أريانة، حتى تستطيع أن تعيش هي والقطة:

ـ المرأة التي... تستأجر منك غرفة النوم ؟

أجابت هادئة:

ـ أريانة بنتي، لكنها تعيش متنقلة بين ميلانو وكازابلانكا !

وانطلق الصوت من المسجلة فجأة: الحاج بنموسى يرتل صورة يوسف!

أمسكنا عن الكلام وبقيت مترددا بين الرغبة في الانصراف والرغبة في الاكتفاء بالاستماع إلى صورة يوسف... حتى توقفت المسجلة !

ـ تتغذى معي، عندي سمك سيعجبك، إذا كانت قهوتي قد راقتك !

هل تحس بي دائما عندما أشم رائحة ما ؟ أنفي يشم القهوة والسمك بقوة ولا يقدر على التمييز بين عطرين مختلفين لامرأتين مختلفتين !

اضطررت إلى أن أقول لها إنه طعم لم أذق من قبل مثل لذته وأنا أعتذر في نفس الوقت عن عدم قبول دعوتها إلى الغذاء:

ـ الغذاء، مع الأسف!

لكنها أقسمت ثم توسلت حتى شرعت في الشك في نيتها:

ـ سمك، لماذا السمك بالضبط ؟

ساحرة:

ـ ستدعوني إلى الفراش قبل الأكل !

لكن يبدو أن هذه العمياء تقرأ أفكاري وتحس بكل ما يطرأ على حواسي، قالت:

ـ زوجة العزيز، كالكثير من الرجال والنساء، لم تعرف كيف تقرأ الرسالة، الرسالة الهدية، الإشارة أو الأمارة !

أحسست بشيء من الدوخة:

ـ الهدية، دخول سيدنا يوسف إلى بيتها كان هدية كدخول موسى إلى بيت أسية امرأة الفرعون، هذه فهمت وتلك أخطأت !

ازداد شعوري بالدوخة، أو بالقلق من هذا التأويل العجيب لقصة يوسف وزليخة:

ـ هذه إرادة ربانية، يا سيدتي، لا يدركها إلا من أطلعه الله على سرها!

ضمت القطة إلى صدرها بيدها اليسرى وأخذت تمسح على رأسها بيدها اليمنى:

ـ ونعم بالله، يا سيدي، لكن ربي يبعث لعباده بإشارات يمكن للقلب، أو للعقل، أن يدركها، وقد سخرهما تعالى لذلك، وهي لهذا ستضيع الهدية!

تتحدث عن أريانة وأنا؟

ـــ من؟

ابتسمت:

ـــ زليخة!

أعرف الكثيرين من الجهلة المتطاولين على نصوص، ووقائع، لا يستطيعون أن يدركوا أسرارها، لكنهم يرجمون فيها بالغيب... أما هذه المرأة فلا يمكن أن تكون إلا محتالة !

ـــ الإشارة واضحة، يا سيدي: حسن يوسف آية من آيات ربنا لكن زليخة أولت الآية كما تؤول صورة عادية، مثل هذا الحسن اختبار ليوسف، ولكل البشر، لكنها لم تفهم مكر مثل هذا الحسن، القصيدة... هل استمعت إلى القصيدة كما كتبها أحمد شوقي ويغنيها محمد عبد الوهاب، وهل أدركت، يا سيدي، كيف توافق القصيدة الآية، أحيانا، والمغني المقرئ ؟

ـــ طبعا !

انتبهت إلى ما في ردي من كبرياء وخوف، لكنها تابعت:

ـــ ربي كان يختبر يوسف ليجعل منه نبيا وكان يمتحن إخوته، وكل من حل يوسف بينهم، ليجعل منهم مقربين إلى يوسف، وذوي فضل، حين يصير نبيا... هذه هي الهدية التي لم يدركها كل من أخطأ الإشارة، أي أخطأ معنى هذا الحسن الذي لا مثيل له!

كنت أنظر إليها قلقا، وهي ترفع يدها اليمنى باستمرار، فتضعها على ثديها الأيمن، وتبدأ في مداعبته قليلا ثم تعيدها فوق رأس القطة:

ـــ ما معنى هذه الحركة المتواصلة، إغواء، لم تعبث بثديها كمومس؟

كنت متوترا، غاضبا، وجلا، غير مصدق فلم ألاحظ كل ردائها الأسود الفضفاض، الذي يخفي كل جسدها إلا القدمين حيث اندس جوربان أبيضان في حذاء أسود بدوره:

ـ اللهم اغفر لنا ما نجهل وما نعلم وافتح بصيرتنا على إشاراتك العلية!

قالت وقامت، وصلت الظهر، وتعجبت إذ رأيت القطة تصلي معها كما تصلي طفلة صغيرة جنب والدتها:

ـ يدربون القطط والكلاب على كل شيء أو ترى الحيوانات تصلي بالفطرة!؟

بدأت أحس حقا بأكثر من الخوف من هذه المرأة، بالرهبة:

ـ جاهلة أم محتالة، ساحرة أم ولية ؟

وما أكلت سمكا من قبل في مثل لذة سمكها، فلماذا أجد كل هذه اللذة في قهوتها وسمكها وأشعر بالرهبة من كلامها وسلوكها؟

ـ العربي الشيهب ولد الحرام، والناظمي، مازالا في رأسي، أحبابي أعدائي!

قالت لي وهي تودعني:

ـ لم يدخل إلى هذا البيت غيرك وزوجي و أخو زوجي، في حسن زوجي فهمت ما لم تفهمه زليخة، وفي طيبتك فهمت ما أدركته أريانة، إن ربي الكريم يبعث لكل امرأة، كما لكل رجل، هدية مغلفة تستطيع أن تفتحها إذا فهمت إشارتها في الوقت المناسب، وإلا تكون ضيعت فرصة العمر الوحيدة !

ـ شكرا على لطفك وكرمك!

اللطف والكرم؟ منافق، أسيدي العربي الشيهب، تماما كما تفعل!

أكيد أنها محتالة، تستغفلني لأكون زوجا لابنتها، أي مصدر رزق محلي، إضافي لهما!

ـ ماذا يشتغل زوجك في ميلانو؟

ابتسمت ابتسامة عريضة، لكن لطيفة، خلف الحجاب الأسود الشفاف:

ـ مغني أوبرا !

كذابة، بز ناس في الغالب، أو... شاذا!...

وتذكرت أنني لم أسألها عن المكان الذي سافرت إليه أريانة فقلت في نفسي:

ـ أحسن، بغي محتالة بنت بغي محتالة !

لقد كانت رهبتي في ذروتها وأنا أقول مجاملا:

ـ أشكرك، وأعدك بأني سأعود لزيارتك في أقرب وقت ممكن !

وهي ترد:

ـ البيت بيتك الآن، يا بني، وسيطيب برجل آخر طيب!

وكم أزعجتني هذه ال "يابني"، فقد شعرت بها كالشتيمة، كما لو كانت تعني:

ـ لقد نجحت في الاحتيال عليك، أيها المغفل الكبير، و أنا خبيرة في أمثالك، لن يفيدك معي لا شك، ولا نفاق، ولا حيلة، أنا خبيرة دولية، وأمثالك، برغم كل تجاربك في الصحافة، وخبرتك مع الشيهب، والناظمي، وحليمة... لن يبلغوا مكانة أضعف تلامذتي... أنت منذ الآن سجيني، عبدي... أستطيع أن أفعل بك ما أشاء!

كانت كل أسمائي، وصفاتي، وأصواتي في معركة، وأنا عائد في نفس الطاكسي، لكن لسان العربي الشيهب كان أقواها إذ تسلل إلى أذن السائق، المنتصبة كأذن سلوقي، وقال له:

ـ لن تقهرني امرأة بالعواطف وبعض الرعاية، ولو جعلت مني يوسف، فلن أجعل منها أكثر من زليخة، وتنتهي الحكاية!

رابية

في الشارع، ساعات بعد ذلك، وأنا أهيم على وجهي، موزعا بين الشعور بالعار والشعور بالخديعة، لمحت رجلا يعبر الشارع الكبير غير مهتم لا بالحركة ولا بالضجيج، لا بالخطر ولا بالاحتجاجات. عرفته بسرعة فجريت نحوه، لكن شرطيا سبقني إليه.

ـ إنه سائق الطاكسي.

لقد كان مستسلما للشرطي. أخرجت ورقة من جيبي فسلمه الشرطي إلي. استسلم لي. جررته نحو أقرب مقهى. سألته:

ـ لماذا تقطع شارعا مزدحما بالسيارات بهذا الشكل، ألا تخاف؟

أطلق ضحكة قوية في وجهي:

ـ مم تريدني أن أخاف؟

خفت أنا:

ـ من الموت؟

انمحت الضحكة من وجهه:

ـ الخوف، الخوف من الموت... نحن نقضي كل عمرنا في الخوف أو الغفلة، نخاف من أشياء قد لا تصيبنا أبدا، وقد لا تضرنا على كل حال، فيستغفلنا آنئذ ما يضرنا حقا لينال منا ما يريد، كل هذا الخوف جهل أو مرض...

ينطق ولد الكلب!

ـ تعني أنه ليس هناك أي مبرر لكل هذا الخوف، حتى ذاك الذي يجمعنا بالحيوان؟

فكر قليلا، مترددا:

ـ نحن لم نعد حيوانات، أيها الرجل الطيب، وتعال نسرد بعض مخاوفنا، هل لاحظت أن الخوف كان يملأ قلوب كل أصحاب السيارات، وحتى الشرطي، مم هم خائفون ؟ مني أنا ؟ لا، بكل تأكيد!

وانتبهت حينها فقط، ربما بسبب وصفه لي بالرجل الطيب، أن هذا الرجل، الذي لم أسمع صوته ولو مرة وهو ينقلني مع أريانة إلى بيت والدتها أو يعيدني منه، لا يتكلم مثلي ومثل بقية الناس فقط، لكنه يفكر، ويدعي الحكمة، فوافقت:

ـ لنفعل ذلك، لنحاول وصف بعض مخاوفنا نحن، أقصد أنا وأنت!

وكدت أضيف:

ـ أنا هذا اليوم كله، وربما في ما تبقى من العمر، خائف من امرأة محتالة، امرأة مشعوذة تتستر في ثوب ولية صالحة، تتظاهر بالمحبة والحكمة، وتفسر قصة يوسف على هواها، تحاول أن توهمني بأنني، بالنسبة لابنتها، مثل نبي الله يوسف: الحرامية، المدعية، لن تفلت من العقاب وقد ضمنت مقعدها في جهنم!

لكني لم أرد أن أطلعه على ما لا يعلم من أسرار حياتي، أن أشعره بالألفة والأنس، فقلت مراوغا:

ـ هات، ابدأ إذن؟

أطلق من جديد ضحكته القوية في وجهي:

ـ أنت خائف هذا اليوم، مرعوب حقا، من امرأة طيبة، ساذجة وكريمة، لأنك لا تستطيع أن تعرف إن كانت كذلك أم هي مجرد محتالة، ولأنك لن تستطيع أن تفصل بين الصورتين فإنك ستظل مرعوبا، طول عمرك، كلما التقيت بمثل هذا الازدواج في مثل هذه الصورة... والعديد من

مخاوفك، وكذلك شكوكك، في النهاية، مخاوف من هذا النوع، فيما يخص النساء، والشيء الأكثر تأكيدا في هذا الأمر أن ازدواج صورة اليوم سيزيد من كثافة كل الصور التي ستصادفها فيما بعد، في ما تبقى من حياتك: مخاوفنا الأساسية صور، لا أقل ولا أكثر، صور نتوارثها أو نصنعها بأنفسنا لأنفسنا !

ـ لن يقنعني بأن الشيهب و الناظمي، وحليمة...

ولكن هل كان معنا في المطبخ هذا اليوم؟

ـ إذن يكون معنا في الحقيقة، أريانة وأنا، كلما دخلنا إلى غرفة النوم!

لأواجهه بالحقيقة :

ـ أنت إذن متلصص، مريض، تكون معنا دائما أنا وأريانة!

فدوت ضحكته من جديد في أذني:

ـ ليكن، لكن مم تخاف لو حصل مثل هذا، من الفضيحة، من العار، من الحبس ؟ لاشيء من هذا قد حصل، لم يحصل بعد... ولو حصل!

يعترف إذن، فليأخذ:

ـ أنت رجل مريض أو مخبر قذر، ليس أقذر من هذا النوع من المرضى أو المخبرين، أما أنا فلست خائفا من أحد!

وتردد قبل أن يرد:

ـ نحن لا نخاف سوى من ثلاثة أشياء في الحقيقة، يا أستاذ، يا رجل يا طيب: من العار، والموت، والفقر. ونحن نخاف من هذه الأشياء الثلاثة لسببين فقط: إما بسبب الجهل، وإما بسبب الجشع، أو هما معا. ولو استطعنا أن ندرك أن كل شيء في هذه الدنيا، من التربية والبيت إلى التلفزيون والصحيفة، يدفع بنا إلى الجهل والجشع لتخلصنا من مشاعر الخوف، من العار، والموت، والجشع، أقصد: أن نعرف ما العار، وما الموت، وما الفقر

بالفعل، أي ندرك العلامة، أو الإشارة الحقيقية، في كل شيء فنعلم ما هو على وجه الدقة... لكل شيء، يا سيدي الكريم، إشارة خاصة، علامة جوهرية تخبر به وتحيل على فصه. هذه الإشارة ما زالت غريزية في الحيوان، أما في الإنسان فإنها قد غلفت بمئات الصور المزدوجة المتوارثة من طرف هذا الجنس عبر مختلف الأجيال. لذلك فإننا نقضي حياتنا في العار، وفي الفقر، وفي الموت خوفا من العار، ومن الفقر، ومن الموت!

ـ هذا إذن فريق من العرافين... هل تكون أريانة عرافة؟

ولكن هل أنا حقا في مقهى؟

ـ وأين كنت فعلا هذا الصباح، ينتفض صوت من أصواتي؟

ـ تستطيع أن تسمع كل شيء في مقهى، أو في مطبخ، وحتى في الطاكسي، من سائق طاكسي هذه الأيام، يضيف صوت آخر:

ـ وتستطيع، يا سيدي الكريم، أن تتجنب كل هذا، أو تنتظره في وقته المناسب، عندما تتمكن من معرفة العلامة وتأويل الإشارة الربانية سواء وجدت الله، أي تعرفت عليه، أو لم تجده بعد، أي لم تفهم بعد كل علاماته!

ها ولي مزيف آخر يصطادني وسط دوخة الزحام، في ما بعد القيلولة، كما احتالت علي ولية مزيفة وسط دوخة الرغبة:

ـ كثر الأولياء والصالحون في هذا البلد، فاللهم ارحمنا والطف بنا!

ـ واسمح لي أن أضيف: لماذا تقبل أن تنام مع امرأة، أقصد أريانة، وأنت خائف من الفضيحة، ومن العار، ومن الحبس، من المجهول المحتمل الذي تتغذى منه صورك المزدوجة؟

لم أجد جوابا فتابع:

ـ المسألة لا تعدو أمرين: إما تعرف ما تريد حقا، وممن تريده بالفعل، فتقبله وتسر به، وإما لا تعرف أنك تعرف ما تريد، أو تجهله، أو

لديك شك بشأنه، فترفضه وتتخلص من مخاوفك حوله...

كم يستسهل الأمور، هؤلاء الأدعياء:

ــ فالمسألة في غاية البساطة، لكننا لا نستمع إلى الإشارة بداخلنا، وخارجنا، فنقبل على ما يجلب الخوف والعار، على ما يجلب حتى الموت، والفقر!

اكتفيت ب:

ــ عجيب!

في كلامه شيء من الصحة، لكنه لا يناسب لا وضعه، و لا المقام، لا تطيقه أصواتي:

ــ وهذه السيدة الطيبة الكريمة، التي أكرمتك بفهمها لقصة سيدنا يوسف، وقدمت لك أحسن ما تعرف صنعه، القهوة والسمك، وأطلعتك على أعظم أسرارها، إذ أخبرتك بأن كل علاقة بين رجل وامرأة قد تكون هدية ربانية إذا عرفنا كيف نقرأ إشارتها الخاصة...

وتنفس طويلا ثم بدا كأنه يبكي:

ــ هذه المرأة المريضة بالسرطان، التي لم تعد تعرف للجنس طعما منذ سنوات عديدة، التي فتحت لك وابنتها غرفة نومها مرات عديدة، هذه المرأة التي تحب قطتها كما تحب زوجها التائه في إيطاليا وابنتها الضائعة في الطائرات، لماذا تخاف منها؟

معه بعض الصواب:

ــ لماذا نحن خائفون بهذا الشكل، أقصد أنا: لماذا أنا خائف وممزق، لم في نظرك، يالشيهب؟

ــ أنا أقول لك، أيها السيد الكريم: لأنك لم تعرف قط صورة بمثل هذا الصفاء، كأنك لم تشرب قط في كأس نظيفة طول حياتك التعيسة، أو كأنك لم

تنظر بالمرة إلى الكأس التي كنت تشرب منها!

ــ لا، عيب، احترم نفسك، والزم حدودك، أيها...

لولا عبارات مثل " تحب قطتها كما تحب..."، ولولا هذه الدمعة الخفية التي لا تفارق نظره، حتى وهو يضحك ضحكته المدوية، لولا هذا الحب التعيس الذي يبرق في كلامه لكنا تشابكنا بالأيدي، لكنني قررت فجأة أن أداعبه، أي أن أوجعه كما يوجعني:

ــ تبدو تعيسا في الحب أكثر مني، كأنك تعترف بحب خائب وأنت تدافع عن السيدة!

تردد قليلا، وقف لينصرف ثم جلس من جديد:

ــ أنا لا أدافع عن السيدة رابية، لكني أحاول، كما حاولت هي، أن أساعدك!

شدني الاسم الغريب:

ــ رابية؟ من أية ثقافة هذا الاسم؟

فكر ثم قال:

ــ من إيطاليا، جاءت من ميلانو مع زوجها المهاجر لتزور معه البلد فبقيت هنا!

اشتد فضولي:

ــ ولماذا بقيت في المغرب؟

بدا مترددا مرة أخرى:

ــ هذا شأن يخصها، ويمكنك أن تسألها عنه إذا شئت!

طيب، أيها العاشق التعيس، لنسألك الآن:

ــ لماذا أنت تعيس في الحب؟

اكتفى بابتسامة غامضة قبل أن يجيب:

ـ أنا لست تعيسا في الحب، كنت مثلك منذ سنوات خلت، لكني شفيت بحمد الله وشكره، وأنا لم أعد أعرف ما إذا كان ما أقوله لك سينفعك، لكني سأحكي لك، بإيجاز كبير، قصة تعاستي...

مددت له يدي بسيجارة فردها معتذرا شاكرا :

ـ لقد تعذبت طويلا بسبب النساء، قبل أن أكتشف أني إنما تعذبت بسبب نفسي، لأني لم أكن أفهم إشارات النساء، علاماتهن الجوهرية.

ـ ومن يستطيع أن يفهم علامات امرأة كرابية: عمياء، مشوهة الوجه، تسكن في السواد، تصلي جنب قطة، وتدعي معرفة أسرار القرآن، وهي نصرانية؟

ـ لقد كنت، واسمح لي أن أقول مرة أخرى مثلك، لا أسمع إلا صوت الصور المزدوجة في نفسي المظلمة، الصور المعبرة عن الرغبة المتوارثة، أي المتسرعة، إذن التي لم تكن تستطيع حتى التحكم في ذاتها، وبالتالي إشباعها.

ـ مثلي أنا، أيها المدعي؟

ـ كنت كالديك، مرة، أو كنرجس، مرة أخرى، كالطاووس في أغلب الأحيان: أرى نفسي حين أنفخ فيها لكني كنت بذلك أعريها من ذاتها، أي من الآخر....

لم لا يقول مثل العربي الشيهب، يكره نفسه في الناس، أو مثل الناظمي الذي يحب حب الآخرين في حليمة؟

ـ ما علينا... في كل مرة كنت أقوم فيها من فوق جسد امرأة كنت أقوم كارها لنفسي وللمرأة، ضاجا صاخبا، ولو اشتهيتها قبل ذلك بسنوات، ولو غامرت بحياتي من أجل تلك الوصلة، لاشيء كان يبقى من المرأة، ولا مني، غير القرف!...

ـ لا، تبقى الأصوات، والأسماء، والظلال... متخاصمة، متكارهة!

ـ ولهذا لم تطل علاقتي، ولم تصف، مع أية امرأة، وكنت أختلق، أو يختلقن، أي سبب لوضع حد لها حتى تزوجت.

ـ اللعين، الزاني... برابية؟

ـ مضت خمس سنوات على زواجي من المرأة التي أحببت واشتهيت أكثر من خمس عشرة سنة حتى جاءتني ذات صباح بأعين دامعة، ولكن صارمة، تطلب الطلاق.

ـ تعجبني النساء حين يكسرن غرور الشيهب بسبقه إلى القطيعة معه، قال أحد أصواتي!

ـ لن أحدثك عن خيبتي وبؤسي فأنت تستطيع أن تتخيله.

ـ كان يكفي أن تموت حليمة قبل الناظمي لينتحر!

ـ لقد اشترطت ألا تطلعني على السبب قبل الطلاق.

ـ كانت عند الشيهب إذن!

ـ ونحن نغادر المحكمة قالت لي وهي تبلل ظهري بالدموع:

ـ لم تستطع طيلة خمس سنوات أن تقرأ علامتي!

دفعتها بعيدا عن ظهري:

ـ أية علامة؟

عادت تحاول أن تحضنني:

ـ لم تكن تشركني في لذة الجماع، فزنيت ثلاث مرات في هذه السنة الأخيرة من زواجنا!

صفعتها صفعتين فانصرفت وهي تردد:

ـ جاهل وأناني، كلب!

ـ اعترفت لك بأنها كانت تتردد على بيت الشيهب كما كانت تفعل

حليمة؟

ـ كنت أصفع نفسي في الواقع، وأنا أصفعها، وبقيت أعاقبها سنوات عديدة...

ـ كيف، ألم تطلقك؟

ـ كنت أضاجع نساء عديدات حارما إياهن من أية لذة، عن وعي هذه المرة، وقد ساعدني على هذا الأمر الطاكسي الذي اشتريته لهذا الغرض...

ـ رابية و أريانة... يا ولد الكلب، السلوقي!

ـ حتى التقيت بامرأة فريدة، كنت أنتظرها في كل مكان لأحملها في الطاكسي حيث تريد...

ـ أريانة!

ـ وقد تركتني أشتهيها شهورا حتى كل صبري ونويت أن أغدر بها...

ـ رابية؟

ـ في اليوم الذي كنت قررت فيه القيام بجريمتي نزل رجل من العمارة التي تسكن فيها وقال لي إنها تريد أن تراني فسررت وصعدت معه...

ـ قواد آخر!

ـ في البيت، في غرفة النوم الفيروزية، وجدت امرأة مجذوعة الوجه تشفق العين من النظر إلى بشاعتها...

ـ رابية الزانية!

ـ وتكلمت فعرفتها من صوتها: كانت تخفي تشوهها في هذا الرداء الأسود الفضفاض بينما كنت أظن أنها تخفي فيه جمالا خلابا!

ـ ماكرة!

ـ قدمتني إلى زوجها...

ـ زوجها، الرجل الفواد؟

ـ وأشادت بسلوكي وأخلاقي العالية حتى عرض علي الرجل أن أكون أخا له ومزجت بعضا من دمي ببعض من دمه...

ـ كيد عظيم!

ـ هكذا صارت تلك المرأة زوجة أخي... ولن تفهم، أيها السيد الكريم، كيف أني ما زلت أحبها، بدون أدنى أمل في الوصلة، تماما كما كنت أحبها قبل أن أرى ما تحت اللباس، وهي جنبي في الطاكسي، وقبل أن تصبح زوجة أخي... هذه المرأة هي التي علمتني أن...

ـ انت خاصك الشيهب، انت مغفل اكثر مني أنا، والله العظيم، مغفل بقرن وذيل، صراحة...

ـ لكل إنسان علامات يمكن أن يعرف بها ويعلم أمره، لكن، وكما أخطأت أنت رائحتها هذا الصباح، أخطأت أنا علامتها الخاصة، كما أخطأت علامات زوجتي، والعديد من النساء غير زوجتي، قبلها... لهذا لم أعد أجرؤ على أية امرأة لا أعرف إشارتها، اسمح لي... !

ونهض مودعا فراقبته وهو يقطع، بقامته المديدة، الشارع المكتظ بالسيارات، تسبقه يداه الغليظتان المكسوتان بالزغب الكثيف، غير مبال، فقلت لنفسي:

ـ قد يكون لا يزال يعذب نفسه، أو يحاول أن ينتحر، عقابا لنفسه على عدم معرفتها بعلم الإشارة، كما أفعل أنا بما يسميه هذا المدعي المغرور"الصور المزدوجة!"

لكني تذكرت الصورة الكبيرة المعلقة في مدخل غرفة النوم، والتي

كانت أريانة تبدأ بتقبيلها كلما دخلنا إلى تلك الغرفة، فقلت لنفسي:

ـــ هذا الجمال قد يجنن صاحبته وكل من يراه، أما من يعاشره... !

وفكرت في أنه علامة، بكل تأكيد، وكل علامة تحد، لأنها لغز، وهذا اللغز، ككل إشارة غنية، قد يصبح هدية وقد يصبح مصيبة:

ـــ إن هذا الرجل المغرر به يحب صورة !

فخيل لي أني أسمع عزيزي يهتف:

ـــ وماذا أحببت أكثر من هذا، من صور ؟

فخفت من أن أغرق في ماضي مع النساء، وحالتي المدنية، من جديد:

ـــ لا بد أن أعود إلى رابية هذا المساء !

ومع أني سمعت صوت سائق الطاكسي وراء ظهري يسألني:

ـــ أية صورة تقصد، تلك التي بنيت في قلبي أو تلك المعلقة بمدخل الغرفة الفيروزية ؟

فقد تجاهلته، فأنا لا أحبه، لا أحترمه، أحتقره لأنه عار وساذج، أو... لأنه يعريني، يفضحني حتى بصمته في الطاكسي، بأذنه المنتصبة كأذن سلوقي مخلص لسيدته:

ـــ مثله مثل القطة، ومسجلة صاحبته المحتالة، ماركة مضمونة !

شمس البحر

تأخرت مريم، في تغطية الندوة الصحافية، التي يعقدها وزير الثقافة بالرباط، حول بعض نتائج الموسم الثقافي للعام الماضي، واضطررت إلى أن أبعث البوطي، في آخر لحظة، إلى المطار لاستقبال شاعر برتغالي ظل مترددا، حتى وهو في مطار لشبونة، لاتخاذ قرار تلبية دعوة اتحاد كتاب المغرب لإلقاء محاضرة حول الشعر المعاصر المكتوب بالبرتغالية. لم يبق في القسم الثقافي سواي. والحرارة لا تطاق. والتلوث لا يطاق. ووجوه الناس لا تطاق. آخر يونيو لا يطاق هذا العام. لكن لا بد أن يذهب أحد إلى محاضرة السيدة الفرنسية حول "ثقافة الجسد في الجنوب".

ـ كأنهم استنفذوا الكلام عن الجسد في الشمال، علق البوطي، عقدهم الاستنساخ، فقد تصبح نعجة، أو خنزيرة، أما للبشرية القادمة كلها!

ـ أو لم يعد لديهم جسد، أضافت مريم، من كثرة ما تحدثوا عنه، ذاب في الكلام!

فقلت مسايرا لهذا الكلام الذي نرفه به عن قهر المهنة:

ـ الغرب في حالة اضمحلال، حتى في بعض أحيائنا الراقية، وهم السابقون ونحن اللاحقون!

سيدة في الخمسين. لاشك أنها كانت من نشيطات ماي 68. نحيفة، قصيرة القامة، مقوسة الظهر، وتعرج قليلا، لكنها لا تخلو من ملاحة وذكاء.

وكان هناك ثلاثة أنواع من النساء، حوالي أربعين امرأة معدل عمرهن أربعون سنة: نوع يتباهى بجسده، أحيانا إلى حد الافتتان، أو المرض، ونوع يحتقره، حتى يكاد يبدو زاهدا فيه، في بعض الحالات، ونوع يخجل منه، كأنه عقدته الأساسية؛ كل شيء واضح في نوع الماكياج واللباس!

ـ راقب أنواع البشرات، توصيني مريم!

ولم يكن بينهن سوى أربعة رجال: ثلاثة بأجساد رياضية، ولكن وجوههم صفراء، كأنهم خارجون للتو من المستشفى، أو الحبس، وواحد تسبق كرشه قدميه، لكن خذيه موردان، مثل طفل يخرج من مباراة طويلة. والظاهر أن كل واحد من الرجال يصاحب امرأة تحرص على أن يبقى جنبها؛ كل الأوامر تتم بالنظر وقسمات الوجه!

ـ ولاحظ الخوف، أو عدم الثقة، تضيف مريم!

وصعدت الفرنسية العرجاء إلى المنصة. قدمت تعريفا بسيطا للجسد:

ـ"الجسد هو بيت اللحم الذي نسكنه أربعا وعشرين ساعة على أربع وعشرين ساعة"!

استغربت، في سري:

ـ لابد أن هذا التعريف يخون شيئا ما، يفضحه!

ثم استخلصت من ذلك أهميته، ودوره في سعادتنا، وحتمية الاعتناء به أكثر من أي شيء آخر:

ـ "اللحم حي، يفسد بأسرع من الطوب"

بعد ذلك دخلت في مقارنات طويلة بين وسائل العناية التقليدية، الكثيرة والطبيعية، بالجسد من طرف نساء الجنوب وسيطرة وسائل العناية الاصطناعية، الكيماوية، لدى نساء الشمال:

ـ هي قد لا تعرف أن الكثيرين منا لم يروا قط أجسادهم، خاصة وجوههم، قلت في سري.

واستمرت تشرح كيف زحفت هذه الوسائل الاصطناعية على أجساد نساء الجنوب، واستنتجت من كل هذا أن

ـ " جسد المرأة قد حول إلى مجرد شيء، سلعة أو واجهة، يطلى بما

يخربه" !

وختمت بالدعوة إلى العودة إلى الطبيعة، بالكف عن الاعتداء على أجساد النساء، وإعادة الاعتبار إلى وسائل العناية التقليدية في الجنوب:

ـ " وليكن للجسد يوم عالمي يحتفى فيه به" !

وكانت هذه العبارة، خاتمة المحاضرة، قد قوبلت بتصفيق حار وطويل.

فتح باب المناقشة أمام الحاضرين. وتدخلت امرأة في حوالي الخامسة و الثلاثين، جسد حي، وثاب، سمرته الناصعة تكاد تمتزج بسواد الفستان الناعم الذي يكشف عن الصدر المكتنز والذراعين الفارعتين والساقين الممتلئين. وصفت عرض السيدة الفرنسية بأنه

ـ " استمرار مترد للنزعة الاستشراقية" !

وأضافت أنه عمومي واختزالي، بالإضافة إلى ذلك

ـ "مليء بالكليشيات"!

واستغربت بدورها كيف يكون الجسد مجرد بيت من اللحم:

ـ أم أنك، يا مدام، في حاجة إلى الكثير من اللحم! وعاتبت المحاضرة على أنها لم تميز على الأقل بين الجسد، والبدن، والجسم، ولا بين تعدد الجنوب ذاته:

ـ الجنوب لا وجود له إلا كجهة من الجهات الأربع، لا وجود له إلا بمقدار وجود الشرق، في أذهانكم، والغرب، في أذهاننا، وإلا هل يوجد شمال يقابل الجنوب، وأين ؟

وظلت تعدد المؤاخذات حتى اضطرت السيدة الفرنسية إلى أن تطلب منها الاختصار، فحدث بين المرأتين الكثير من السجال، حول ما إذا كان على المغربية، وبقية الحاضرين، أن تكتفي بطرح أسئلة على المحاضرة أو

من حقها أن تعبر عن وجهة نظرها، في شكل محاضرة مضادة، فتحول السجال بسرعة إلى سباب حتى حملت الفرنسية أوراقها وانصرفت احتجاجا على سوء المعاملة التي وصفتها بالإرهاب !

والحقيقة أن الفستان الأسود، والحذاء الأسود، والشعر الأسود الكثيف، وسواد العينين، والنبرة الحادة السوداء... كل هذا السواد، ونحن في يونيو الذي لم يعد يطاق حرارة ورطوبة، قد يخيف حقا خاصة عندما قالت المتدخلة:

ـ إن الجسد أول وأكبر هدية ربانية، من جميع العناصر، منحها الخالق للإنسان، استعاره له من الكون كله ليعيده إليه ذات يوم، فالإنسان مسؤول عنه أمام الله والكون. لهذا فإن الجسد تجمع متوازن من عناصر الكون كلها ولا قيمة له، ولا حياة حقا، بدون هذا التوازن، ولا بدون تقبله كهدية، كوديعة...

وتجمع الحاضرون حول المرأة "المغربية" بعضهم يعاتب وبعضهم يثني، فلما همت بالانصراف بدورها تبعتها ثم قدمت إليها نفسي، والجريدة طبعا، وطلبت منها حوارا للقراء. ترددت قليلا ثم قالت لي:

ـ هناك مقهى قريب من هنا !

طلبت المرأة شايا وطلبت قهوة وبدأت أعد التسجيل:

ـ سؤالي الأول: ما هو الجسد ؟

كانت قد رفعت يدها اليمنى إلى ثديها الأيسر وشرعت تداعبه مثلما كانت تفعل وهي تناقش المحاضرة:

ـ ما الجسد ؟... ما الجسد؟... ما الجسد ؟

أخذت تتساءل وهي لا تزال تداعب ثديها.

ثم وضعت بصرها في بصري فجأة. حولت بصري فلم تحول

بصرها. وتركتها تنظر في كما تشاء معتقدا أنها تفكر في السؤال. لكن عينيها طالتا في عيني، عينان سوداوان، واسعتان، عميقتان، بحر. وكررت السؤال مرة أخرى، كأني أهرب:

ــ ما هو الجسد، هل لديك تعريف؟

لكنها قالت لي:

ــ تعرف... في عينيك علامة ؟

ارتبكت:

ــ أية علامة ؟

قالت واثقة وحانية:

ــ علامة تعاسة... في عينيك بريق ذابل، بريق الجسد الذي يشتغل كثيرا لكنه لا يحب، أو لا يسعد بالحب، بدون توازن !

ازداد ارتباكي:

ــ وما علاقة هذا بالجسد، بتعريفه ؟

ورأيت ابتسامتها اللطيفة أخيرا، ابتسامة تشبه دائرة الضوء، أو الموجة، تبدأ صغيرة جدا وتظل تتسع في تؤدة حتى تصبح كالشمس:

ــ كل شيء يقرأ في العين، كل الجسد، الجسد كله يتجلى في العين. لنقل إذن إن اللغة الأولى للجسد هي العين. ولغته الثانية، أي الظاهرة، هي الهيئة العامة للجسم. تستطيع أن تقرأ أي جسد من هيئته: المشية، الطول، البدانة، الانحراف... وهناك لغات أخرى مثل الأسنان ...ولكن الشيء الوحيد الذي يمكنك من معرفته حقا هو العين، أنظر إلي وقل ماذا ترى في عيني !

لم أستطع النظر بسهولة إلى عينيها:

ــ مشتعلتان، قلت لنفسي!

لكنها ظلت تلح، وهي تفتحهما أمام عيني، فنظرت، وما هي إلا هنيهة حتى انفتحت الشمس أمامي، شاسعة، عميقة، مرعبة، جليلة، كريمة، مغرية... مدوخة !

وسألتني مبتهجة:

ـ هاه، ماذا ترى ؟

كنت مبللا بكاملي فكدت أقول:

ـ إني أغرق.

لكني أجبت وكأني أحترق:

ـ الشمس !

عادت إليها ابتسامتها اللطيفة التي تتسع في دوائر كالموجة:

ـ لا، لم تنظر جيدا... هات قدمك، أي قدم، اخلع حذاءك، أزل الجورب، مد قدمك نحوي، سأعلمك لغة أبسط، كيف تقرأ خريطة الجسد، كل الجسد !

توقفت قبل خلع الجورب، وأنا أشعر بأن الشمس قد تحولت إلى بحر:

ـ قدمي نتنة !

لكن الابتسامة اللطيفة التي كانت بلغت مداها لم تفارقها:

ـ لا تهتم، هذا أمر بسيط، يعكس بدوره شيئا من علاقتك بجسدك، لكن هات القدم !

أمسكت قدمي بلطف ثم وضعتها في حجرها برقة وأخذت تتأمل أسفلها:

ـ كل الجسد يوجد مصغرا في أسفل القدم: هنا العينان، هنا الرقبة، وهنا... محبط، ومتوتر...

كان النادل وصاحب المقهى يقفان على رأسينا:

ـ هذا مقهى محترم نمنع فيه القراءة والحب، نعني قلة الأدب، فالرجاء الانصراف قبل مجئ الشرطة!

سحبت قدمي من حجرها بينما ظلت تحاول الإبقاء عليها ثم أردت أن أؤدي ثمن ما شربنا فرفضت فقال صاحب المقهى:

ـ اعتبروها هدية مني !

فضحكت ساخرة ورمته، في وجهه، بورقة مائة درهم!

ولما رآنا النادل ننصرف من غير أن نسترد الفرق الكبير في الثمن قال:

ـ سامحونا، هذه أوامر الأمن !

بينما قال صاحب المقهى:

ـ كفار، قوم لوط لعنة الله عليهم !

وفي الوقت الذي استدرت فيه نحوه غاضبا قالت لي:

ـ أتركه، متخلف، كم يلزم من الوقت والجهد مع مثل هذا التخلف !

فقلت:

ـ الحقيقة أنه مجرد مهرب يبيض أمواله في شراء المقاهي والحانات!

وأضافت:

ـ والعمارات... وكم يلزم من الوقت، من هذا الوقت؟

آنئذ وقف الطاكسي لأول مرة في ساحة النصر. كنا صامتين. وكذلك السائق الذي امتدت يداه حول المقود غليظتين، طويلتين، مكسوتين بزغب كثيف. شارع رحال المسكيني. شارع المعاني. شارع عبد المومن. زقاق ضيق. عمارة صغيرة ذات ثلاثة طوابق. الطابق الثالث. شقة ذات صالون وغرفة نوم ومطبخ. وفي الغرفة الفيروزية أجلستني أمامها على السرير وقالت لي:

ـ الآن تأمل عيني واتركني أتأمل عينيك !

وتأملت عينيها حتى سقطت بين ذراعيها دائخا. مسحت على رأسي قليلا ثم قالت لي:

ـ هات قدميك الآن !

منذئذ بدأ نفس المشهد يتكرر في نفس، أو مثل، الوقت: الهبوط من شقتي، في الطابق الرابع، باب العمارة، بشارع إميل زولا. ساحة النصر. محطة الطاكسيات، أنتظر. تأتي امرأة. تنتظر. نركب معا، خلف السائق. لا نختار أي اتجاه. لا نتكلم. لا يتكلم السائق. يكتفي السائق باختيار الاتجاه. شارع رحال المسكيني. شارع المعاني. شارع عبد المومن. الزقاق الضيق. العمارة الصغيرة ذات الثلاثة طوابق. الطابق الثالث. الشقة ذات الصالون وغرفة النوم والمطبخ. مباشرة إلى غرفة النوم. الفيروز. أخلع ملابسي أمام النافذة المشرعة. تخلع ملابسها أمام المرآة. يغمرنا الفيروز برائحته. الشمس. نختفي تحت غطاء السرير العريض. البحر. ثم باب العمارة من جديد. الطاكسي في انتظارنا. نصعد خلف السائق صامتين. ينطلق السائق صامتا. نخرج من ذاك الزقاق الضيق. شارع عبد المومن. شارع المعاني. رحال المسكيني. ساحة النصر. ننزل من الطاكسي. تنصرف في اتجاه لاله ياقوت. أنصرف في اتجاه إميل زولا. أصعد إلى شقتي في الطابق الرابع. الساعة الثانية، نهارا أو ليلا؟ مرة ليلا ومرة نهارا، مثل الوقت، أو نفس الوقت، ليس هذا الوقت. أنام قبل أن أذهب إلى العمل. أستيقظ فأجد عطر المرأة يملأ أنفي، كل جسدي، ملابسي الداخلية، كل الغرفة. لم أعد أستحم دائما لكي لا تسد مسام جسدها التي تظل قابضة بمسام جسدي، لكي لا يفسد هذا العطر الذي لا يفسده عرق ولا وقت : بعض الأجساد تعطر العطر وبعضها ينتنه، بسبب ما تسميه عدم التوازن ربما !

و لقد كان اسم عطرها " حشيش" أو " أفيون"، أظن! فهل ذاق العربي الشيهب حقا من هذا الحشيش، وهل استحم مثلي في هذا اليم، في هذه الشمس؟ لماذا حكيت له، قطع لساني، عن كل هذا الوقت حتى تخيل نفسه بطله وحوله إلى قصة يعتقد أنه مؤلفها وأني سارقها؟ يسرق الشيهب عواطفي، زمني، فيسميها قصة بعنوان " هذا الوقت ليس الزمان"، حتى إذا فضحته يرفع ضدي تظلما إلى المحكمة، ويسرق الناظمي سحر حليمة، من كل عشاقها، حتى إذا ماتت مات!...حقا، هذا الوقت ليس الآن!

بهلول

انتحر، أو غرق، العربي الشيهب، في البحر؟... أفضل صيغة الانتحار، فهي تناسبه تماما، إضافة إلى أنها تعلي من شأنه قليلا في نفسي، تجعله يشبه البشر، فالشيء الوحيد الذي يجعلنا نشترك في البشرية، هذه الأيام، هو أننا لا نكف عن اغتيال أنفسنا، فترانا جميعا نمارس الحداد، السواد... الشرط الإنساني الأسود، هذا الوقت... ولا أنكر أني أشفقت على العربي الشيهب، حزنت، لقد كنت أحب فيه شيئا أكرهه في نفسي، أتعبني ولم يتعبه، أتعسني وسعد به بقدر ما يسعد إنسان بشقائه: كان دائما يتصبب عرقا!

وطرقت باب الشقة خفيفا، وجلا، مترددا. الساعة السابعة و النصف:

ـ ادفع الباب وادخل !

ودفعت الباب متعجبا:

ـ أغلق الباب، أنا في المطبخ !

كانت القطة تتشمم قدمي وأنا أغلق الباب ثم سارت أمامي حتى قالت لي رابية:

ـ تفضل، هنا مكانك !

وجلست في الأريكة الثانية جنبها:

ـ كنت أعرف أنك ستأتي هذا المساء، وأنا مسرورة لأنك أتيت !

في نومي القيلولة متأخرا رأيت فتاة، لم أكن أعرفها، اسمها مينة، في دويسبورغ ترقص على مائدة صغيرة من الأرز، ترقص" هيت " أظن، فيتقدم نحوها شاب أشقر، طويل القامة، عريض المنكبين، يتفرج عليها قليلا ثم يبتسم لها ويمد يده نحوها، تطير مينة وتستقر تحت ذراعه اليمنى، تقول له بالألمانية:

ــ أريد أن أرى مدينة ترير !

يركبان القطار، وهي تحت ذراعه، ثم ينزلان في المحطة بترير، وهي تحت ذراعه، ثم يسيران في نزهة طويلة حول الموزيل، يتوقفان عند شجرة ضخمة ثم يقول لها بعربية مغربية:

ــ هذه الشجرة توجد عندنا، بأزرو، أخت توأم لها، شجرتنا أضخم وأجمل، لكن هذه أخضر وأرحب!

لماذا أتذكر الآن هذا الحلم؟

طبعا، لا بد أن أفك هذا اللغز: لغز أريانة، وليشرب عزيزي ماء البحر، ومعه مالك والراضي وكل القبيلة، ولتذهب رابية المحتالة بسرورها، وكذلك سائق الطاكسي، الكثيف زغب اليدين الطويلتين العريضتين، إلى الجحيم...العربي مسكين، أكيد جهنم، دنيا وآخرة!

ــ الله يستر، يا ربي استر، تردد مريم باستمرار!

وعلى طاولة الأكل شمعدان برونزي يحمل شمعة طويلة وردية تفوح منها رائحة الليمون وكل الآلات المنزلية الكهربائية متوقفة ما عدا راديو ترانزيستور تنبعث منه موسيقى كلاسيكية: أين ذهبت القطة؟

ــ أين ذهبت أريانة ؟

لم تجب:

ــ القطط تحج، قلت لنفسي!

وانتظرت قليلا ثم سألتها من جديد بصوت أعلى:

ــ سألتك عن أريانة، أين ذهبت ؟

استدارت نحوي فلم أر منها غير السواد وتذكرت أن وجهها، وربما قلبها، مجذوع:

ـ معذرة لم أسمعك، كنت أصغي إلى الموسيقى، استمع و أمهلني قليلا!

ـ عرس فيغارو؟

لماذا ؟ يتزوج، أو لا يتزوج، فيغارو !

سأمهلها ولكني لن أتركها قبل أن أعرف أين أريانة. تدخل صوت بالإيطالية، في الراديو، فقالت لي:

ـ أريانة قد تكون في اشبيلية، أول البارحة كلمتني من قاديس !

إذن قد تكون في أي مكان في الدنيا، يا للجواب الحيلة:

ـ عندها هاتف نقال، طبعا ؟

رن جرس الباب ثم دخلت امرأة في حوالي الأربعين ترتدي جلبابا تقليديا أنيقا... أثر الزمن باد على وجهها لكنها لا تخلو من ملامح جمال وملاحة. تبادلاتا قبلات حارة وسألت كل واحدة منهما الأخرى الأسئلة الاعتيادية حول الصحة والحال ثم نادت رابية:

ـ بهلول، زاهية هنا !

وأقبل الرجل المديد القامة الطويل اليدين الغليظتين اللتين يكسوهما الزغب الكثيف كأنه استيقظ لتوه من بين أهل الكهف:

ـ سائق الطاكسي اسمه بهلول، إذن: فيغارو !

سلم بهلول على زاهية من بعيد ثم أخذها من يدها:

ـ عن إذنكما، سنذهب إلى غرفة النوم !

ـ يشتركان معنا في غرفة النوم!

(وقال الناظمي:

ـ كلما رأيت شخصين يدخلان غرفة النوم أشعر بالسعادة، يزداد أملي

في الدنيا، ترتفع لدي درجة الرغبة!

ـ سر، ألحمار، سر، يقول الشيهب، حيوان!)

الواضح أنه دائما هنا، لكن مثل شبح، في الظل:

ـ سألتك عن هاتف أريانة النقال !

قالت متجاهلة بشكل مثير:

ـ تصدق، يا ملوك، أن بهلول يجد الحب لأول مرة في حياته !

تعرف اسمي ؟ أريانة نفسها لا تعرفه، أعني لم تنطقه ولو مرة واحدة: تسبقنا إلى الحميمية!

ـ نحن لا نلتقي بالحب إلا عندما نكون قد أصبحنا مستعدين لذلك، قادرين عليه. وهذا الرجل الطيب المسكين قد عاشر العديد من النساء متوهما في كل مرة أنه يلتقي بالحب، هل تعرف ما الذي يجعلنا مستعدين للحب قادرين عليه ؟

أنا أريد أن أعرف أين أريانة أو على الأقل رقم هاتفها النقال ولا يعنيني في شيء هذا التافه الذي قد أصبح عاشقا بقدرة قادر:

ـ الجنون أو التهور !

أحسست بها تضحك خلف الحجاب:

ـ ممكن، خاصة في أقصى درجات العنفوان، لكني أسألك عن الحب بين امرأة ورجل تجاوزا الأربعين، بالسنوات أو بغيرها !

تريدني أن أتحدث عن بهلول العاشق:

ـ كذاب، محتال بطبيعة الحال !

(وها الشيهب يؤكد:

ـ الناس قد خلقوا وهما سموه الحب ليبرروا، في هذا الوقت الذي ليس الآن، ميولهم الحيوانية، خذ حليمة، مثلا... والناظمي، وأنت، وأنا... الحب

مكر الغرائز، أكثره اليوم قناع للطمع، أو تنكر للخوف من الشرط الإنساني الحقيقي: العزلة، الوحدانية...

أنا الآن في الخمسين ولم أشعر بالحب يوما حقيقة، ولا ارتحت له في يوم من الأيام حقيقة، ولا عرفت الطريق إليه حقيقة، بالرغم من أني، كبقية الناس، أحلم به حقيقة، كما أحلم بالصدق، وبالإخلاص، يوه يا أحلام التعب والخيبة !

ـ لم نجتهد، بكل هذه القوة الجماعية، في إخفاء أنفسنا، نرتدي كل هذه الأقنعة ؟ سألت نفسي فجأة)

ولكني قلت لها:

ـ قد يكون الخوف من الوحدة، من الموت في عزلة وتجاهل، أعرف رجلا يريد أن يتزوج ليجد من يشعل عليه الضوء إذا مات، وكان لي صديق يرغب في الأولاد ليجد من يدفنه في نهاية عمره، حسابات عبثية! (ويضيف العربي متوجها إلى الناظمي: قل لا حيلة مع الله)

ـ ولم لا، يا ملوك ؟ في هذه الحالة أيضا يحب المرء نفسه، من لا يحب نفسه، أعني يحترمها ويقدرها، لا يمكن أن يحب أحدا، لن يجد من يحبه، أي يسعى إليه، ولا من يحترمه ويقدره، وعندما تشعر بالحاجة إلى العناية بنفسك تشعر كذلك بالحاجة إلى تبادل هذه العناية مع شخص يريد أن يعتني بنفسه بدوره مثلك، فإذا التقيته، أو عرفت كيف تبحث عنه، تكون أسعد الناس؛ أنت بالذات لماذا تريد أن تبحث عن أريانة ؟

العمياء المجذوعة الوجه، اللعينة، ما زالت تحتال علي لتلصق بي تهمة الحب لابنتها:

ـ لأنها اتخذت قرارا انفراديا !

كان بهلول قد دخل إلى المطبخ ممسكا بيد زاهية كما انصرفا:

ـ طفل صغير في جثة فيل، هل يعقل أن تصغرنا الرغبة إلى هذا الحد، رجل... وزاهية، على العكس، تبدو في قمة نضجها، في ذروة عنفوانها؟

قال صغير الفيلة:

ـ سأوصل زاهية، لن أتأخر كثيرا !

وقلت في سري:

ـ يجب على بهلول أن يتعلم الحب من الكلاب، إنه لأسرع من ديك !

وقالت له بينما زاهية تتقدم نحوها ليتبادلا نفس القبلات الطويلة الحارة:

ـ خذ كل وقتك، ملوك يؤنسني !

لكن القطة ظهرت آنئذ فأحسست نحوها بغيرة شديدة وذكرتني على الفور بالناظمي مرة أخرى، قالت:

ـ ليس هناك ما هو أسوأ من عشق القطط!

كان الشيهب يستشهد به دائما كدليل على أن الحب ليس سوى غريزة حين تهيج تذهب العقل، بينما يعترض الناظمي ضاربا المثل ببعض الطيور...

قبل أن تسألني:

ـ وفيم يعنيك هذا القرار الانفرادي، هل تحبها ؟

وأردت أن أقول على الفور وبشكل قاطع:

ـ لا !

إلا أني خفت أن تقولها لابنتها فأفقد الشمس والبحر معا. لأول مرة في حياتي أشعر إذن بأن السكوت موقف مزدوج، لا وسط، فصمت لأقول:

ـ لا ونعم !

لكن العمياء الخبيثة المحتالة استمرت تتكلم:

ـ كل الحب هكذا، موقف، أو شعور مزدوج، خليط، غير أنه يصفو، ويتضح، عندما تصفو النفس من الشوائب والمنغصات، مثل الخوف أو الاحتياط الزائد، فنكتشف أن العناية بالآخر، ومحبتنا له، عناية بنا و محبة لأنفسنا، وكذلك تقديرنا، واحترامنا، وسعينا إليه، نريده لنا كما نريد نفسنا له... بدون هذا الصفاء ليس هناك أية إمكانية للحب أو السعادة، نظل نريد ولا نريد، نحب ولا نحب... لأننا ننصت إلى مئات الأصوات بداخلنا، إلى كل الأصوات، في حين أننا لا نحتاج سوى إلى الإنصات إلى صوت واحد، الأقوى و الأغنى، وكيف ندعي حب شخص ونحن لا نستطيع أن نقول له كلمة واحدة صافية وواضحة:

ـ أحبك ؟

تلومني بكل هذا العنف، كأنها تريد أن تقول لي بعبارة صافية واضحة:

ـ اترك ابنتي وشأنها، إنها لا تحبك !

فماذا أقول ؟ قالت:

ـ مصدر عذابنا في الحب أننا لا نعرف كيف ننصت بصدق إلى قلوبنا، أو نريد أن نجمع فيها المستحيلات، المتناقضات، و أشد مصادر التعاسة أن نجري وراء شخص ونحن نعرف أنه غير مستعد للحب ولا قادر عليه، أنه مليء بالتناقضات، لا يبذل أي جهد من أجل الوصول إلى بعض الصفاء والوضوح مع نفسه رغم تعاساته المتكررة!

سعيت إلى أن أوقف هذا الاحتيال، وأنا لم أعد أعرف أنه صد أو استقطاب:

ـ الظروف أقوى منا، لم تترك فينا هذه الظروف واحدا سعيدا، قادرا على الحب !

قالت:

ــ هذا منطق أريانة، قبل سن الثلاثين، كانت تعتقد أن ظروف الحياة تمنع كل إمكان للحب أو السعادة، ولكنها كانت تقول إنها تريد الحب والسعادة!

وأردت أن أسألها:

ــ هل غيرت رأيها حقا ؟

إلا أني قلت:

ــ صحيح كل الناس تريد الحب، تريد السعادة، ولكن هناك شروط ترتب الأسبقيات !

فقالت:

ــ وتؤجل ذلك إلى أن تتحسن الظروف، أي إلى أن يأتي ملاك الموت!

ولما لاحظت أني لم أستطع أن أقول شيئا تابعت وكأنها الوالدة تعاقبني كلما أخطأت:

ــ كل شيء في الحياة، بعد الرغبة، إرادة، وقرار، ثم تدبير؛ فليكف الذي يختار الشقاء عن البكاء، وكل من اختار العمى عليه ألا يلوم النور !

واشتعلت في جسدي شمس أريانة لكنها أضافت لتبردني:

ــ كثير من الناس سعداء في الحب والحياة والعديد منهم يستمتع جيدا بالنور، فليكف التعساء عن رجمهم بالغيب !

أحسست بدمعة ساخنة تخونني فأردت أن أوقفها لكن الإرادة لم تسعفني فتتالت الدموع في وجهي، وهي صامتة، حتى عاد بهلول الذي فاجأني:

ــ تبكي، يا ملوك ؟

وسمعت القطة تموء مواء غريبا كأنها تنوح:

(وقال الذي يخاف من وجهه، متنكرا في وجه الشيهب:

ـ لتمت كل الكلاب، والقطط... ما هذه الفضيحة؟ تريد أن تحب ككلب، أو قط، كالناظمي، أوحليمة؟ فضيحة!)

فتدخلت رابية بيننا:

ـ لقد أصبح واحدا منا !

ولم أعرف كيف توقفت عن البكاء فجأة فقالت:

ـ تتعشى معنا وتنام وغدا أعطيك وقم هاتف أريانة !

غير أن نفسي ظلت مسدودة عن الأكل فلما حان وقت النوم قالت لي رابية:

ـ تعال !

ووضعت رأسي في حجرها، إلى جانب رأس القطة، فنمت على الفور إذ شعرت بأنها أمي، وقد تخلت فجأة عن إرهابي، عن تخويفي من النساء والدنيا، ولكن خيل إلي أنها حكت لي، أنا والقطة، لكي ننام، حكايتين قديمتين!

داني ودانية

كان، في سالف العصر والأوان، رجل، اسمه عمران، يعيش في جبل معزول، اسمه جبل التين، مع كلبة صغيرة، اسمها دانية، كان يعيش سعيدا مع كلبته إلى أن ظهر كلب، اسمه داني، بالقرب منهما على قمة جبل التين...

ولقد ظل داني بعيدا دائما عن دانية، و لكن ذات صباح وجد عمران داني ودانية ملتصقين فحاول فصلهما بدون فائدة، فشرع في ضربهما بعصا غليظة... ظل يضرب، وقد كان نصيب الكلب، من الضرب، أكبر من نصيب الكلبة، وهما يهربان ملتصقين، فرآه أحد الصيادين وضحك من حاله:

ـ إنك لن تنجح في فصلهما، وهما في هذا الوضع، ولو قتلتهما !

ولكن عمران لم يتوقف عن ضرب الكلبة والكلب ثم إنه، وقد بلغ منه الجهد منتهاه، استأجر بندقية الصياد وأطلق منها النار على الكلب، لكن بدل أن يسقط داني سقط عمران، فقال له الصياد الذي راقبه يحتضر:

ـ للكلب سبع أرواح، روحك واحدة فقط منها !

مسعودة

وكان يا ما كان، يا ولدي ياملوك، في سالف العصر والأوان، كان حتى كان لحبق والسوسان، وبعد الحمد للرحمان و الصلا على النبي العدنان، كان حتى كان لعمى يخيط الكتان، والزحاف ينقز الحيطان، وكان رجل زحاف، من أهل مراكش الجنان، يعيش في العز والأمان، أحب أصدقائه إليه أعمى كسلان، لا تطيب له سهرة ولا طعام بدون هذا الأعمى الخسران، وبينما هما في السهر حتى مطلع الفجر، ذات ليلة، قال الأعمى للمقعد:

ـ أحب هذه الأمة الحرة التي تسهر على خدمتنا كل ليلة!

وفوجئ سمعان، وهو اسم المقعد، فلم يدرك قصده المباشر:

ـ وكيف عرفت أنها أمة حرة؟

فتفكر زيدان، وهو اسم الأعمى، فقال:

ـ لأنها لا تسمع ولا تأمر أو تؤمر!

فقال سمعان متعجبا، مرة جديدة، من صديقه:

ـ صدقت ووالله إنك لتبصر!

فتشجع زيدان وهو يبتسم:

ـ قبلت تزويجها لي إذن؟

وتعجب سمعان من أن يرد عليه نفس الخاطر:

ـ ووالله إنك لتقرأ ما في الصدور، لقد فكرت في هذا الأمر منذ ساعة، فأنت وحيد منذ ولدت، ليس لك من يرعاك أو يؤنسك، وهذه الأمة قد نضجت وبدأت تغار منها زوجتي، وأنا أحبها مثل أختي أو ابنتي، ولقد فكرت في أن أعرضها عليك، إذا قبلت أنت وقدرت!

وقال زيدان مسرورا:

ـ قبلت وتعرف أني أقدر، آخذها اللحظة إلى البيت إذا أذنت!

فقال سمعان في لطف و حرج:

ـ لها علينا حق أخذ رأيها، فهي امرأة، ورأي زوجتي، فهي لها مثل الأم!

وطلب من زيدان أن يمهله إلى الغد، حيث سهرا حتى منتصف الليل، وطلب زيدان من سمعان أن يخبره بما تطور إليه الأمر، فما كان من سمعان إلا أن طلب الأمة مسعودة، التي جاءت صحبة الزوجة، فلاحظ أن المرأتين ملثمتان، فسأل زوجته عن ذلك، فقالت، بعد أن طلبت من الغلام الانصراف:

ـ زيدان قد يكون بدأ يبصر وبالرغم من أنه بمثابة أخيك فإنه لابد من الستر والحياء!

فسر سمعان لذلك، وسأل مسعودة عن نفس الأمر فقالت:

ـ زيدان قد بدأ بالفعل يبصر قليلا!

فما صدق ذلك ولكنه سر، وابتسم طويلا، إذ شاهد الأعمى يبتسم، ويحرك عينيه، وقال لمسعودة:

ـ زيدان يريدك زوجة على سنة الله ورسوله، وأنا قد أعتقتك، ووافقت، لكن الرأي الأخير لك!

وردت مسعودة في حياء:

ـ شكرا لك ولله الذي ألهمك، فلقد أكرمتني بنعمتين عظيمتين دفعة واحدة: الحرية والزواج!

وانحت تقبل قدميه بينما هو يحاول صدها ويستعجل رأيها حتى قالت:

ـ ينتظرني غدا ليلا في الزريبة، ولكن بلا خمر!

وانصرفت المرأتان، فعاد الغلام لخدمة الرجلين، فسأل سمعان صديقه زيدان:

ـ هل بدأت تبصر حقا؟

فاستغرب الأعمى سؤال المقعد وأخذ يفرك عينيه حتى قال:

ـ والله أشعر ببعض التحسن منذ البارحة!

فتعجب المقعد لذلك، وأطال فيه التفكير، حتى قال له الأعمى:

ـ لا أفهم لماذا تريد أن أنتظرها في الزريبة، وألا أشرب الخمر، هذه الليلة!

فرد المقعد بدون طويل تفكير:

ـ نزوة ولا شك، نساء!

وسهرا حتى مطلع الفجر، وتفرقا ليناما، كل النهار، فلما استيقظ الأعمى، قبيل المغرب، اغتسل، وتعطر وسوك، ولبس أجمل ما لديه من ثياب، وذهب إلى الزريبة ينتظر مسعودة:

ـ والله جميلة فكرة الزريبة، نساء!

وانتظر إلى العشاء، ثم إلى منتصف الليل، ثم بعيده، فغلبه النوم، وأخذ يشخر، فجاءت مسعودة، واستنفرت البهائم، فلم يفق، ولما رأت البهائم قد لوثته كله، وبدأت تشتم منه روائحها، وهو لا يزال يشخر، وضعت، تحت رأسه، زق خمرة عتيقة، وانصرفت سعيدة !

وتذكر سمعان صديقه زيدان، مع الضحى، فراح يبحث عنه، فوجده غارقا في الشخير، وبراز البهائم، ورائحة الخمر، ولما أيقظه وجده قد استعاد بصره كاملا، فهنأه وفرح له فرحا كبيرا، لكن زيدان اكتفى بالقول، وهو ينصرف:

ـ لن أطمع في زواج مرة أخرى!

وكانت تلك آخر مرة يلتقي فيها الصديقان، إذ غادر زيدان مراكش إلى فاس، مباشرة بعد تلك الحادثة، ولم يعد يقدر سمعان على الشرب وحده، بينما

الزوجة ومسعودة يبذلان له كل ألوان الأنس، والسلوان، حتى طافت بخاطره، ذات ليلة فكرة:

ـ لازلت أدين لمسعودة بنعمة ثانية: علي أن أتزوجها في الحلال!

وكتب لزوجته كل ثروته الطائلة لتوافق على الزواج لكنها أصرت على أن يكمل كل ذلك بالطلاق، فطلقها كارها مغموما، وتزوج بمسعودة على كتاب الله وسنة رسوله، ولما لم يعد يجد، مع الأيام، ما ينفقه بات ليلة كاملة يفكر في تطليق مسعودة، غير أنه لما طلع النهار وجد نفسه يقصد دكانه القديم، مشيا على الأقدام، فشكر الله الذي وهبه مسعودة، التي أعادت إليه عافيته ورغبته في التجارة، من جديد، ورآها تساعده في استعادة مركزه كتاجر كبير، فقال لنفسه:

ـ والله إنها لا تؤمر و لا تسمع لكنها تأمر وتنفع!

فجرى هذا مثلا وعبرة!

ولشد ما كانت دهشته عظيمة، وهو يسكن إليها بالتدريج، إذ اكتشف أن مسعودة قد تتحول، كل ليلة، إلى قطة، أو كلبة، أو بومة، وتبقى طول النهار مسعودة.

وإذا كان المخلوق، يا ولدي، لا يعرف من أين قد تأتيه الهدية، أو يخطيء العلامة، فإنه لا يحصل إلا على ما يتمنى، أو يأمل ويريد، أو يطيق، ولكل طريقته في ذلك، يا ولدي، فليست طريقة زيدان، كما سمعت ورأيت، كطريقة سمعان، ولا طريقة مسعودة أو الزوجة، وهناك، يا ولدي، من يعيش كل هذا كالحلم، أو الكابوس، أو يدوس عليه برجليه، كما يدوس على وردة، أو فراشة، أو دودة، فاللهم اختبرنا بما نريد، ونطيق، ونفهم، ولا تجعلنا ممن يرى ولا يسمع، أو يأمر ولا ينفع، وارزقنا مما يشبع، ويقنع، أو يشفع، ولوكان في أحقر مخلوقاتك وأضعفها!

ميـنـة

ــ يتعذر الاتصال بمخاطبكم الآن، الرجاء إعادة المحاولة فيما بعد!

لكم كرهت هذا الصوت الجميل... المزيف.. الآلي... البارد... ولقد أولت، كل مرة، "فيما بعد" بمعنى"بعد قليل"، فأصبح القليل "كثيرا جدا"، طويلا جدا، محبطا جدا، فظا!

فدخلت على مدير الجريدة وقدمت إليه طلب تكليف بمهمة، من أجل القيام بتحقيقات ثقافية وحوارات فنية بالأندلس، ولأني كنت أعرف أنه سيعتذر "بالوضع المالي المتردي للجريدة " قلت له:

ــ لن يكلف الأمر ميزانية الجريدة أكثر من بطاقة طائرة، أو قطار، أو حافلة، فسيتكفل أصدقائي هناك بالإيواء، وأتكفل أنا بمصروف جيبي !

فوافق، وهو يحاول ككل مرة، يبخل علينا خلالها ببعض المصروف، أن يخفي سروره بنوع من الأسف، وقد تعودنا نحن العاملين في هذه الجريدة ألا نسمع منه غير خطاب الإفلاس بالرغم من أننا نسمعه في أوساط أخرى يفتخر بالازدهار المالي للمؤسسة:

ــ يعز علي أن أبعث صحافيا في مثل سنك وخبرتك في القطار، الحافلة مريحة أكثر، مكيفة، وتتوقف في محطات كثيرة للاستراحة، وتعرض أفلاما جميلة، والركاب عادة طيبون واجتماعيون، وبينهم نساء عديدات...

وتذكرت "خطبه" عندما كان يصرف لنا نصف الأجرة، لفترة طويلة، أو يريد أن يبعث أحدنا خارج الوطن، أو إلى أية منطقة نائية، بدعوة من جهة ما، لكي يتجنب المساهمة في المصاريف، فتحملت هذه الخطبة الأخيرة بالرغم من أنني أحفظها عن ظهر قلب:

ــ المدير بمثابة الأب، قد تستمع إليه فقط لأنه مدير، أي لأن لديه

دائما عقدة ذنب ما، يقول البوطي!

ــ أو قد يخاف أن يزداد طمع الأبناء، تضيف مريم.

ولم يكن لي في الأندلس أي صديق. كان لدي فقط اسم امرأة : فلورا ألفيرانو، معهد الفنون الأندلسية، اشبيلية.

ولقد التقطته، بمحض الصدفة، من كارت بوسطال، كانت على طاولة الأكل بمطبخ رابية، بدون بقية العنوان!

ــ بالصدفة، قلت ؟

ممكن، لكن كان لنا جزء من العائلة يحمل اسم "الفران"، كانوا يزعمون دائما أن نصفهم بقي ب "الفردوس" !

لهذا اعتبرت هذا الاسم إشارة، أي فأل خير، عندما تذكرته فجأة، وأنا لا أكف عن تكرار محاولة الاتصال بأريانة عن طريق رقم هاتفها النقال !

كلما توجهت إلى إسبانيا، خاصة الأندلس وكتالانيا، أشعر بأني، رغم كل شيء، لم أغادر المغرب، وهو شعور ينتابني شعور قريب منه كلما نزلت بجنوب فرنسا، أو البرتغال، حتى أني أجد من العادي جدا أن أكتب أكثر من مرة، بطرق مختلفة: جنوب المغرب يشمل الصحراء وجنوب أوروبا، وليس لهذا البلد شمال، له شرق، بطبيعة الحال، يمتد إلى "الصين"، على الأقل في الموسيقى، وغرب غامض ك "بحر الظلمات"؛ لقد سافرت كثيرا بحكم متطلبات المهنة!

غير أني هذه المرة، وأنا أتوجه نحو الحافلة، أحس بشيء من انقباض النفس كأني بدوري أعاني من تطورات "ملفات الهجرة" ومن فشل المفاوضات المغربية الأوروبية حول الصيد بشواطئ المغرب، ينحبس خيالي كما انحبس خيال المتفاوضين الأوروبيين: بلد مستقل يريد محتكروه أن يحتكروا سمكه كله: السمك!

ربما، كأني أحدس نتائج هذه الرحلة، لكني ينبغي أن أقوم بها مهما كلفني الأمر، وعلي أن أفكر بدوري في المستقبل، فالتفكير في الراهن وحده قد يعمي أو يشل المرء، يضعف الذكاء:

ـ هذه فرصتك الأخيرة لتكون سعيدا، أو شقيا إلى الأبد، أي صحافيا كبيرا، ألحاج ملوك: إما عزيزي ملوك المالك، وإما ملوك الراضي لمسلك، الله يسلك أمورك بخير!

وصعدت إلى الحافلة أبحث عن رقم مقعدي حيث وجدته جنب فتاة جميلة ذاهبة إلى أوروبا في عطلة، وإن حدست بأنها "ستحرق" بطريقة رسمية؛ الفقراء وحدهم، و الأكثرية منهم فقراء إلى الخيال، أو الإرادة، هم الذين يحرقون بطريقة سرية، انتحارية:

ـ صحبة الجمال دائما علامة خير، تذكرنا بأن الحياة ممتعة، متعة، يجب أن نقبل عليها، أو حرمان يجب أن نعوضه، يزعم البوطي !

نظرت إلي نظرة فاحصة، انتقاصية، كأنها تنهرني وأنا أحاول أن أجلس قربها:

ـ كانت تتمنى " نصرانيا " مكاني؟

ربما، لكني أعرف هذه النظرة الاختبارية لدى بعض نسائنا: كم تساوي أو علام تقدر!

قمت باحتلال مقعدي كاملا ثم أخرجت جرائدي ومجلاتي وبدأت أقرأ متجاهلا كلية جارتي ذات الشعر الأشقر المزيف اللون:

ـ أستغرب دائما لتزايد عدد شقراوات الشعر في هذا البلد حتى لأكاد أشعر نحوهن بالاحتقار: فتاة، أو امرأة، سمراء، داكنة السمرة، لها شعر أشقر، العجب!

(ـ لا معنى، ولا قيمة، في هذا الوقت، للمظاهر الخارجية، يؤكد

الشيهب، إنها لا تدل على أية فرادة، ولا تحيل على أية شخصية، أو طبع حقيقي...انظر إلى البنات، وإلى الأولاد، في الشارع مثلا...إلى أي وقت، أو حقيقة، ينتمون؟

ويسبقه الناظمي إلى النتيجة:

ـ ليس إلى هذا الوقت، على كل حال)

وفي القنيطرة أحسست بها تتململ قلقا، ضجرا، ثم ازداد تململها في العرائش حتى أصبح توترا يشبه القرف.

كانت وراءنا امرأة مع طفلة لا تكف عن الضجيج فنامت الأم وبقيت البنت تلعب وراء «السمراء ذات الشعر الأشقر" وتتحرك بشكل مزعج يثير أنين جارتي!

ـ إلى أين تهرب من مثل هذه الأم وطفلتها، منا؟

وكان أمامنا رجل وامرأة، في سن التقاعد، يشخران بطريقة متناغمة: الزواج السعيد النهاية!

ـ خذي ما طاب لك، أيتها الشقراء المزيفة!

وأما ضجيج بداية السفر، لدى أغلب الركاب، فكان يملأ الحافلة كلها، كأنه يحاول أن يتستر عن خوف، أو انزعاج، بالضحك الفارغ، أو كثرة الكلام، ووافر الأدب والمجاملة... إلا جارتي فإنها لا تكف عن التململ والأوف والأنين !

ـ الهاربة: خائفة من الأمام ومن الوراء!

في الباخرة ذهبت أبحث عن مكان هادىء أستطيع من خلاله أن أتأمل مشهد الدلافين وحركة المتوسط.

ـ بركة تفصل الدنيا إلى عالمين، طوبى للدلافين!

وعبرنا المضيق بلا مشاكل في هذه الباخرة العتيقة التي قد تكون

شاهدت هرقل يفصل المغرب عن جزيرة إيبيريا!

ـ (ماذا فعلنا بأساطيرنا، يستطيع أن يسأل الشيهب شامتا في نفسه، وكأنه، مثل هذه الشقراء المتنكرة، ليس واحدا منا؟)

فلما عدنا إلى الحافلة من جديد كانت جارتي تحاول أن تبتسم وهي تنظر إلى كاريكاتور في الجريدة المبسوطة على ركبتي:

ـ ممكن ؟

لا، غير ممكن، لما نتكلف الأدب مع أناس يستعملون الأدب عند الحاجة فقط؟

في الحقيقة، لم أقل شيئا، وكانت قد أمسكت بطرف الجريدة تسحبها نحوها...

تأملت الكاريكاتور فتحولت بسمتها إلى ضحكة:

ـ لم أر قط صورة مضحكة لديانا، الأميرة ديانا تلبس الجلباب والكوفية وتدخن الشيشة في الفيشاوي !

لم أعرها أدنى اهتمام وبقيت غاطسا رأسي في مجلة؛ لولا تلك النظرة الاختبارية الانتقاصية، لو أنها وسعت لي وانسحبت من طرف مقعدي الذي كانت قد توسعت فيه، لكنت قلت لها، وأنا أجلس، وهي ترحب بي:

ـ السلام أو مساء الخير !

ثم أسألها، كطالب:

ـ الأخت طالبة ؟

ماذا في يمكن أن يعيب ؟ اللون المزور للشعر ؟ هذا الأنين الخائف؟ هذا القرف ؟

لا أذكر كيف فكرت في أريانة ثم رابية من جديد، ولا كيف نسيتهما وأنا في الحافلة ثم في الباخرة، قد يكون هذا التنكر:

ـ إني أعاقب هذه المرأة، التي توجد جنبي، على ذنب امرأة أخرى لا تعرفها، يا لضعف البصيرة !

وقررت أن أفتح لها صدري:

ــ الأخت من الدار البيضاء ؟

انفرجت أساريرها:

ــ من المحمدية، أخويا !

وتوالت الأسئلة الاعتيادية وتم التعارف ثم تبادلنا بعض الأسرار الصغيرة ثم استطعت أن أستدرجها للحديث عن سبب السفر فأخبرتني أنها ستتزوج بألماني تعرفت عليه عن طريق الأنترنت لتضمن مستقبلها ومستقبل العائلة...

أصبحت أليفة، متواضعة، طيبة، مسكينة، فجأة:

ــ ما أحلى هذا " الخارج" الذي نحلم به جميعا، نساء ورجالا، وكلما اتسع ضاق عنه البلد!

ولم أستطع أن أقول لها إني ذاهب بدوري للبحث عن امرأة، اكتفيت بالقول بأني في مهمة صحافية بالأندلس فسالت من عينيها دمعتان:

ــ بلادنا زينة، يا خويا، ما كاينش كيفها، إذا الواحد وجد الخدمة !

وانخرطنا في الحديث الطويل، المتناقض، الذي يجري عادة بين مواطنين، يلتقيان في الخارج، حول البلد !

في اشبيلية كنا قد تبادلنا العناوين وهي تبكي:

ــ ها عار الله، أخويا، إذا اكتاب وجيتي لألمانيا سال على مينة، خويتك غريبة ووحدانية...الله يعاونكم ويشد بكم اوتاد لبلاد!

ــ مجذوبة، مسكينة!

بوهالية، وهي في قمة تنكرها، في شعرها الأشقر، أو صدقها، حين يتعبها التنكر:

(ــ لم تعد الأزياء، كل المظاهر، تدل على شيء حقيقي، على حقيقتها،

على حقيقتنا، في هذا الوطن...ما عليك سوى تأمل البنات والأولاد في الشارع، يحاصرني الشيهب مرة أخرى!

ــ لأنه، ربما، لم تعد لدينا حقيقة، إنسانية حقيقية، تعترض حليمة بلباقتها الكبيرة!)

أما مينة فإنها ستختن الألماني، وتعلمه شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله، وقد تغير اسمه، إذا كان اسمه هاوس يصبح هاني... وستريه من فنون الطاعة، والبساطة، والمتعة، ونكران الذات، مالا يصدق، ما لا تقدر عليه مع واحد من أبناء البلد... حتى تستطيع أن تبعث لأمها وإخوتها بحوالة كل شهر، وتعود، كل غشت، في مرسيديس فارعة محملة بالشوق والهدايا

ــ و" عين الحسود فيها عود"

ــ و" اللي يقدر ها لبحر"

ــ " وشوف، ياعلي لحرامي، الألماني اللي جايبة قدامي"!

كل صيف يتزوج فيغارو...لأهل القبيلة!

الطاكسي لا يعرف معهد الفنون الأندلسية، لكنه اهتدى إليه بعد أن سأل بعض زملائه، وأنزلني أمام بيت أندلسي قديم، واجهته، من كثرة الزهور، تبدو كجنة معلقة، وهو يؤكد:

ــ إنه بيت ومعهد، سكنى و محل للتدريب والتدريس، دق الجرس !

فراشــة

ضغطت على زر، فجاءني صوت امرأة، ذكرني على الفور بأصوات "شيخات" الاستعمار، وبداية الاستقلال، المبحوحة، التي خشنت، بسبب كثرة الخمر والدخان، وصارت، في ذلك الوقت، نموذج الصوت الجميل:

ـــ من ؟... تكلم في الميكرو!

ـــ أنا صديق لأريانة !

ـــ انتظر !

انتظرت أكثر من عشر دقائق، أو خيل إلي:

ـــ الباب مفتوحة، ادخل... صديق أريانة !

خليط من النساء والرجال، في أزياء وأعمار مختلفة، يرقصون في أربع حلقات، فانسلت إحداهن من إحدى الحلقات وتقدمت نحوي:

ـــ مرحبا، أنا فلورا...كيف حال أريانة ؟

فلورا نسخة من لاعبة التينس مارتينا سانشيز، كأنها أختها التوأم، أي هي بالذات في لباس الفلامنكو، لكن الذي شغلني أكثر هو عبارة "كيف حال أريانة ؟ "، يعني أنها لم تأت إلى هنا !

ـــ بخير... تسلم...!

أخذت أتعثر في إسبانيتي المتواضعة، التي كثيرا ما فكرت في تطويرها في معهد سرفانتيس، بكازابلانكا، لولا أن مديرة المعهد كانت عنصرية وتشتغل في "المخابرات"، يزعم البعض، وعلى رأسهم الشيهب، وتهتم ب"علاقاتها " أكثر مما تهتم بنشر اللغة الإسبانية، أو بتعزيز التعاون

والتقارب !

فهربت إلى الفرنسية:

ـ أنا صحافي، أرسلتني جريدتي للقيام بتحقيقات وإجراء حوارات حول الفنون الأندلسية، وبعثتني أريانة إليك لمساعدتي على هذا الأمر !

وضعت ذراعها اليمنى على كتفي وهي تتوجه نحو حلقتها، واستمرت تتكلم بالإسبانية:

ـ بسيطة، ستعيش معنا، تسمع وتشاهد، وسنساعدك على الباقي... كم معك من الوقت ؟

المدير قال لي" ثلاثة أيام كافية في اشبيلية":

ـ أسبوع !

ـ ممكن، قد تجد تشابها بين بعض فنون رقصنا وبعض فنونكم في المغرب !

وأردت أن أقول لها لأثير اهتمامها:

ـ قد يكون هذا بسب التاريخ المشترك الطويل بيننا، لكني أجد الكثير من التراجيدية في فنونكم بينما أجد فنوننا مليئة بالتهكم،... وبعض مظاهر الصراع بين "الكنيسة" و" الإسلام"، التي تشكل أطراس مسجد قرطبة أو الخيرالدا نماذج منها، قد لا يوجد مثلها عندنا لأن الصراع كان بين ملوك وقبائل في المغرب، قائم على الرغبة في محو تام إلا ما ندر !

لكني لم أكن مقتنعا تماما بهذا الأمر، ولم أحاول بعد التأكد منه بصفة قطعية، وكانت هي قد انخرطت في حلقتها من جديد، بينما توجهت نحو كرسي فارغ في ركن معزول، بين شجيرة ومزهرية، وبدأت أتظاهر بالمشاهدة والاستماع، لكني كنت أفكر في أريانة:

ـ أين هي الآن إن لم تكن في اشبيلية، أو في ميلانو؟

بدا لي بعض التشابه بين فلورا وأريانة:

ـ هيئة الجسد، وبعض الحركات والقسمات، التي رسمها الرقص، والقامة، والعينان السودوان العميقتان!

البيت "المعهد الكبير" من ثلاثة طوابق، السفلي مخصص كله للرقص، والباقي كله غرف للنوم، والأكل، والراحة. يسكن هنا بانتظام كل من فلورا، وغلوريا، موراليس، وبيدرو، وأنطونيو، أي أن عدد المقيمين غير المنتظمين أكثر بكثير، في العادة، من القاطنين المنتظمين.

وقد كان هذا البيت في الأصل ملكا لأسرة ألفيرانو التي توارثته منذ عهد الموحدين إلى أن آل إلى فلورا، منذ خمسة عشرة سنة، التي حولته إلى معهد للفنون الأندلسية وسكنى لها وللعاملين معها في المعهد ولكل العابرين من الأصدقاء والفنانين:

ـ تجنبا لأن يصبح نزلا أو عمارة شاهقة من الإسمنت البارد، تقول مفتخرة !

فلورا إذن هي مديرة المعهد ورئيسة الفرقة، يدور في فلكها الجميع، هي الأم الحاضنة، والأخت المتفهمة، والمديرة الصارمة:

ـ ستقطن في غرفة أريانة، لقد جاءتنا من ميلانو لتغيير الجو، لتعلم ما لم تكن تجده في البالي، رغم شغفها بالبالي، فأصبحت أهم راقصة فلامنكو في فرقتنا، لكن ثديها لما خانها أحست بأن كل جسدها قد أصيب، شوه، تستطيع أن تقول، بمعنى ما لم يعد صالحا للرقص، فاعتزلتنا وعادت إلى مسقط رأسها، قد تكون حكت لك كل هذا !

حاولت أن أستفسر عن قصة " الثدي الخائن"، لكن، ولحسن حظي، كانت غلوريا قد تدخلت بعفوية تامة:

ـ كأن جسدي ثدي فقط، متوقف كله على ثدي !

فنظرت إليها فلورا نظرة صارمة:

ـ تكذبين، يا غلوريا، لو نقص بعض من أحد أصابع يديك لجننت !

وأطرقت غلوريا فقالت فلورا مبتسمة:

ـ إن غلوريا القرطبية لن تغفر للإيطالية المغربية، لقد جعلت منها أريانة راقصة من الدرجة الثانية في الفرقة، في كل إشبيلية !

لقد شاهدت غلوريا ترقص: جسد في حرارة بركان، في خفة ونعومة ثعبان، ثعبان جميل، وجليل، ومرعب، آسر في زي فراشة !

وإذا كانت غلوريا، وهي الراقصة الثانية في الفرقة، ترقص بهذا الشكل العجيب، فكيف ترقص أريانة، وهي راقصتها الأولى: فراشة تتنكر في امرأة ؟

أينما توجه الطرف في هذا البيت لا تجد سوى الزهور، والعطور، والفراشات !

تصورت أنه قد يكون لدى غلوريا ما لا يقل أهمية، بشأن أريانة، عما لدى فلورا: لقد بدت لي فلورا عادية في رقصها، مثل معلمة غناء لا تؤدي أية أغنية كاملة، أو لا تنخرط فيها أبدا بشكل تام:

ـ هي المديرة، تضحك غلوريا !

ولقد وجدت، عند فلورا، عطفا صافيا، تفهما مهنيا، أكاد أقول، بخصوص أريانة، لكن غلوريا كانت تحبها بقدرما تكرهها، كانت تقول عنها، وبعفوية تامة دائما، الجميل والقبيح:

ـ لا تنتهي حياة أي جسد ببتر، أو تعطل، أي جزء منه، فالجسد يتكيف مع كل تبدل، ويتجند كله لتعويضه أو تداركه، ولن أوقف الرقص، الفلامنكو أقصد، ولو بترت مني رجل أو يد!

كان علي أن أتظاهر باستمرار بأني أعرف كل شيء عن أريانة، وبخاصة قصة"البتر"، أو " الثدي الخائن"، فوافقت غلوريا على رأيها!

وقد فعلت ذلك أيضا لأطمئن غلوريا على أني أفهمها تماما، وقد أكتب كل ما تقوله، وقد فهمت بالفعل أن غلوريا تقوم باستعداد مبكر، على عكس أريانة، وبشكل يقترب من الفوبية، لتقبل كل ما قد يفاجئ جسدها من أعطاب، تتدرب على هذا كأنها تتدرب على رقصة:

ـ إن أريانة تنقص غلوريا أكثر من أية امرأة أخرى في الفرقة، وهي ما زالت في حاجة إليها لبناء نفسها وتجديدها، بالرغم من، وربما بسبب، أن غلوريا تكبر أريانة بأكثر من عشر سنوات، إنها فنانة حقيقية، قوية كثعبان وهشة كفراشة، وأريانة كل هذا لكنها أكثر نعومة ورشاقة، يقارن بيدرو!

ولقد أحسست كذلك بأن غلوريا تشعر بأني جئت إلى المعهد لسبب آخر غير المهمة الصحفية، وأنها بالتالي تدرك مشاعري نحو أريانة، فشعرت بغير قليل من التواطؤ معها، والخوف منها:

ـ يقولون إني ما زلت أتنافس مع راقصة اعتزلت الرقص بسبب "معاكسة ثدي"، والحقيقة أن أريانة قد اعتزلت الحب، هربت من الحب مبررة ذلك كله ب "عطب الثدي"، وكأن المرأة تحب بثديها، إذا شوه منها جزء تتوقف عن الحب، كأن الفلامنكو رقص بالثدي !

وتوقفت ثم أضافت:

ـ يصنعون، اليوم، أجمل الأثداء من السيليكون!

مازالت تستعد، تتقوى، في نظري، وهي تواجه أريانة، لكن:

ـ ما قصة هذا الحب ؟

وبعفويتها التامة قالت:

ـ سأحكيها لك !

وتبين لي من حكايتها، من جديد، أنهما كانتا تتنافسان على اجتذاب كاتب اسمه " رامون كالا"، وأن أريانة قد تفوقت فيه، مرة أخرى، على

غلوريا، لكنها هربت منه، بعد معاشرة دامت أقل من شهر، مدعية أن ثديها لم يعد يقدر على الحب؛ أريانة عندما تنجح تهرب، وتتنكر !

ــ أريانة ثعبان، فراشة، وحرباء، ليس لها وجه، تقول غلوريا بقسوة خائبة!

في هذا البيت، وهذه الأجواء المليئة بالنغم والزهور والعطور والملابس الزاهية، واللغط كذلك، والتي لا تتوقف، ليل نهار، كنت أعتمد على ذاكرتي، وحدسي المهني، من أجل تسجيل ما قد أنقله إلى الجريدة، لكني تعبت بسرعة: الناس، في هذا البلد، لا يكفون عن السهر، عن الشرب، وعن العمل، كأنهم لا يستريحون ولا ينامون؛ سهر كل ليلة وتسكع حتى الصباح وعندما أستيقظ أجدهم يرقصون: مرحبا بالقيلولة!

ــ لن تفهم شيئا من الأندلس، وربما من كل إسبانيا، إذا لم تتسكع، في الليل، وتشتغل، جل النهار، وتنم القيلولة... وتأمل جيدا الفلامنكو، ومصارعة الثيران!

عدت منهكا، خائبا، مضطرب الأمعاء والمشاعر، نمت طوال رحلة العودة، ولقد حلمت أكثر من مرة، لكن حلما واحدا يتكرر مرات: مينة ترقص "الهيت" صحبة أريانة، وسط ساحة النصر بالدار البيضاء، والعازفون عزيزي، ومالك، والراضي، ووالدي عثمان لمسلك، بينما الناظمي والشيهب، غير بعيد من الجوقة، يصليان بصوتين يعلوان على الجلبة !

ــ تنكر آخر ؟

لقد كنت، في هذا الحلم، ممزقا بين الرغبة في الرقص والرغبة في الصلاة، أتحرك بين المصلى والجوقة، فلم أصل ولم أرقص!

وكانت أريانة شبحا أسود، طويلا، كالحا، مجرد شبح خال من الجسد، في حين كان جسد مينة طافحا من فستانها الأخضر القصير!

رامـــون

غادرت "صانتا كروث"، قطعت الوادي الكبير، صحبة أنطونيو، إلى الضفة الأخرى، طالبين "باريو دي تريانا"، وأخذنا نبحث عن "رامون كالا"، في "ساحة كوبا" ثم في"شارع الجمهورية الأرجنتينية":

ـ لا تتوغل داخل هذا الحي وحدك، واحذر النصابين والنشالين، فإنهم ليسوا من الغجر وحدهم، حتى بائعي الزهور احذرهم، ظل يكرر بيدرو لامولينا!

ـ ولا تثق في نساء " تريانا "، فإنهن قد يكن أسوأ من الرجال، حتى الأجنبيات منهن، يردد أنطونيو!

ـ وللزيادة في مخاوفك وقلقك، لا تقترب من رامون، إذا عثرت عليه، قبل الساعة الثامنة مساء، تقول غلوريا بالكثير من المرارة، أي قبل أن يكون قد بلل مخيخه بما يكفي من السربيسا!

وتتردد قليلا قبل أن تضيف:

ـ رامون يستيقظ كل يوم على الساعة الثامنة صباحا، يفطر بالقهوة، وحدها، ثم يخلو إلى مكتبه إلى حدود الواحدة ثم يتغذى بأي شيء، ينام حتى السادسة ثم ينزل إلى مقهى تحت بيته، ليقرأ الجرائد، مجانا، ويودع النهار بقهوة أخرى، فيبدأ دورة البارات في السابعة، ينطلق من ساحة كوبا، حيث يبقى حتى الثامنة، إلى أن يروق مزاجه قليلا، فلا يعرف هو نفسه أين يمكن أن يقوده هذا المزاج حتى الثانية صباحا، لكنه حينها يصبح لطيفا، وديعا، حلو المعاشرة، بل تستطيع أن تفعل به ما تشاء أثناءها، أما من الثامنة إلى الثامنة فإنه مر لا يطاق، ولا يطيق نفسه بسهولة في أغلب الأحيان!

وتحاول فلورا أن تداعبها:

ـــ قولي إنك لم تكوني تلحقين به، صحبة أريانة، إلا بعد الثانية صباحا، بعد انتهاء الرقص، أو بين الثامنة و العاشرة، أي قبل الحفل، فهل توجد امرأة عاقلة حقا، عملية حقا، تلحق برجل حين يبدأ يسكر أو حين يكون قد سكر؟

لكن غلوريا تكتفي، كرد، بابتسامة ذابلة بينما يسر إلي أنطونيو:

ـــ معركة خرقاء بين الرجال والنساء، تعرف الأمر: شغل من يسبق ومن ينتظر الآخر أكثر؟ أنا ليس لدي شغل هذه الليلة وسأصحبك إلى "تريانا"، فلا تخف مني!

في الطريق إلى "تريانا " قال لي:

ـــ رامون كاتب تافه، لكنه يسحر بعض القراء، ويغوي بعض النساء، فقط بتنويع حكايات عادية جدا، حول طفولته الشقية، أو التي يصر على أن يقدمها كذلك، تدور كلها حول مشاهد ثلاثة، أنا على يقين من أنها مختلقة من ألفها إلى يائها: المشهد الأول يقوم فيه أبوه، وهو سكران، باغتصاب أمه قبل أن يغتصبه هو وأخته، والمشهد الثاني تستقبل فيه أمه رجلين، في بيت الزوجية، وتمارس معهما الجنس، في نفس الوقت، على مرأى ومسمع من الصبي رامون وأخته " لولا"، بينما في المشهد الثالث يرغمه والده، السكران دائما، على ممارسة الجنس مع" لولا" ليتفرج عليهما هو وأمه، تصور حياة رجل هذا كابوسه!

استغربت حقا لهذه "القذارة" وأحسست بالقرف:

ـــ ويروي كل هذا أمام الملإ!

فيؤكد انطونيو:

ـــ كل ليلة، وهذا كل ما يكتبه، بتنويعات مختلفة بطبيعة الحال، رامون يروي ليلا لمحيطه من النساء والرجال، كل ما يكتبه، أو يتخيله، نهارا، من

هذا الكابوس!

ووجدنا رامون في حانة صغيرة بشارع "بتيس". كانت الساعة الثامنة والنصف. أربعة رجال وامرأة. وحين أشار إليه أنطونيو قائلا:

ــ هاهو رامون!

التفت نحونا رجل يشبه الشحاذين وقال بصوت خافت:

ــ أنطونيو، صديقي، مي كوراصون!

فابتسم لي أنطونيو:

ــ من حسن حظك أنه بدأ يتكلم، أي يصفو!

قدمني أنطونيو باعتباري صحافيا من المغرب، من كازابلانكا، وصديقا لأريانة:

ــ جميل، قال رامون!

فأضاف أنطونيو:

ــ يصر على أن يجري معك حوارا مطولا باعتبارك أشهر وأسوأ، أعني أرذل، كاتب أندلسي معاصر:

ــ جميل، كرر رامون!

وخيل إلي أنه لا يسمع إلا ما يريد حقا، أن في سمعه مصفاة كهذه التي يذخن بها سجائر التبغ الأسود:

ــ ألا تدعونا إلى بيرة، قال أنطونيو متصنعا الغضب؟

ــ جميل، ماذا تشربان؟ أنيتا، ثلاث بيرات!

أبصرت أسنانه الأمامية:

ــ هذا الخراب لم يشاهده طبيب أبدا !

ورأيته يشعل السيجارة، من أختها، تلو السيجارة وأنا أتأمله: لحية رمادية مستديرة وكثيفة، حواجب قوية، عينان جاحظتان، متعبتان، وأنف

ضخم، مقوس، وشعر الرأس أسود، فاحم، يتدلى حتى الكتفين، على معطف شتوي أسود، فاتح، تحته تيــشورت وشورت أبيضان، صدره قوي، بارز، وكذلك ساقاه، مقارنة مع نحافة قدميه التين تستقر مقدماتهما في حذاء أبيض قديم:

ـ ملاكم أخطأ الحلبة، أو أضاع لقبه، قلت في سري مبتسما!

ـ أنيتا، ثلاث بيرات أخريات، أبرد، جميل!

كان أنطونيو قد حذرني من كثرة الكلام قبل أن يصفو تماما:

ـ إذا تكلم تستمع، وإذا حدث وسألك تجيب، لكن لا تفتح فمك بغير مثل هذا، ولا تدعه إلى شيء، دعه يدعك!

ومرت حوالي الساعة ورامون لا ينطق سوى ب:

ـ جميل!

أو:

ـ أنيتا، ثلاث بيرات!

ونحن صامتون بينما تضاعف عدد الزبناء وبدأ شيء من الضجيج يسيطر على الهدوء:

ـ هذا الرجل خجول، مقموع، يعاني من جرح الكبرياء!

لكنه انتفض فجأة وطلب الحساب من أنيتا:

ـ نغير المكان، جميل!

وأدى كل الفاتورة. فخرجنا ودخلنا إلى مكان على بعد أمتار فقط من الأول، مكان أوسع، أهدأ، أبرد. ومن غير أن نطلب شيئا جاءنا نادل قزم بزجاجة نبيذ أحمر وشطائر لحم:

ـ جميل، الأكل!

وأدى رامون من جديد الحساب كله:

ـ جميل، نغير المكان!

ثم غيرنا المكان مرة ثالثة فأدى رامون، ورابعة فأدى رامون، وخامسة فأدى رامون، وفي المرة السادسة، كنا في "سانتا كروث"، فسأل رامون أنطونيو:

ـ جميل، كم معك من البسيطة، يا أنطونيو؟

أجاب أنطونيو وهو يبتسم:

ـ كم تريد؟

فابستم رامون لأول مرة:

ـ جيبك!

فلاحظت أنه لم يستعمل" جميل"، هذه المرةّ!

وأخرج أنطونيو حزمة أوراق ومدها إليه قائلا:

ـ هذه ثروتي كاملة!

وشرع أنطونيو يوزع الأوراق في مختلف جيوبه ثم قال:

ـ المغربي محظوظ هذه الليلة لأن أي ثقب لم يتسرب إلى جيب أنطونيو!

كانت هناك حفلة فلامنكو في المكان الذي دخلنا إليه حيث جاءتنا شابة جميلة بصينية فيها زجاجة خمر ومقبلات. انشغلت هنيهة في مشاهدة الفلامنكو إلى أن قال رامون:

ـ هذا المغربي مغفل، يشاهد الفلامنكو المخصص للسياح، للأغبياء، كأنه ليس واحدا منا!

اكتفيت بابتسامة، لكنه أضاف:

ـ لا يحسن الفلامنكو غير امرأتين في العالم كله: أريانة وغلوريا، خاصة مع فرقة فلورا!

وأردت أن أستغل المناسبة وأبدأ الحوار:

ــ هل يمكنك أن تحدثني عنهما؟

نفث في وجهي دخان سيجارته:

ــ أحدثك عنهما؟ هاتان امرأتان لا يتحدث عنهما، إنهما إما للمشاهدة وإما للمضاجعة!

فتدخل أنطونيو:

ــ الثابت عند الجميع أنك لم تضاجع أية واحدة منهما!

انتصب أنف رامون:

ــ لكني شاهدتهما ترقصان، ترقصان لي وحدي، فدعنا من هذا يا عزيزي أنطونيو، يلعن ابو الحنين!

شيء ما تغير في رامون فجأة: لم يعد حضوره كاملا معنا، فأطرقنا جميعا، وما هي إلا برهة حتى استدار نحو جماعة النساء التي كانت تجلس خلفه وأخذ يحدثهن، بتفاصيل طويلة، عن الكيفية التي اغتصب بها، هو، وأمه، وأخته، من طرف أبيه، السكران دائما، ذاكرا دقائق من الأعضاء التناسلية وحركاتها وما لا يمكن أن يتصور من ألوان العنف، واللذة، القرف، والغضب، إلى أن توقفت فرقة الفلامنكو تماما وكثر حولنا الناس من كل الأعمار والأجناس فقال وهو في ذروة نشوة الحكي، مشيرا إلى قضيبه العاري:

ــ هنا عضني والدي والتهم مني النصف!

فنظر إلي أنطونيو فاغرا فاه:

ــ هذا تفصيل مهم لم أكن على علم به، رامون جذع قضيبه!

ثم أضاف:

ــ قم بنا ننصرف، لقد انخرط رامون من جديد في طفولته المختلقة!

وأكدت لنا غلوريا أنه جذع قضيبه على مرأى منها ومن أريانة، ذات صباح، على الساعة الثالثة، في بيته، لأنه لم يستطع أن يضاجع أريانة!

ـ حينئذ استطاعت أريانة أن تريه الثدي المبتور، لأول مرة، لتغادر، في نفس اليوم، الأندلس، أضافت غلوريا، وهي تبكي!

ولقد بدا لي، وأنا في حافلة العودة، بين النوم واليقظة، قرب طريفة، أن رامون ليس سوى العربي الشيهب، هذا جذع قلبه وذاك جذع قضيبه، بينما يشبه الناظمي، على الأقل في وجهه، ولم تكن أريانة، بالنسبة لرامون، سوى حليمة حين تبكي أو غلوريا حين تبتسم أو تضحك... فشككت في أن أكون قد قمت بهذه الرحلة أصلا إلى الأندلس، قد أكون حلمت فقط!

نجمة

ـ"لا... كنت في الأندلس. في الحلم، أو في اليقظة، كنت في الأندلس!"

ولم أعد من رحلتي إلى الأندلس خائبا كما تصورت في البداية. لقد تعرفت على السيدة غلوريا و السيدة موراليس والآنسة فلورا وعلى أنطونيو وبيدرو. وبالإضافة إلى المتع الكثيرة التي جنيتها هناك، بفضلهم جميعا، فقد أعطتني كل واحدة من تلك النساء، وكذلك الرجال، علامات لم أحسن قراءتها في بادئ الأمر.

لقد قالت لي غلوريا:

ـ ذكرني، رجاء، قبل أن تسافر، لأبعث إلى أريانة بعطريها المفضلين، إنها لا تحب غيرهما، امرأة وفية حتى لعطريها، أعني لا تستطيع أن تكتفي بواحد، بالرغم من أن أفيونها طبيعي، هي لا تستعمل أحد العطرين إلا للتنكر، للتمثيل فقط!

وقالت لي موراليس:

ـ لقد طلبت مني أريانة أن أطلب من خياطتي أن تصنع لها لباسين أسودين: فستانا بلا أكمام لا يتجاوز منتصف الساقين ورداء رهبان يغطي كل الجسم حتى أعلى القدمين، إنهما جاهزان، هل تستطيع حملهما معك ؟

وقالت لي فلورا وهي تعود لتجلس جنبي بعد رقصة فلامنكو قصيرة، لكن معجزة، لأول مرة أشاهدها تؤديها كاملة، صحبة غلوريا وبيدرو:

ـ في مثل هذه اللحظة أتذكر دائما أريانة، نحتاجها لكي يجري الرقص ما بين الأرض والسماء، لكي نطير في الفضاء ونعود إلى أول الزمن حيث نصبح فراشات وثعابين وديناصورات طائرة تؤسس الحلم

البشري الأول، أو الكابوس الأصلي، لكنها غادرتنا وهي في أوج مجدها، أصرت على أن تغادرنا وهي في الثلاثين، كما تعلم، لما نضجت تماما !

وسألت بيدرو مرة لما تتذكر " الفويغو"، أو النار، كما يسميها:

ــ هل تعرف كيف شوه وجهها ؟

فسألني بدوره:

ــ شوه وجهها ؟ لا يمكن !

لكن أنطونيو غمزه وهو يقول له بصوت خفيض:

ــ هذا الدور لعبته في أوبرا " المرأة المجذوعة الوجه" فأحبته كما تحب كل أدوار النساء ذوات العاهات، هل تتذكر كيف أخذت تخرج معنا بهذا الوجه المجذوع كلما قمنا بدورة الحانات ؟

وتدخلت فلورا، وقد احتقن وجهها:

ــ كان ذلك لما اكتشفت أنها تحمل سرطانا في ثديها، أيها الرجال!

فأضافت موراليس بأسى كبير:

ــ لكنها أقلعت عن تقمص كل هذه العاهات لما نجحت عملية استئصال الثدي، كفاكم بؤسا أيها الرجال !

وهكذا فإن هذه العلامات عندما تجمعت لدي ولما فكرت فيها بعيدا عن الأندلس، وخلال يوم وليلة فقط، تبين لي أنها كافية لمعرفة سر أريانة!

ولقد تبين لي كذلك، من مختلف الأحاديث، المتفرقة أو العابرة على الخصوص، أن أريانة قد ولدت في كازابلانكا، بزنقة غرونوبل، في حي الصخور السوداء، من أب إيطالي بالفعل وأم مغربية كانا يمتهنان صناعة الأحذية، لكن الأب كان يعشق الأوبرا، والأم الشاوية تموت في العيطة المرساوية، فلما أتمت أريانة دراستها بمعهد المدينة للرقص والموسيقى أصرا على أن تحصل على البكالوريا، وحصلت عليها سنة 1976، قبل إرسالها

إلى ميلانو حيث تابعت دراسة البالي وفنونا تكميلية أخرى ثم احترفت أريانة البالي و الفلامنكو وأخذت تشتهر وهي تتنقل بين ميلانو، حيث فرقتها للبالي، وكازابلانكا، حيث معمل الأحذية الذي لم يغادره أبواها إلا في نهاية السبعينيات، و اشبيلية، حيث فرقتها للفلامنكو...

غير أنها بعد العملية الجراحية قررت أن تعتزل الفن وتستقر بكازابلانكا بصفة نهائية. وأما والدتها فاسمها الحقيقي رابحة وقد توفيت في نهاية الثمانينات ودفنت بمسقط رأسها بسيدي الذهبي. وليس الرجل الذي قدمت إلى بهلول، بصفته زوجها، سوى والدها !

ولذلك فإنه، وبناء على كل القرائن، يستحيل أن تكون رابية هي رابحة أو أن تكون رابية أما حقيقية لأريانة!

كنت في الطريق إلى بيت رابية وأنا أعيد ترتيب هذه الأمور في ذهني فلما سمعت:

ــ ادفع الباب وادخل !

جاءت القطة" نجمة " ترحب بي وتصحبني إلى المطبخ فبدا لي أن القطة متوترة على غير عادتها، إنني شاركتها نفس الحجر فلماذا هي قلقة إلى هذا الحد ؟

مدت رابية ذراعيها نحوي لتحتضنني فغمرني العطر الأفيون حتى سقطت الهدايا الإسبانية من يدي !

لكني جمعت كل قواي وسألتها:

ــ تقولين لي بنفسك كل شيء أو أخبرك أنا بالسر ؟

دفعتني برفق بعيدا عنها بينما أخذت القطة تموء:

ــ أي سر تقصد، يا بني، إني لا أفهم؟

(قالت موراليس: في " المرأة المجذوعة الوجه" لا تبقى أية أهمية للوجه، ولا حتى للصدر، فكل شيء ينطلق من البطن ويدور حوله، وكانت أريانة تجنن الجمهور عندما تحرك البطن... هذيان... عجب... وتدخل غلوريا فيهدأ الناس إذ ينظر الجميع إلى وجهها الجميل، ينسون أن أهم شيء في الفلامنكو يجري على مستوى البطن)

واقتربت منها فأخفت صدرها بين ذراعيها:

(وأكدت فلورا: لا قيمة تذكر للصدر إن لم يصبح، مثل بقية الجسد، جزءا لا يتجزأ من البطن، يتحرك به وفيه)

لكني توجهت إلى الوجه مباشرة فمزقت الحجاب:

(أخبرني بيدرو أنه عندما يتوقف عن عزف الغيتارة، وسط الرقص، تنطلق الموسيقى من البطن مباشرة، وأنه يسمعها كما لو كان لا يزال يعزف، ويراها في الوجه، كل حركات البطن في الوجه، ولكن يمكنك كذلك أن تشاهدها كاملة في الصدر، في أي جزء من الجسد، في إصبع، وأن تسمعها فيه)

ثم أمسكت بالقناع:

(وأكد أنطونيو: في الفلامنكو، كما عندكم في بعض أنواع الرقص التقليدي، أنا عازف الإيقاع لا أسمع الإيقاع، لكني أراه في حركة البطن، أراقب البطن دائما وأنا أعزف، ولا أنظر إلى الوجه إلا لأرى صورة التناغم بين البطن والآلات)

وفصلته بصعوبة عن الوجه:

(ثم أضاف: لذاك فنحن لا نضرب على الآلات، هي التي.تمسك بأيدنا وتوجهنا إلى الحركات الضرورية حسب إيقاع البطن وصورة الوجه)

ونجحت بينما هي لا تزال تخفي صدرها في ذراعيها وتصرخ،

والقطة يرتفع مواؤها، حتى دخل بهلول:

ـــ مجنون، مجرم !

لكنه لما رأى الوجه تسمر في مكانه:

ـــ الآنسة أريانة، غير ممكن !

وفغر فاه فكفت القطة عن المواء!

آنئذ حررت ثدييها من الذراعين بينما أنا أتأملها غير مصدق فقالت فجأة لبهلول:

ـــ اخرج !

وقالت للقطة:

ـــ صب !

فخرج بهلول تسبقه " نجمة " !

شرعت تتخلص من "ثياب الراهبة »:

(مشهد زائد من " المرأة المجذوعة الوجه" أضافته أريانة، تقول غلوريا، لتهديء الجمهور قبل أن أدخل إلى الركح)

ثم توجهت إلى حنفية المطبخ، فغسلت وجهها، وأخرجت مرآة صغيرة من حقيبة يدها، وأزالت كل بقايا " القناع"، ثم غسلت وجهها من جديد، ونظرت طويلا في المرآة الصغيرة:

(تتباطأ دائما، تقول غلوريا، لأدخل متأخرة، لكني في كل مرة أسكب قنينة من " الأفيون"، فيزول عطرها الطبيعي، فتضطر إلى الخروج)

ثم فتحت كيس الهدايا الأندلسية، ورشت جسدها بالعطر الأفيون:

ـــ مازالت تحاول التنكر، إن أفيونها طبيعي، أما هذا الأفيون فلرابية !

وارتدت الفستان الأسود:

ـــ هذا بعض من أريانة !

ثم عادت قرب حنفية المطبخ، وتناولت سكين الخبز، وبدأت تتأملني بعينين مهددتين:

(عمران سيقتل داني. لا، مسعودة ستمرغ الأعمى في الزريبة وتتركه للقطط تأكل رأسه)

كنت واقفا، متجمدا، أنتظر العقاب، كأني خنت سرا من أسرار أمي، أو كأنها ضبطتني ممسكا بإحدى بنات الجيران:

(و اسمعي، يا أمي، لم أعد خائفا منك، ولم أعد أنتظرك مرعوبا، كل الوقت، لتسعديني أو لتعذبيني، لكني ابنك، أحبك وأقدرك)

وبدأت تتقدم نحوي والسكين تلمع في يدها كأنها تؤدي مقطعا من رقصة فلامنكو:

(وقال الكلب داني لعمران: سأذهب بروحك وليس لك غيرها، فقالت مسعودة للأعمى الطامع فيها: اشرب الزق كله لترى البوم من حولك)

تمنيت فقط أن تطعنني طعنة قاتلة في صدري، وليس في أي مكان آخر:

(وأجابت مينة صديقها عليا الذي نهاها عن السفر والتزوج ب"نصراني": صدري يحرقني، برده إذا قدرت، هات البحر أو أتركني أرحل)

أخذت تنظر إلى عيني، فقط إلى عيني، فوجدتني أغرق مرة أخرى في الشمس:

(وقال داني للكلبة: طلقي الكلب ! فقالت داني: الشمس، أعمران، الشمس والله الجليل)

قالت أريانة فجأة:

ــ تحبني حقا، أيها التعيس ؟

(وأجابه داني: وما هذا الذي ترى، يا عمران الآن، الماء أو النار، الليل أو النهار !؟)

وظهرت لي نفسي، لأول مرة في حياتي، صافية داخل قرص الشمس، فقلت:

ـ أحبك ولم أحب غيرك من قبل !

فسمعت صدى سقوط السكين فوق الأرض، لكن السؤال الكريه أفلت مني:

ـ لماذا كل هذا التنكر ؟

وفوجئت بعودة الابتسامة، أوالشمس، إلى وجهها، إلى البحر، كأنها تنتقل إلى مشهد آخر من نفس رقصة الفلامنكو:

ـ أردت أن أكون لك أما و عشيقة، أيها التعيس الغبي!

أحسست بالدمع حارا، خائنا، في عيني، لكنها قالت لي:

ـ طيب، تعال نذهب إلى غرفة النوم، ونقلب هذه الصور على وجهها السليم !

(وقال الصياد لعمران: والحجل والخنزير إنك تحب الكلبة و لا تعرف كيف تتخلص من الكلب، تخلص من الناظمي، ومن الشيهب، ومن رامون، من القطط، ومن البوم...

وقالت غلوريا لفلورا: أريانة حية في صفة فراشة، تحب "رامون كالا"، لذلك بترت ثديها لتسحره، تركته له ورحلت إلى المغرب، في كل مرة تبتر شيئا من أجل رجل وتغادره، بعد أن تقتله!

وقالت مينة للألماني المختن وهما تحت الشجرة: كل هذه التفاحة، إنها من عندنا، من ولماس، من أكلها لا يمل ولا يفل !

وقالت مسعودة لبهلول سر قل لسمعان يقول لزيدان يقول للزاهية

تقول للناظمي: الله يمسخك يا لكذاب، يا لمنافق، يابو لبنات، أنت قاتل حليمة، فكل ضحية ظاهر جلاد متنكر)

واختفت القطة " نجمة" ولم يظهر لبهلول و لا للزاهية أثر منذ ذلك الوقت:

ــ كأن نجمة كانت تعرف أني خططت، وأنا في الأندلس، لقتلها قبل أن يقتلها بهلول!

(وقال العربي الشيهب، وهو يراني أمسك برأ س نجمة، وكأنه عائد من جهنم يحذر الناس من الوقت: أنت شاهد على أن ولد لمسلك قد سرق مني هذه القضية والوقت ليس الآن، ليس الوقت الوقت، ولا كل الوقت، وأنا أحق بها منه ألف مرة، يسرق مني قصة!)

فقلت لأريانة:

ــ أرأيت كيف يسرقنا الوقت، صور الوقت التي الآن وليست الآن؟

(وقال الشيهب: ها ولد لمسلك يسرقني مرة أخرى وأنا ميت، فأترك أمره للزمان لا للوقت!)

فقالت، وقد امتزجت فيها فجأة أريانة ورابية:

ــ الوقت الآن، كما في الرقص، رقصني، أو صل معي، تذهب كل الكوابيس، تتصالح أسماؤك، وأصواتك، ونعوتك... وتفهم حليمة...فتسامح العربي الشيهب...وسليم الناظمي...

(وقالت لي مينة: برافو عليك، أخويا، قدرت تقتل القطة، والكلبة، والبومة، أنا يالله قدرت على غراب!)

وأخذت أريانة ترقص. فرقصت معها... لأول مرة، في حياتي كلها، أرقص، وكأني أصلي، أو أموت!

الفهرس

صـدر عـن



وزارة الثقـافـة

الأعمال الكاملة
الميلودي شغموم

الروايات

الجزء الأول

■

الجزء الثاني

■

الجزء الثالث

Bibliotheca Alexandrina
11147307

الثمـن :
35 درهمـا